كتاب الهلال

١٠ قروش

سلسلة ثقافية شهرية

إسرائيليات

أحمد بهاء الدين



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٦٨ ـ ذوالقعدة ١٣٨٤ ـ مارس ١٩٦٥

No. 168 — Mars 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

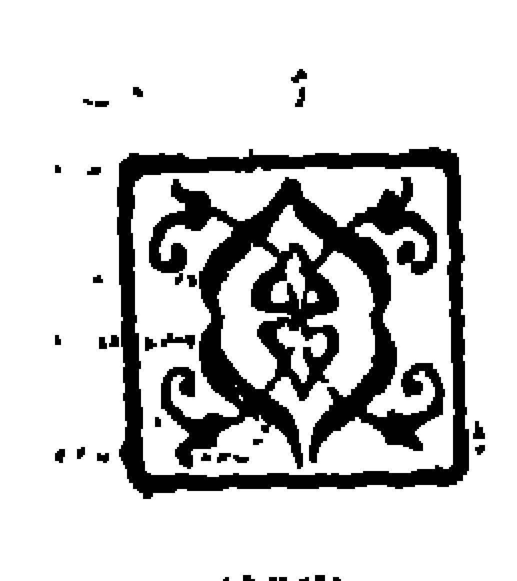
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر ، البحرين ٤٠ آنـة ،
ا ، الجزائر ١٧٥

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

إسرائيليات

بقلم

أحمد بهاء الدين

دار الهلال

مقدمة

مع أن اسرائيل موضوع تطرقه الصحافة والاذاعات فى شتى أنحاء البلاد العربية كل يوم بل وكل ساعة .. فان ما نعرفه عنها قليل !

يخيل لى أن أكثر حديثنا يتجه الى « اسرائيل بمعناها المباشر ، الماثل للعين المجردة » ، أى اسرائيل الدولة التى قامت بالغزو ، والتى تحتل من الأرض العربية مساحة محددة . اسرائيل التى قامت بفعل قوى أجنبية ، وما زالت تستمر بفعل هذه القوى . اسرائيل التى لا تقنع بما حققت : بل انها لا تكف عن طلب المزيد من المهاجرين ، وعينها دائما على المزيد من التوسع

اسرائيل ، بهذا المعنى المباشر الماثل للعين المجردة ، نتحدث عنه كل يوم وكل ساعة .. ولكن الذى لا نتحدث

عنه كثيرا ، ولا تتوقف عنده الا نادرا هو : اسرائيل بمعنى التحدى الحضارى الذى تنطوى عليه .. التحدى الحضارى لهذه الأمة العربية . فقد كان قيام اسرائيل فى حد ذاته علامة من علامات ضعف المنطقة العربية وتخلفها الحضارى

***

مهما كانت القوى التي ساهمت فى اقامة اسرائيل ، فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة الصهيونية النشيطة هى التى لعبت الدور الأساسى ، وهى التى جعلت تدخل هذه القوى الدولية لحسابها أمرا ممكنا

ومهما كانت ـ أيضا ـ هذه القوى التى ضحت بمصالح العرب : فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة العربية كانت على درجة من الضعف والتفكك وعدم الدراية بحقائق العصر ، جعلت انتصار هذه القوى عليها سهلا وممكنا

تلك هى الحقائق التى يجب أن نواجهها .. واذا لم نعترف بهذه الحقائق ونواجهها ، فكأننا لم نتعلم من كارثة فلسطين شيئا !

واذا كنا لا نعترف بهذه الحقائق ، فكأننا لا نعرف

ـ بعد ـ أبعاد الصدام مع اسرائيل ..

ان هذا الصدام ليس معركة عسكرية وليس معركة سياسية . انه شيء أوسع من هذا وأعمق . انه معركة حضارية . والحرب والسياسة ليسا سوى عنصرين عابرين من عناصر واحتمالات المعركة الكبرى الطويلة الأمد ، هي هذه المعركة الحضارية ..

***

والكيان العربي الذي يستطيع أن يواجه تحدي اسرائيل ، ويتخطاه .. ليس مجرد حشد عسكري قوي أو عمل سياسي بارع . ان هذه أيضا عناصر هامة : ولكن الأهم منها أن يكون هذا الكيان نفسه مستكملا سائر أسباب القوة الحضارية : من تقدم مادي ومعنوي وثقافي وعلمي ..

ولكي نفهم التحدي الذي تفرضه اسرائيل علينا ، يجب أن نفهمها من الداخل .. يجب أن نفهم العوامل القديمة والجديدة التي تدخل في تكوين هذا التحدي .. سواء كانت هذه العوامل موجودة في التاريخ القديم أو في التاريخ المعاصر.. سواء كانت هذه العوامل موجودة داخل اسرائيل أو خارج حدودها .. سواء كانت هذه

العوامل موجودة فى مجال السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفكر ، أو الفن ، أو التراث ..

اننى أطالب بأن تكون الجبهة التى نواجه عليها اسرائيل أوسع من الكيلومترات التى تتكون منها حدودها الجغرافية .. لأن هذه الجبهة بالفعل ، شئنا أم أبينا ، أطول من هذه الحدود .. وأعمق من المسافة التى تفصل بين خطوط الهدنة .. والبحر !

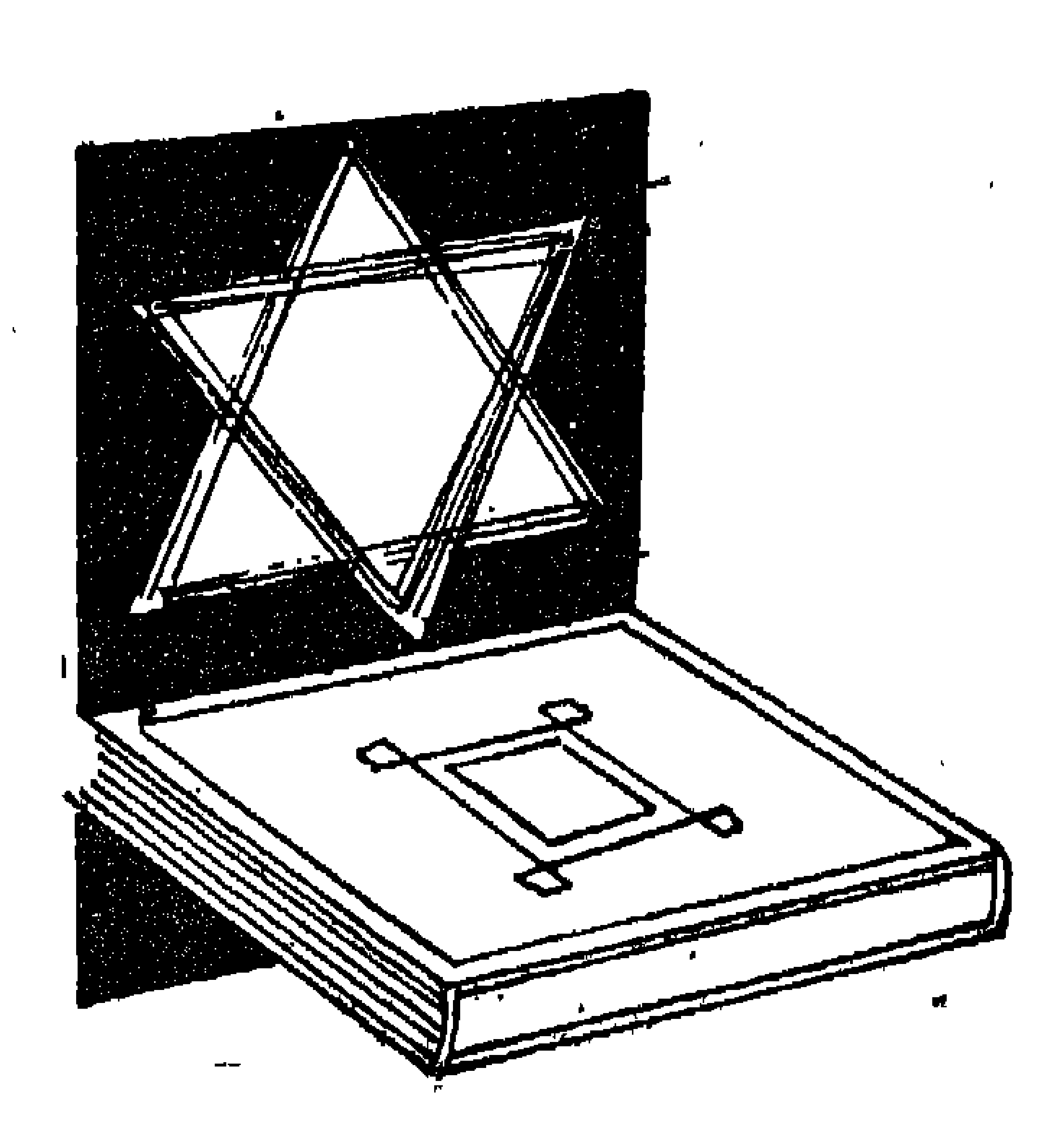
والكتاب الذى بين يديك محاولة فى هذا الاتجاه

احمد بهاء الدين

الفصل الأول

مدخل إلى اسرائيل !

- أسرار العمل الدبلوماسي الصهيوني خلال نصف قرن
- الفرق بين اليهودية والصهيونية
- قيصر روسيا .. والخليفة التركي .. ثم إلى لندن
- متى انتقلت قيادة الحركة إلى أمريكا ؟
- وايزمان .. من روزفلت إلى ترومان
- رد فعل العرب



هذا الكتاب بالغ الاهمية ..

انه لا يستعرض تاريخ الحركة الصهيونية أو تاريخ اسرائيل .. ولكنه يركز على نقطة واحدة هي : العمل الدبلوماسى الصهيونى ، الذى كان يتم دائما على كل مستويات السلطة والنفوذ فى أوروبا وأمريكا ..

انه يروى قصة الحركة الصهيونية وهى تضغط على أبواب الخليفة التركى ، ثم القيصر الالمانى ، ثم رئاسة الوزارة الانجليزية .. وأخيرا : البيت الابيض والكونجرس فى الولايات المتحدة ...

ومؤلف الكتاب شاب اسمه « الن تايلور » والعنوان الاصلى للكتاب هو : Prelude to Israel أى « مدخل الى اسرائيل » . والكتاب نفسه مطبوع فى الولايات المتحدة الامريكية ، فهو لا يمكن أن يتهم بأنه متحيز ضد الصهيونية ، لاى سبب من الاسباب ..

وليست قيمة الكتاب فى أنه وثيقة خطيرة ضد الحركة الصهيونية وضد اسرائيل وضد الدول التى ساعدتها على أن تقوم .. ولكن قيمته أيضا فى أنه درس خطير للعرب ، يفتح عيونهم على مايدور فى هذا العالم من تيارات تحتية ومن أساليب فى العمل السياسى ...

يقول المؤلف ان هدفه من هذا الكتاب هو الكشف عن جذور الصهيونية كحركة سياسية ، وكيف تبلورت أهدافها

ثم كيف انطلقت تعمل في سبيل تحقيق هذه الاهداف

ومن البدء ، ينبه المؤلف الى أن القول الشائع بأن الصهيونية حركة دينية ، قول غير صحيح .. فهى فى الواقع حركة سياسية ، قامت تحمل الرد السياسى على نزعة معاداة السامية ، ذلك الرد الذى تلخص فى : خلق دولة صهيونية ، واعطاء « اليهودية » صفة القومية

انها حركة سياسية ، غير دينية ، قامت فى شرق أوربا من جراء اضطهاد اليهود في روسيا وبولندا والمانيا .. ولكنها ، طمعا فى تأييد يهود العالم ، عمدت الى استخدام تلك الفكرة الرومانتيكية ، « فكرة العودة » .. ومن هنا خلط الناس بين « الصهيونية » وبين « اليهودية » ، رغم ان الصهيونية فى أساسها حركة غير دينية

الخطأ الثانى الشائع ، الذى يقول المؤلف انه يريد أن ينفيه ، هو : الوهم الذى يظن أن قيام دولة اسرائيل جاء مصادفة ، نتيجة للامل اليهودى القديم فى العودة الى فلسطين . وهذا غير صحيح . فالحقيقة التى يريد أن يثبتها الكتاب هى أن اسرائيل قامت نتيجة للجهد المخطط المنظم الذى بذلته الحركة الصهيونية . ان الصهيونية تبدو لمن يتأملها تاملا عابرا ، حركة مليئة بالفرق والشيع والاحزاب ، ولكن من يحلل سياستها وتصرفاتها ، يجدها تتم فى ترتيب وتنسيق عجيبين ، يوحى بوجود قيادة واحدة على الدوام . ويقول المؤلف هنا : انه قد يكون من المتعذر أن نثبت وجود قيادات عليا تقوم بهذا التخطيط . ولكن النظر الى انسجام تصرفاتها يجزم بوجود هذا التصميم المدروس

ملاحظة ثالثة وأخيرة يسجلها المؤلف فى تقديمه للكتاب ، هي : ان كلمة الصهيونية فى كتابه انما تنصرف

الى الصهيونية السياسية • ففى بدء الحركة الصهيونية كانت هناك صهيونيتان على الاقل : صهيونية ثقافية ، تهتم ببعث اللغة اليهودية والثقافة اليهودية ، وصهيونية سياسية لا تستهدف سوى اقامة الدولة اليهودية

وهذه الصهيونية السياسية ، كانت فى البدء مستعدة لاقامة الدولة فى أى مكان آخر ممكن ، غير فلسطين ، مما يؤكد أنها كانت منصرفة فى الدرجة الاولى الى اسباغ صفة القومية السياسية على العنصر اليهودى ، وأن فكرة «العودة» الدينية الى فلسطين لم تظهر الا فيما بعد ، كورقة رابحة لا غير ••

***

فكرة الصهيونية فى حد ذاتها ، عاشت خلال قرون طويلة كناحية من نواحى اليهودية والمسيحية على السواء• فى اليهودية كانت تعيش نتيجة ربط اليهودية بالمملكة العبرية القديمة فى فلسطين • وفى المسيحية ، بدأت توجد منذ عصر كرومويل حين كان هناك اعتقاد بأن مرور الف سنة على رسالة المسيح سيضمن اعادة اليهود الى فلسطين

ولكن الصهيونية كحركة صهيونية ، ليست سوى من مواليد القرن التاسع عشر • فقد بدا لبعض الوقت أن حركة التحرر والمساواة التى بدأت تغزو أوروبا سوف تحل مشكلة اليهود • ولكن اعترض ذلك عقبتان : العقبة الاولى جاءت من اليهود انفسهم ، الذين كرهوا ما يحمله هذا التحرر من احتمال اندماجهم فى الاخرين •• حتى ان ناحوم جولدمان ، الرئيس الحالى للحركة الصهيونية العالمية ، يقول « ان اقامة دولة يهودية هدفه حفظ الشعب اليهودى من خطر التحرر والاندماج » • أما العقبة الثانية فكانت من أوروبا نفسها : فحين بدأ التسامح الدينى يسود ، أخذ التعصب القومى الذى كان بارزا فى القرن

التاسع عشر يتخذ مظهرا عنيفا ، جعل عملية تقبل اندماج اليهود فى القوميات البازغة يصبح صعبا من جديد

ثم جاء حادث هام : هو حادث اغتيال القيصر اسكندر الثانى فى روسيا سنة ١٨٨١ ، فقد أرادت السلطات الروسية وقتها ان تجعل من اليهود كبش الفداء فى هذا الحادث ، فاندلعت عاصفة من ذبح اليهود واضطهادهم .. أدت الى موجة من الهجرة الى غرب أوروبا وأمريكا . ولكن ثلاثة الاف من المهاجرين اليهود ذهبوا فى تلك السنة الى فلسطين . وفى سنة ١٨٨٢ أقاموا « مستعمرة ريشون ليزيون « بالقرب من يافا

وفى نفس تلك السنة ، ظهرت فى روسيا لاول مرة حركة عرفت باسم Chibbath Zion أى «حب صهيون»، وكان أنصارها يتجمعون فى حلقات اسمها « أحباء صهيون »

كانت أهداف هذه الجماعات هى الهجرة الى فلسطين واحياء اللغة العبرية . وهكذا ظهرت لاول مرة بذور الصهيونية السياسية

وقد تم الاعتراف بهذه الجمعيات فى سنة ١٨٩٠ تحت اسم « جمعية مساعدة الصناع والمزارعين اليهود فى سوريا وفلسطين »

كان رئيس هذه الحركة يحمل اسم « ليون بنسكر Leon Pinsker » . وكان قبل ذلك رئيسا لاحدى جماعات أحباء صهيون . وهو فى الواقع أول من دعا الى اقامة وطن قومى لليهود ، دون التمسك بأى مكان معين لهذا الوطن ..

ولكن هذه الحركة لم تلبث أن تصدت لها معارضتان : الاولى من اليهود أنفسهم ، الذين عارضوا فكرة الوطن

اليهودى أباكان ، والمعارضة الثانية من الامبراطورية العثمانية اذ أصدر الباب العالى سنة ١٨٨٨ فرمانا يقضى بمنع أية هجرة جماعية يهودية الى أراضى الدولة العثمانية ، ولا يسمح للحجاج اليهود بقضاء أكثر من ثلاثة أشـــهر فى فلسطين ..

وتجمدت الحركة تماما ..

أما الرجل الذى دفع بهذه الحركة الى الوجود مرة أخرى فهو يهودى مجرى ، تعلم فى فيينا ، اسمه تيودور هرزل .

كان هرزل قانونيا بدراسته ، ولكنه كان يعمل صحفيا يراسل احدى صحف فيينـــا من باريس ، حين اثيرت « قضية دريفوس » الشهيرة فى فرنسا ، سنة ١٨٩٤

وأدرك هرزل ما تنطوى عليه ظروف هذه القضـــية من نزعة عدائية للسامية . ووصل هرزل الى نتيجة هى انه اذا كانت فرنسا بلد الحريات يمكن أن تهب عليها عاصفة من هذا النوع ، فمعنى ذلك انه من الممكن ان تتخـــــــذ معاداة السامية أشكالا أشد عنفا وقسوة فى سائر بلاد أوروبا التى ليس لها أى حظ من التحرر الفرنسى ..

وفى صيف نفس السنة ، ١٨٩٤ ، أصدر هرزل كتابا صغيرا بعنوان « الدولة اليهودية » : يدعو فيه الى اقامة مستعمرة يهودية تحت وصاية انجلترا ، تكون فى فلسطين او فى الارجنتين ، على أن تتطور بعد ذلك الى دولة يهودية قومية مستقلة ذات سيادة

ولا شك أن حديث هرزل عن امكان اقامة وطن قومى لليهود فى الارجنتين ، يستوقف النظر . فهو يدل على أن الحركة الصهيونية ظهرت الى الوجود لاسباب سياسية فقط هى الرد على حركة معاداة السامية ، وليس لتحقيق نبوءات اليهودية القديمة فى العودة الى فلسطين . وقد بقى جوهر

الصهيونية هكذا دائما سياسيا تماما ، وغير ديني. صحيح أن فكرة «العودة» الرومانتيكية قد أدخلت عليها بعد ذلك، ولكن لا لسبب سوى الاستفادة من جاذبيتها في كسب الانصار . اما الحركة الصهيونية فقد بقيت على الدوام كما ولدت : حركة عملية واقعية لا مذهبية .. حركة سياسية للرد على مشكلة سياسية معينة ، لا لتحقيق نبوءة دينية

كان لنشر كتاب هرزل ردود فعل مختلفة ، ولكنه جمع حوله عددا لا بأس به من الانصار ، شجعه على الدعوة الى عقد أول مؤتمر صهيوني عالمي ، وهي الفكرة التي سبق ان اقترحها نفس الرجل الذي نحت كلمة « صهيونية » وهو ناثان برنباوم Nathan Birnbaum .

وفي أغسطس ١٨٩٧ ، انعقد أول مؤتمر صهيوني عالمي ، في مدينة « بال » السويسرية . وفي خطاب الافتتاح ، قال هرزل « اننا هنا لنضع حجر الاساس في بناء البيت الذي سوف يأوي الامة اليهودية » . ثم اقترح برنامجا من ثلاث نقط :

أولا ـ تشجيع القيام بحركة هجرة منظمة واسعة النطاق الى فلسطين

ثانيا ـ الحصول على اعتراف دولي بشرعية هذا التوطن في فلسطين

ثالثا ـ انشاء منظمة دائمة لضم صفوف يهود العالم أجمع وراء القضية الصهيونية

ويقول المؤلف : ان هذه الاهداف الثلاثة ظلت وما تزال هي المهمات الاساسية للحركة الصهيونية : جمع اليهود في فلسطين . الحصول على تأييد الدول الاجنبية . وكسب اليهود الى صف الفكرة الصهيونية

واذا كان هرزل قد استخدم كلمة « دولة » فى التعبير عن هدف الصهيونية ، الا أن المؤتمر فى قراراته النهائية فضل استخدام كلمة Heimstatte أى Homestead حتى لا يحدث رد فعل عنيف

ويرى المؤلف أن هرزل أثناء مناقشة الصياغة وهل يقال دولة أو وطن قومى ، قال : « لا تهم الصياغة ! سيقرأها اليهود على أى حال على أنها « دولة يهودية »

وقبل أن يتم المؤتمر أعماله ، كان قد فرغ من وضع أول نظام للمنظمة الصهيونية العالمية ، بما فيها من أجهزة قيادية وأجهزة تقوم مقام وزارة الخارجية فى أى بلد • فمنذ سنة ١٨٩٧ كان قد تم وضع الخطة ، ورسم الاهداف واقامة « جهاز حكومة » يتولى التخطيط والتنفيذ

وانطلق هرزل ، بوصفه أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ، الى العمل

كان هرزل يعلم جيداً ، أن حجر الاساس فى اقامة هذا الحلم ، هو : موافقة الدول الاجنبية ذات الشأن ، نفس الخط الذى لم تتركه الصهيونية لحظة واحدة ، قبل قيام دولة اسرائيل وبعد قيامها •••

ولجأ هرزل أول الامر الى أحد الحكام الاقوياء فى أوربا ، هو الامبراطور غليوم الثانى : بداية المرحلة وراء الاقوياء من المانيا الى انجلترا ثم الى امريكا •••

لجأ هرزل الى القيصر غليوم الثانى الذى كانت تراوده أحلام قدسية فى الشرق ، اذ قابله فى القسطنطينية ، سنة ١٨٩٨ ، خلال رحلة القيصر فى أرجاء الامبراطورية العثمانية • واقترح هرزل على القيصر اقتراحاً خبيثا : اقترح عليه انشاء شركة لاستثمار الاراضى ، يباشرها الصهيونيون تحت حماية ألمانيا واشرافها • وقال القيصر انه سيفكر فى الامر • وطارد هرزل القيصر حتى

قابله مرة ثانية خلال نفس الرحلة ، فى فلسطين ، يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٨

ولكن القيصر كان قد عقد عزمه على الرفض • وقال ان مثل هذا العمل سوف تعتبره الامبراطورية التركية تدخلا غير مباشر فى شئونها • وقد يثير الدول الاخرى المتربصة بنهاية الامبراطورية التركية المريضة : انجلترا وفرنسا وروسيا ••

وقرر هرزل أن يقصد الباب العالى مباشرة • وفى مايو سنة ١٩٠١ توصل الى مقابلة السلطان العثمانى فى القسطنطينية • وطرح عليه نفس الموضوع بشكل آخر ملائم له ، هو : أن يقوم اليهود بمساعدة السلطان على اعادة تنظيم المالية التركية المرتبكة ، واستثمار الاراضى المهملة فى الامبراطورية مقابل السماح بالهجرة الى فلسطين • ولكن السلطان قال انه لا يستطيع أن يسمح بهجرة يهودية جماعية الى فلسطين

وازاء هذا الفشل ، نقل هرزل نشاطه الى الدولة التى اقترحها من قبل ، كراعية للحركة الصهيونية ، وهى انجلترا ••

وفى سنة ١٩٠٢ ، دخلت المنظمة الصهيونية فى مباحثات جدية مع الحكومة الانجليزية بقصد اقناع انجلترا بمنح الحركة جزءا من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى ، كجزء من الامبراطورية البريطانية

كانت انجلترا فى ذلك الوقت تحتل مصر ، التى تتبعها شبه جزيرة سيناء ، وكانت سيناء بذلك أقرب مكان ، تحت النفوذ الانجليزى ، الى فلسطين • ولا شك أن الحركة الصهيونية اختارتها ، رغم جفاف الطبيعة فيها ، كنقطة ملائمة للوثوب على فلسطين عندما يحين الوقت •

فضلا عن أن سيناء أيضا مكان جرت فيه ذكريات دينية يهودية . ولنتذكر هنا ، أن بن جوريون ، بعد هذه المباحثات بنصف قرن ، انتهز فرصة حرب السويس التى شنها على مصر بالاشتراك مع انجلترا نفسها ، ليقف فى برلمان دولة اسرائيل ويعلن ضم سيناء الى اسرائيل !

المهم ، ان المباحثات توقفت . لان انجلترا ، كما يقول المؤلف ، وجدت معارضة مصرية .. لسنا نعرف قصتها بالضبط ، ولكنها فى رأى المؤلف : كانت أول اشارة الى معارضة العرب فى اقامة وطن قومى يهودى على أرضهم ..

وبعد سنة ، توصل هرزل الى عقد مشروع اتفاق آخر مع الحكومة البريطانية يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية بقصد تعميرها والتوطن فيها . وقدم هرزل هذا المشروع الى المؤتمر الصهيونى السادس . ولكن يبدو أن المؤتمر لم يتحمس للفكرة كثيرا ، أو وجدها محتاجة الى دراسة ، فقرر فقط ارسال بعثة الى أوغندا لدراسة امكانياتها

ومات هرزل سنة ١٩٠٥ ، قبل اتخاذ اى قرار نهائي فى الموضوع ، فكانت النتيجة ان الحركة الصهيونية انقسمت بعد موته الى فريقين : فريق يرى أن المخرج الوحيد لليهود هو الاسراع بقبول أى عرض لاقامة دولتهم ، فى فلسطين أو فى غيرها . وفريق يرى انه اما فلسطين والا فلا لأن فلسطين هى المكان الوحيد الذى يمكن أن ينجذب يهود العالم اليه

فلما جاء المؤتمر الصهيونى السابع سنة ١٩٠٥ ، انتصر الفريق الثانى ، واتخذ المؤتمر قرارا يعلن أن الحركة الصهيونية يجب أن تستهدف اقامة وطن اليهود القومى فى فلسطين بالذات

ومن سنة ١٩٠٥ ، الى سنة ١٩١٤ ، يوم نشبت الحرب العالمية الاولى ، كان التوطن اليهودى فى فلسطين يتزايد فى صمت والحاح ، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد الى ١٢ ألفا ، يعيشون فى تسع وخمسين مستعمرة ..

وكان النفوذ الصهيونى ، قد هاجر بنفس الكثافة الى لندن حيث تركز هناك : فانجلترا كانت القوة العالمية الكبرى ؛ التى يمكنها أن تمنح اليهود مايشاءون ..

كانت الحرب العالمية الاولى نقطة تحول تاريخية ، بل وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية

فها هى الامبراطورية التركية، واضعة اليد على فلسطين، تدخل فى صدام مسلح حاسم مع انجلترا ، التى بدأت تتقبل الحركة الصهيونية وتبحث عن طريقة مناسبة لاستخدامها . والرهان على انهيار الامبراطورية التركية المريضة وانتصار انجلترا والحلفاء ليس صعبا . لهذا كان طبيعيا أن تجد الحركة الصهيونية فى هذه الحرب فرصتها الذهبية ، بشرط : أن تضع كل ثقلها الى جانب انجلترا وأن تتأكد من حصولها على الثمن المناسب

وبرز فى هذه المرحلة اسم « حاييم وايزمان » . وكانت ترشحه لقيادة الحركة الصهيونية ظروف كثيرة

فهو من جهة ، كان احد الداعين الى تآلف واندماج كل التيارات فى الحركة الصهيونية ، والى ضرورة الجمع فى آن واحد بين الجوهر السياسى للحركة والورقة العاطفية الرابحة ورقة « العودة »

وهو من جهة أخرى ، كان قد توطن فى انجلترا وبدأ فيها نشاطا سياسيا واسعا بالفعل . ففى سنة ١٩٠٤ هاجر هذا الكيميائى الروسى الى لندن حيث عاش وبدأ يتصل بالكتاب والصحفيين والساسة من جميع الاحزاب

وكان أول نجاحين له هما : أولا توصله الى عقد صداقة قوية مع لورد بلفور ، الذى لم يكن قد أصبح وزيرا بعد ، والذى قال مرة وهو يقدم وايزمان الى بعض أصدقائه : « هذا هو الرجل الذى جعلنى صهيونيا ! » ..

وثانيا توصله الى كسب « سكوت » رئيس تحرير المانشستر جارديان ، احدى الصحف الكبرى ذات النفوذ

وكان « سكوت » هذا هو الذى عرف وايزمان الى بعض الوزراء الانجليز لاول مرة : عرفه على « هربرت صامويل »، الوزير اليهودى ، كما عرفه على « لويد جورج » الذى أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد : وهكذا بدأ تمهيد الارض لكى تمارس الدبلوماسية الصهيونية عملها وتؤتى ثمارها ..

ويتساءل المؤلف : ترى ما هو السبب الدفين وراء تلك الموجة من تأييد الصهيونية ، التى نمت ، ويا للغرابة ، فى هذا المجتمع الانجليزى المسيحى ؟ ..

ويورد المؤلف رد المؤرخ الانجليزى الكبير أرنولد توينبى على هذا السؤال ..

يقول توينبى : ان المصدر الاول لهذه الموجة هو شعور دفين بالذنب لدى بعض غير اليهود ، الذين هم فى قرارة نفوسهم معادون للسامية ، رغم عدم رضاهم العقلى عن هذا الشعور ، فهم « يكفرون » عنه بتأييد اليهود علنا .والمصدر الثانى فى رأيه هو أن هذا نموذج انجلو سكسونى من نماذج المكيافيلية الممتزجة بالفرنسية !!

أى نموذج من قدرة الانجلوسكسون على مزج أهدافهم السياسية والمصلحية بشعارات تبدو انسانية

واظن أن هذا التفسير الثانى هو الاصدق ، مع عدم استبعاد التفسير الاول استبعادا نهائيا

فمصلحة الانجليز فى تبنى هذه الحركة الصهيونية واضحة : فحيثما حل الاستعمار الانجليزى نجده يعمد الى اقرب مشكلة من مشاكل الاقليات فيخلقها اذا لم تكن موجودة ، وينميها اذا كانت موجـــودة ، وذلك بقصد استخدامها فى خلق مشكلة تصرف الشعب عن مشكلته مع الاحتلال . ولكي يوجد دائما « نقطة ضعف » داخلية فى المجتمع يبنى عليها وجوده ، واستمرار تدخله . ولكى يكون له فى النهاية قطاع من المجتمع مستفيد من وجود الاستعمار ومرتبط به

وفى منطقة كبرى بالغة الخطورة كالمنطقة العربية .. وابان ثورة عربية كانت تتبلور تحت جنح الظلام التركى المنسحب .. لماذا لا يوجد هذا الجسم الطارىء الغريب ، هذا الجسم الصهيونى ، الذى قدم نفسه لانجلترابالتأكيد على أنه مندوب لها ، وقطعة مرتبطة بها ، أبقى لها فى المنطقة من أى جيش مسلح ؟

فاذا غطت انجلترا هذه المصلحة بغطاء انسانى شـفاف هو : الرغبة فى حل المشكلة اليهودية .. واذا كسبت الى جانب ذلك تأييد كل اليهود لها ، وتحولهم الى شبه عملاء لحسابها ، بأموالهم وانتشارهم الاوربى الكبير .. فلمـاذا ترفض انجلترا كل هذا الاغراء ..

ويضيف المؤلف الى هذا كله : ان كثيرا من الغربيين قد خلطوا بين الصهيونية والليبرالية ، وهى نزعة التحرر الانسانى والمساواة . فظنوا ان الصهيونية تحاول حل مشكلة اليهود ، وحل مشكلة اليهود خطوة منطقية مع موجة التحرر الانسانى والمساواة . وجهلوا بسبب هذا الخلط ان « المتحررين » حقاهم اليهود الداعون الى اندماج اليهــود فى المجتمعات التى يعيشـــون فيها ، اما اليهود الصهيونيون ، فهم انما يقدمون حلا عنصريا دينيـــا

متعصبا ، وليس حلا انسانيا متحررا متسامحا

المهم ، ان الاداة الصهيونية في انجلترا بدأت تتحرك ، بدرجة عالية من التنظيم والدراية ..

ففى نوفمبر ١٩١٤ ، كتب « حاييم وايزمان »الىصديقه رئيس تحرير المانشستر جارديان شارحا الخط الصهيونى فقال بالحرف الواحد :

« من الممكن الان ان نقول انه اذا وقعت فلسطين فى دائرة النفوذ البريطاني ، واذا شجعت انجلترا بعد ذلك توطن اليهود هناك ، كمستعمرة بريطانية ، فاننانستطيع ان نوجد خلال الثلاثين سنة القادمة حوالى مليون يهودى فى تلك البلاد : فيطورونها ، وينقلون الحضارة اليها ، ويكونون بمثابة حرس فعال لقناة السويس »

وقد أسعفهم فى هذا الجزء الاخير أن لورد كتشنر كان من رأيه ايضا ان فلسطين هى الموقع الاستراتيجى الذى يجب الاعتماد عليه للدفاع عن قناة السويس فى المدى الطويل .. فأخذوا ينشرون هذا ويذيعونه ..

تلك اذن هى الخطة الصهيونية لمرحلة الحرب العالمية الاولى :

١ ـ ان ينتصر الحلفاء ، وعلى رأسهم انجلترا

٢ ـ ان تكون فلسطين من نصيب انجلترا

٣ ـ أن تسهل انجلترا استيطان اليهود فى فلسطين

٤ ـ ان ينتهى الامر بسيطرة اليهود على فلسطين ، فى مقابل استمرارهم فى خدمة مصالح انجلترا بحراسةقناة السويس لحسابهم

ويلاحظ المؤلف ان كل هـــذه النقط الاربـــع قد تحققت ..

واضيف : انها تحققت حتى وقوع حرب السويس ، فاشتراك اسرائيل مع انجلترا فى الهجـــوم على مصر ، بمناسبة تأميم قناة السويس ، فى المؤامرة المشهورة ، هو حدث غريب ساقته الظروف لتأكيد تنفيذ البند الرابع من هذا « التفاهم »

وأظن أن نظرة المصلحة الانجليزية فى موضـــــوع الصهيونية كلها ، منذ مطلع القرن العشرين ، أصبحت واضحة تماما .. غـــير محتاجة الى تحليـــلات توينبى النفسية !

وفى ذلك الوقت كان لويد جورج وهربرت صمويل قد بدءا فى اقناع سائر الوزراء الانجليز بهذه السياسة . حتى تعهد سير ادوارد جراى وزير الخارجية باقامة مثل هذه الدولة فى المستقبل ، منضما بذلك الى انصـــار الصهيونية فى مجلس الوزراء البريطانى

ولكن هذه السياسة ، مع ذلك توقفت قليلا مصطدمة بعقبتين :

العقبة الاولى : هى ان اسكويث رئيس الوزراء كان مرتبطا بسياسة احلال العرب محل الاتراك كأصـــدقاء وحلفاء لانجلترا فى الشرق الاوسط

والعقبة الثانية : ان كتلة كبرى من اليهود ، كانوا يرون ان حل مشكلة اليهود هو الذوبان فى المجتمـــع الاوروبى ، وأن خلق دولة صهيونية معناه زيادة النزعة المعادية للسامية فى أوروبا ، بدلا من اطفائها ..

ويروى المؤلف انه فى تلك الاثناء ، عرف وايزمان من لويد جورج ، الذى كان رئيسا للجنة المجهود الحربى ، ان انجلترا تبحث عن طريقة علمية لانتاج مادة الاسيتون واستخدامها فى انتاج المتفجرات بكميات كبيرة . وعكف

وايزمان سنة كاملة فى أبحاث متصلة لهذا الغرض ، حتى نجح أخيرا فى انتاج المادة المطلوبة • وبناء على ذلك ، وبتوسط لويد جورج ولورد بلفور الذى كان قد اصبح وزيرا ، تم تعيين حاييم وايزمان فى مركز مرموق فى وزارة البحرية البريطانية • ويقول المؤلف ان وايزمان انطلق يعمل فى المجهود الحربى البريطانى دون ان يثير موضوع فلسطين • ولكن بلفور قال له مرة « اتعلم انك بعد الحرب قد تحصل على القدس التى تريدها » فسبب انهماك وايزمان فى عمله ، والثمن الذى كان يتوقعه ، لم يكن خافيا على أحد

فى تلك المرحلة بالضبط ، اى فى سنة ١٩١٥ ، بدأت الحكومة البريطانية تتخذ لاول مرة خطوات جديةورسمية فى اتجاه الصهيونية • وهى خطوات يقول المؤلف انها كانت مشوبة بالحذر ، لعلم الوزراء المؤيدين للصهيونية بميل رئيس الوزراء «اسكويث» الى التزام جانب العرب ••

ففى مارس ١٩١٥ ، ارسل سير ادوارد جـراى وزير خارجية انجلترا الى سير ادوارد بوكانان سفير انجلترا فى سان بطرسبورج ، عاصمة روسيا القيصرية فى ذلك الوقت •• ارسل اليه مذكرة يشرح فيها رأى الحكومة البريطانية فى العلاقة بين فلسطين والصهيونية العـالمية • كانت المذكرة تقول ان فلسطين هى الثمن الذى يمكن بواسطته كسب تأييد اليهودية العالمية كلها الى جانب الحلفاء • وكانت تقول ايضا انه لو اطلقت المنافسة بين العـرب واليهود فى فلسطين فسوف تقع فلسـطين تحت ادارة اليهود ••

وكانت تعليمات وزير الخارجية البريطانية الى سفيره تقضى بتسليم المذكرة الى « سازانوف » وزير الخـارجية الروسى • ورد الروس على المذكرة بالموافقـة ، بشرط

المحافظة على مصالح الكنيسة الروسية فى الاراضى المقدسة

وفى نفس السنة ، عين « مارك سايكس » مساعدا لوزير الحرب البريطانى ، واصبح الشرق الاوسط بالذات داخلا فى اختصاصه • وبالتالى كان لابد أن تتجه شبكة الدبلوماسية الصهيونية الى هذا الوجه الجديد ، بغيـــة اصطياده • وبالفعل تولى أمره صهيونى انجليزى اسمه « موسى جاستر » ، اعترف سايكس بعد ذلك بانه كان الرجل الذى حوله الى نصير للصهيونية ، بعد توليـــه منصبه الخطير

وبعد وصول مذكرة سير ادوارد جراى الى ســــان بطرسبورج بقليل ، وصل سايكس الى العاصمة الروسية، حيث بدأ مباحثاته الشهيرة التى انتهت باتفاقية «سايكس ـ بيكو » المعروفة فى التاريخ العربى

كان المنطق الذى استخدمه سايكس هو : ان اليهود الامريكان يمكن ان يفيدوا قضية الحلفاء فائدة عظيمـــة بمساهمتهم فى اقناع امريكا بدخول الحرب فعـــلا الى جانب الحلفاء • وقال سايكس لجورج بيكو وزيرخارجية فرنسا : ان اعطاء الصهيونية حق اقامة وطن قومى فى فلسطين هو الورقة الوحيدة التى يمكن بها كسب يهود العالم بما فيهم يهود امريكا • وعلى الفور ارسلت الحكومة الفرنسية استاذا يهوديا فرنسيا ، اسمه فكتور باخ الى الولايات المتحدة ليقنع يهودها بان انجلترا وفرنســـــا تضمنان حماية المستعمرات اليهودية فى فلسطين بعـــد الحرب • ولكن مهمة باخ فشلت فى أمريكا • فلم يكن اليهود هناك وقتها مهتمين بالامر ، فبدأ سايكس نفسه يفقد اهتمامه بالصهيونية بعد ان وجد أنها لن تســـهم فى جر امريكا الى الحرب

ولكن اتفاقية سايكس ـ بيكو لم تقض على اى حال بتسليم فلسطين الى العرب ، انما قضت بتسليمها للانجليز ، مما ابقى الفرصة مفتوحة على مصراعيها امام الدبلوماسية الصهيونية لمواصلة العمل ..

وفى اكتوبر سنة ١٩١٦ ، توصل الى سايكس صهيونى آخر ، أرمنى الاصل ، اسمه جيمس مالكولم ، نجح فى اثارة اهتمام سايكس من جديد بفائدة الحركة الصهيونية اذ اقنعه بان هناك قاضيا صهيونيا كبيرا فى امريكا ، هو القاضى براندايس « الذى تحمل اسمه الجامعة الامريكية التى أعطت بن جوريون دكتوراه فخرية منذ سنوات » ، وان هذا القاضى له نفوذ خاص لدى الرئيس الامريكى ويلسون ، وبالتالى يستطيع ان يساهم فى اقناع ويلسون بدخول الحرب الى جانب الحلفاء ضد ألمانيا . واقتنع سايكس من جديد بهذه الفكرة ، فعاد يستحث مجلس الوزراء البريطانى على قبول فكرة الدخول فى مفاوضات مباشرة مع المنظمة الصهيونية العالمية حول فلسطين . واخيرا وافق مجلس الوزراء البريطانى . واختير مالكولم هذا وسيطا بين الطرفين . وبدأ ممثلو الصهيونية العالمية فى انجلترا يستعدون لانتهاز الفرصة الكبيرة التى انفتحت امامهم ..

كان طلبهم الاول هو ان يسمح لهم باستخدام وسائل الاتصال الانجليزية للاتصال بالصهيونيين فى مختلف انحاء العالم . وببساطة غريبة وافق مجلس الوزراء البريطانى على هذا الطلب الذى بدا له عاديا . ولم ينتبه ، فى رأى المؤلف الى ان هذه سابقة خطيرة فى التعامل الرسمى مع الصهيونية ، وفى ان وسائل المواصلات والاتصال البريطانية انما بدأت تستخدم فى الايحاء الى يهود العالم كلهم بأن بريطانيا تؤيد الحركة الصهيونية

بالذات من بين سائر التيارات اليهودية

وفى تلك المباحثات ، قدم الصهيونيون الى الحكومة الانجليزية مذكرة بعنوان « برنامج لانشاء ادارة جديدة فى فلسطين من وجهة نظر الحركة الصهيونية » .وكانت المذكرة تقترح انشاء شركة يهودية شبه حكومية تحت رعاية حكومتى انجلترا وفرنسا ، مهمتها تشجيع اليهود على التوطن فى فلسطين واستثمارها

وكانت سنة ١٩١٦ سنة سعيدة فى حياة الحركة الصهيونية . فقد ترك اسكويث رئاسة الوزارة ، وحل محله لويد جورج ، الذى كان قد انضم الى معسكر الصهيونية بالفعل ، كما عين لورد بلفور وزيرا للخارجية. وبهذا اصبحت القضية الصهيونية مكسوبة مقدما

***

بعد شهرين بالضبط من تشكيل الوزراة البريطانية الجديدة ، قرر مجلس الوزراء تكليف مارك سايكس بالدخول فى مفاوضات رسمية مع الحركة الصهيونية . وانعقدت الجلسة الاولى فى بيت « موسى جاستر » ، الرجل الذى جاء ـ منذ قليل ـ ان سايكس قال عنه انه هو الذى كسبه الى هذه الصهيونية

حضر من الجانب الصهيونى موسى جاستر وهربرت صموبل ، وحاييم وايزمان وهارى ساشر ، وقد تكلموا جميعا فى ضرورة اعطاء اليهود صفة قومية ووضعا رسميا فى فلسطين ، مع منح نفس القومية لكل يهود العالم فى نفس الوقت ، دون ان يكون لهذا اثر على وضعهم فى بلادهم من الناحية السياسية . كما طالبوا باباحة الهجرة الى فلسطين دون اى قيد

وقال سايكس ان هناك بعض الاعتبارات التى قـــد تحول دون تحقيق هذه المطالب كلها : فروسيا مترددة ، والعرب سوف يعارضون ، وفرنسا ما زالت تطالب بأن تكون « سوريا الكبرى » كلها من نصيبها بعد الحرب ، بما فيها فلسطين

وكانت نقطة الارتكاز في حديث الجانب الصهيونى : ان الكيان الصهيونى الذى سيولد ســــيكون جزءا من الامبراطورية البريطانية ، وحارســـــا مضمونا لها فى المنطقة ..

ويقول المؤلف معقبا على هذا الاجتماع : انه بالرغم من ان سكان فلسطين كانوا من العرب ، الا ان الصهيونيين لم يحسبوا حتى تلك اللحظة حسابهم قط . ولم يناقشوا موقفهم فى أى مؤتمر من مؤتمراتهم السنوية . لذلك فقد خرج الصهيونيون من هذا الاجتماع وفى ذهنهم ان المشكلة الحقيقية ، بعد كسب انجلترا ، هى اقناع فرنسا ايضا ..

وقد حل الصهيونيون مشكلة روسيا بالموافقة على مبدأ اقامة هيئات دولية تشرف على الاماكن المقدسة . فبقيت فرنسا التى تطالب بسوريا كلها بما فيها فلسطين .. ثم ايطاليا ، التى يوجد فيها نفوذ البابا المسيحى

وفى ٨ فبراير ١٩١٧ ، رتب ســــــايكس لقــاء بين سوكولوف وزير خارجية روسيا وجورج بيكو وزيـــــر خارجية فرنسا فى مقر السفارة الفرنسية بلندن ، وقال سوكولوف ان الصهيونيين يعتقدون انه من المهم جـــدا لمصالحهم ان تكون انجلترا هى التى تشرف على فلسطين بعد الحرب . ونجح سوكولوف فى كسب جورج بيكو ، ولكن بقى أن يكسب بقية الوزارة الفرنسية ، التى كان معظم افرادها يتمسكون بضرورة استيلاء فرنسا على سوريا

الكبرى كلها ، وكان المتحمسون لهذا الهدف يسمون « بالحزب السورى »

وفى مارس سافر سوكولوف مع سايكس ، والصهيونى الارمنى مالكولم الى باريس .. حيث بدءوا الضغط على الجهات الفرنسية ذات النفوذ . ومن هناك سافر سايكس مع سوكولوف الى روما حيث يقول المؤلف « أن سوكولوف استطاع ، بعد جهد شديد ، ان يزيل مخاوف بابا المسيحيين بشأن مستقبل الفئات غير اليهودية فى فلسين، فى حالة اقامة وطن قومى لليهود هناك »

وعندما عاد سايكس وسوكولوف من روما الى باريس ، قدم اليه « جول كامبون » سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة باسم الحكومة الفرنسية تعبر فيها عن تأييدها لمطالب الحركة الصهيونية

ماذا تغير فى ذلك الوقت ، فجعل الفريق المؤيد للصهيونية فى الوزارة الفرنسية ينتصر ؟ ..

انه تدخل مباشر من البارون ادموند روتشيلد ،الذى كان وايزمان قد اقنعه منذ زمن بالانضمام الى جانب وجهة النظر الصهيونية داخل اليهودية العالمية ، فكان روتشيلد يحمل معه كل ثقل تلك الاسرة المالية الشهيرة ، ذات الدور الطويل فى تاريخ السياسة الاوروبية ..

هكذا اعلن بلفور انه مستعد لاصدار بيان يعلن فيه تأييد انجلترا الرسمى لمطالب اليهود فى فلسطين : ففرنسا موافقة ، وروسيا موافقة ، والبابا موافق ، والقاضى الصهيونى الامريكى برانديس أكد له من جديد ان الرئيس الامريكى ويلسون موافق

وصدر وعد بلفور الشهير ..

صدر محتويا على ثلاث نقط :

أولا ـ تأييد انجلترا لاقامة وطن قومي لليهود في فلسطين

ثانيا ـ تعاون انجلترا مع اليهود لهذا الهدف

ثالثا ـ ان لا يؤثر هذا على حقوق المجتمعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين ، ولا على حقوق اليهود المقيمين فى مختلف انحاء العالم

وكان هذا اقل مما طلبه اليهود • ولكنه كان نقطة تحول بالنسبة لهم • وسهل الامر لهم نجاحهم فى دفع لويد جورج الى الادلاء بتصريح قال فيه « انه اذا اصبح اليهود اغلبية فى فلسطين ، فانه من الممكن عندئذ ان تصبح فلسطين (كومنولث يهودى) •• »

أى : يا أيها اليهود ! عليكم بالهجرة ! ويوم تصبحون أغلبية ، ستكون لكم فلسطين

***

بالرغم من أن الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة الى التركيز على الولايات المتحدة الامريكية ، الا أن بريطانيا بقيت مركزا رئيسيا للنشاط الصهيونى ، طالما أن بريطانيا مازالت هى الدولة المنتدبة فى فلسطين . وعلى هذا ظل حاييم وايزمان وكثيرون من قادة الحركة الصهيونية يركزون التأثير الصهيونى على مركز السلطة فى بريطانيا

وكان هذا بالطبع يقتضى منهم أيضا الالحاح فى توجيه الرأى العام الوجهة التى تجعل مهمتهم فى التأثير على الجهات العليا أكثر سهولة • مع استمرارهم فى نفس الوقت فى كسب شتى العناصر اليهودية غير الصهيونية الى جانبهم من جهة ، وفى مواصلة الهجرة الى فلسطين رغم كل القيود من جهة اخرى

ولم تكن حكومة جوزيف تشيمبرلين على علاقة حسنة بالحركة الصهيونية ، ولـــكن وايزمان ورفاقه ظلوا على صلة مستمرة بكل الشخصيات التى يمكن أن تكون فى مركز السلطة يوما من الايام · ففى ذلك الوقت بالذات ، مثلا ، عمد وايزمان الى التعرف على ونستون تشرشـــل والتردد عليه أكثر من مرة والحصول على موافقته على مبدأ اسباغ صفة الدولة على المجتمع اليهودى فى فلسطين ·· كما ظل حريصا على ابقاء نفس الصلة مع لورد هاليفاكس وزير الخارجية ··

فلما تألفت وزارة تشرشل سنة ١٩٤٠ ، لم يكسب الصهيونيون فقط رئيس الوزراء الجـــديد ذا الميــول الصهيونية ، بل كسبوا أيضا وجود وزراء آخرين كثيرين فى هذا الاتجاه

يظهر هذا واضحا من قصة السفينة « باتريان » التى يرويها وايزمان فى مذكراته · فقد ضبطت الســـلطات البريطانية سفينة تحمل ٢٠٠٠ مهاجر يهودى يحاولون النزول فى فلسطين بشكل غير قانونى ، فمنعوا الباخرة من الاقتراب من الشاطىء · وتصـــادف ان انفجـــرت الباخرة وأصيبت بعطب ، وذهب وايزمان الى لورد لويد وزير المستعمرات يطلب منه اصدار أمر الى السلطات فى فلســـطين بالســـماح لهم بالنزول · وقال لورد لويد لوايزمان : لقد أصدرت أمرا بمنعهم من النزول ، لاننى أعرف انك سوف تذهب الى تشرشل وتستصدر منـــه أمرا بالغاء هذا القرار ، لقد سبقت وطلبت منه ألا يتدخل فى ذلك ، فلا تتعب نفسك بالذهاب اليه

ثم يعقب وايزمان قائلا : ولكن لورد لويد نسى أن يسبقنى الى لورد هاليفاكس، فذهبت اليه ·· واستصدرت منه أمرا بالسماح لهم بالدخول ··

كذلك نجح وايزمان فى اقناع الحكومة البريطانيـــة بتكوين فرقة يهودية تقاتل الى جانب الحلفاء ، والغاء الاتجاه المضاد الى تكوين فرقة فلسطينية عربية ويهودية . وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش اسرائيل ، الذى حارب خلال الساعات الحرجة التى تلت اعلان قيام دولة اسرائيل

وقد كان العمل من أجل ايجاد هذه الفرقة اليهودية عنيفا ومتواصلا فى جمع المجالات ، من الصحافة ، الى اقتراحات يقدمها النواب من حزبى المحافظين والعمال فى البرلمان ، الى ضغط واقناع لدى الساسة والقـــــــادة العسكريين . وفى سبتمبر ســـنة ١٩٤٤ أعلنت وزارة الحرب البريطانية أنها قررت المساعدة فى تكوين مثل هذه الفرقة .. وبعد أن وجدت الفرقة ، اصبح لها علمها المستقل . وفى الاستعراضات العسكرية أصبحت تحمل هذا العلم ، مؤكدة فى الاذهان أن « اليهودية » أصبحت « قومية » لا مجرد دين : وكان ذلك العلم هو نفس علم دولة اسرائيل اليوم ..

***

وفى أكتوبر ١٩٤٤ ، بعد شهر واحد من تكوين الفرقة الصهيونية المسلحة ، طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة البريطانية تحويل فلسطين الى « كومنولث يهودى » وأن تسمح بهجرة مليون ونصف مليون يهودى الى فلسطين ، بحيث يصبح اليهود فى فلسطين أغلبية تسمح باعـــلان الدولة . واستطاع وايزمان أن يحصل على موافقة ونستون تشرشل الشخصية على اقامة الدولة اليهودية ، على الاقل فى جزء من فلسطين . ويعتقد المؤلف أن حكومة العمـــال التى جاءت بعد تشرشل ــ وخصوصا وزير خارجيتهـــا ارنست بيفن ــ كانت أقل تعاونا مع الصهيونيين من حكومة

المحافظين ، وأن حكومة تشرشل لو بقيت بعد الحرب لقامت هى باعلان دولة اسرائيل

***

وفى خلال ذلك كله كانت الوكالة اليهودية تخلق أمرا واقعا خطيرا في فلسطين : بالهجرة السرية المستمرة ، وبالدعاية الهائلة بين يهود اوروبا ، دعاية كانت تجعلهم يتدفقون على مكاتب الهجرة السرية بالالاف .. وبتهريب الاسلحة الى فلسطين على نطاق واسع ، وبتكوين جيش الهاجاناه ، وبالسيطرة على الاقتصاد اليهودى كله وبجهاز المخابرات الذى كان يشترك فيه كل يهودى يعمل فى حكومة فلسطين ، حتى أصبحت هناك دولة داخل الدولة ، دولة لها كل فروع الدولة وملامحها وأجهزتها ..

ويقول المؤلف : انه حتى الاعمال الارهابية من قتل ونسف ، التى كان زعماء الصهيونية يستنكرونها فى تصريحاتهم ، كانت تتم بالتفاهم معهم .. بدليل أن بن جوريون رفض وقتذاك أن يتخذ أى موقف ضدهم ، وبدليل أن الوكالة تفاهمت مع هؤلاء الارهابيين بعد انتهاء المعركة تفاهما كاملا، دل على وجود تفاهم سابق وقديم

على أن أخطر قرار اتخذته الحركة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الاولى كان : الانتقال بمركز الثقل فى نشاطها الى أمريكا !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

فى غضون الحرب العالمية الاولى ، قررت الصهيونية العالمية أن تلعب بورقة بريطانيا ، مؤمنة بأنها ستكون القوة الاولى المسيطرة على السياسة الدولية بعد النصر . ويومها نجح تنبؤهم وأمكن أن يضعوا أقدامهم الاولى فى فلسطين ..

وفي غضون الحرب العالمية الثانية ، أدركت الصهيونية العالمية أنها لابد أن تنقل مركز نشاطها الى أمريكا ..

لماذا ؟ ..

لان نجم انجلترا آخذ فى الافـــول .. ولانهـــــم بعد أن كسبوا من وراء بريطانيا حق اقامة وطنهم القومى فى فلسطين ، آن الاوان للخطوة الثانية وهى : خطوة الدولة اليهودية المستقلة ، وهذه خطوة قد تعارضها بريطانيا ، التى لم تفكر لحظة فى أن يكون مآل هذا « الكومنولث اليهودى » الى الاستقلال عنها . وفى هذه الحالة لن تقدر على الضغط على بريطانيا سوى أمريكا ..

ولم تكن أمريكا قد دخلت الحرب بعــــد ، وكانت الصهيونية تعرف مدى حرص بريطانيا على حسن علاقات أمريكا معها ، ومدى رغبتها فى ادخالها الحرب الى جانبها : فلو استطاعت الصهيونية أن تقنع أمريكا .. فستكون بريطانيا كلها اذانا مصغية لصوت أمريكا !

وكان عليهم أن يكسبوا فى أمريكا ثلاث قوى :

الرأى العام ..

والكونجرس ..

والحكومة ..

أما بالنسبة للرأى العام ، فسرعان ما تكونت الهيئات الداعية للقضية الصهيونية ، مركزة على الرأى العـــام المسيحى بالذات . وفى نفس الوقت الذى كانوا يركزون فيه على رجال الدين البروتستنت ، مستغلين تفســيرهم «للعهد القديم» ، كانوا يتصلون فى نشاط هائل باتحادات نقابات العمال ، وبالمجالس النيابية فى الولايات المختلفة ، وبأعضـــاء الحزبين الجمهورى والديموقراطى .. فلم تأت سنة ١٩٤٤ حتى كانت برلمانات ٣٣ ولاية قد أصدرت

توصيات تؤيد فيها المطالب الصـــهيونية ، وحتى كانت انتخابات تلك السنة حافلة بالوعود بتأييـــــــد مطلب الصهيونية ..

وأكبر حليف لهم فى رأى المؤلف كان : جهل الرأىالعام تماماً بقضية فلسطين

وقد حققتالصهيونية نفس النجاح بيناليهودالامريكيين أيضا . فبينما لم يكن الصهيونيون يمثلون أكثر منخمسة فى المائة من يهود أمريكا قبل الحرب العالمية الثانيـــة ، استطاعوا قبيل نهاية الحرب أن يجعلوا أى يهودى يخاف أن يجاهر بأنه مختلف مع الصهيونية .. وبينما كانوا يشرحون ـ علنا ـ « حاجة اليهود الاوروبيين الى ملجأ » بعد جرائم النازية ، كانوا يعملون سرا من أجل فـــكرة اقامة الدولة وفى فلسطين بالذات ، بدليل أنهم حاربوا مشروعا لروزفلت لتوطين اليهود فى دول العـــــــالم بوجه عام

أما مع الكونجرس ، فقد بدأ الامر بقيد اسماء ٦٧ شيخا و ١٤٣ نائبا من مجلسى الكونجرس فى قائمة أعضاء منظمة صهيونية مستترة تحت اسم « اللجنة الامريكيـــة لفلسطين » . وفى ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، وضع ثلث أعضاء الكونجرس توقيعاتهم الى جانب توقيعات ١٥٠٠ شخصية أمريكية أخرى على بيان يطالب بانشاء جيش يهودى ..

وفى أكتوبر ١٩٤٣ ، نجح الضغط اليهودى المنظم فى جعل الكونجرس يصل الى حد اصدار قرار رسمى بتأييد مطالب الحركة الصهيونيةفى اقامة دولة يهودية فىفلسطين لولا أن الجنرال جورج مارشال ، القائد العام للجيش الامريكى ، تدخل مطالبا بايقاف القرار ، لان هذا قد يؤثر

على المجهود الحربى فى منطقة حســـــــاسة هى المنطقة العربية ..

ولكن الجهد لم يتوقف .. انما استمر فى اصـــدار القرارات والبيانات والنداءات ، التى أدت بتراكمها من حيث الكم ، الى تغير كيفى فى الموقف .. فقد أصبح الكونجرس الامريكى فىسنوات قليلة مؤيدا للصهيونية.. بمزيج من الجهل بالموضوع والتأثر بالمصالح المحليـــة والضغط والاغراء والالحاح

***

وبقيت بعد ذلك السلطة التنفيذية العليا فى البــلاد . وكالعادة : كانت الحركة الصهيونية تترك مهمة الاتصالات العليا بالشخصيات الكبرى الى رجلها المحنك فى هذاالمجال منذ الحرب العالمية الاولى : حاييم وايزمان ..

وكان وايزمان يؤمن فى اتصالاته بحقيقة غريبة ثبت انها فى محلها : كان لايضيع وقتها مع الخبـــراء وكبـــار الموظفين الرسميين لان هؤلاء على خبرة كاملة بمثل هذه الموضوعات ، وكثير منهم يعرفون الشرق الاوسط جيدا ، فكانت الصهيونية تجد أنه من الصعب دائما أن تضلل هؤلاء أو تحملهم على اتخاذ موقف ضد العرب ، أماالاتصال بالزعماء الكبار فكان أجدى : فهؤلاء خبرتهم بالمنطقة قليلة والتأثير عليهم من خلال المصالح السياسية المحلية ممكن . ثم ان من سلطتهم أن يضربوا برأى الخبراء عرض الحائط الامر الذى كان يحدث كثيرا كما يقول المؤلف

ويقول المؤلف أيضا : انه فى خلال الحرب الاولى كان رأى الاجهزة المحلية البريطانية ضد الصهيونية ، لكن وايزمان قهر هذه الاجهزة باستيلائه على عقول رؤسائهم

السياسيين فى لندن . وقد كرر نفس الشىء فى امريكا خلال الحرب العالمية الثانية

وقد كان روزفلت شخصية صعبة المراس بالنسبة لوايزمان ، بينما كان ترومان على العكس تماما ..

يقول المؤلف : ان وايزمان قابل روزفلت لاول مرة سنة ١٩٤٠ ، ويومها حاول أن يجس نبض روزفلت ازاء مطلب اقامة دولة يهودية . ولكنه وجد روزفلت من أولئك الساسة الدهاة واسعى الافق .. رفض أن يقع فى شراكه ، وقال انه يعتقد أن أى حل لمشكلة فلسطين يجب أن يكون حلا عربيا يهوديا

وفى سنة ١٩٤١ ، ذهب وايزمان الى أمريكا للمرة الثانية ، ولكنه لم يتمكن من مقابلة روزفلت ، فقابل وزير الخارجية الامريكية سمنر ولز الذى كانت الصهيونية قد كسبته الى جانبها بالفعل ، فانضم الى وايزمان فى محاولة اللف على روزفلت

وفى سنة ١٩٤٢ ، أرسل روزفلت الى حاييم وايزمان يطلب منه القدوم الى أمريكا للمساعدة فى الابحاث العلمية التى كانت جارية لانتاج المطاط الصناعى ، فسافر وايزمان الى أمريكا فى ابريل ١٩٤٢ ليبقى هناك أكثر من سنة متصلة : يعمل فى الكيمياء بعض الوقت ، وفى السياسة الصهيونية كل الوقت، نفس قصة الحاقه بوزارة البحرية البريطانية فى الحرب الاولى للمساهمة فى أبحاث انتاج مادة الاسيتون التى تستخدم فى صنع المتفجرات !

وقبل عودته ــ بعد هذه المدة الطويلة ــ الى لندن ، تمكن من مقابلة روزفلت مرة آخرى بحضور وزير الخارجية سمنر ويلز ، ومرة أخرى وجد وايزمان أن روزفلت مازال مصمما على أن أى حل يجب أن يتم بموافقة العرب واليهود

معا • وقال له وايزمان : لو انتظرنا موافقة العرب فلن نصل الى أى حل أبدا •• وأكد له أن خير وسيلة هى أن تقف أمريكا وبريطانيا معا وراء انشاء الدولة الصهيونية ، فلا يجد العرب مفرا من الرضوخ ازاء القوة الهائلة التى تواجههم ، وقال له : ان هذا هو ما حدث بالضبط يوم أصدرت بريطانيا وعد بلفور ولم يقدر العرب وقتها على عمل أى شىء

ولكن روزفلت لم يتزحزح • كان روزفلت يرى مصالح أمريكا البترولية البازغة فى الشرق العربى • وكان ذاهبا الى رحلة سوف يجتمع فيها مع الملك عبد العزيز ال سعود فبدأت النقمة الصهيونية تتحول ضده

وفى ١٨ أغسطس ١٩٤٣ ، وصل الامر الى تهـــديد روزفلت نفسه : فقد أعلن ايمانويل سيلر ، العضـــو الصهيونى فى الكونجرس ، أنه سيطالب باجراء تحقيق فى أسباب معارضة الخارجية الامريكية لمطالب الصهيونية المشروعة • وكان هذا ضغطا غير مباشر على روزفلت ، عن طريق التلويح باثارة تهمة معاداة السامية ، التى تثيرها الصـــــهيونية فى وجه كل من يجسر على أن يختلف مع مخططاتها السياسية

ولكن روزفلت مات ، وجاء ترومان ، الذى وضع البيت الابيض فى يد الصهيونية ، بعد أن وضعت الصهيونية يدها على الرأى العام ، وعلى الكونجرس ••

***

بعد أيام قليلة فقط من وفاة روزفلت ، وتولى هارى ترومان مكانه •• كان الكاهن اليهودى الصهيونى « وايز » يزور الرئيس الجديد • وقبل المقـــابلة ، كان ادوارد ستيتينيوس ، وزير الخارجية ، قد حذر ترومان من هذا

اللقاء ، وحذره من الاستجابة لمطالب الصهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين وفتح أبواب الهجرة غير مشروطة اليها • وشرح الوزير لرئيسه أيضـــا سياسة الرئيس الراحل روزفلت حول هذا الموضوع . ورغم هذا كله فقد كانت زيارة الكاهن الصهيونى « وايز » بداية الاندفاع السريع لترومان فى اتجاه الصهيونية• أو كما يقول المؤلف « فى خدمة الصهيونية »

وعند هذه النقطة ، يحاول المؤلف أن يلتمس لترومان الاعذار على هذا التأييد المتزايد

يقول أن ترومان ، بسبب نزعته الليبرالية ، كان دائما على استعداد لان يتحمس لاداء خدمة لليهود أو لاى أقلية اخرى . وقد كانت هذه دائما وســـيلة من وســـائل الصهيونية فى كسب غـــير اليهود الى قضيتهم : بأن يوهموهم ان تأييد هجرة اليهود الى فلسطين يتفق مـــع المبادىء المتحررة ، فى حين ان الحـــل الحقيقى للمشكلة اليهودية هو فى استيعاب اليهـــود وذوبانهم فى الشعوب التى ينتمون اليها ويعيشون فيها

كذلك فان هذا فى رأى المؤلف نجاح للدعاية الصـــهيونية خلال الحرب ، التى ربطت فى الاذهان ربطا مضـــللا بين مشكلة اليهود فى أوروبا وبين هدف الصهيونية فى اقامة دولة اسرائيل ، رغم ان هذا شىء وذاك شىء آخر

وأخيرا يقول المؤلف : ان ترومان أشار فى مذكراته بعد ذلك الى انه يعتقد أن وعد بلفور باقامة وطن قومى لليهود كان يتفق تماما مع مبادىء ويلسون فى حق تقرير المصير التى أعلنها بعد الحرب العالمية الاولى ، ولو أن ترومان تمعن قليلا لادرك أن وعد بلفور كان عملا مناقضا على طول الخط لمبادىء ويلسون . فلو طبق حق تقرير المصير حقا

فى فلسطين ، بسكانها العرب ، لما امكن أبدا أن يقوم اى وطن قومى لليهود هناك ..

ولسنا نظن أن هذه التفسيرات التى ساقها المؤلف لشرح الحوافز التى جعلت ترومان يندفع فى خدمة الصهيونية الى هذا الحد .. تفسيرات صحيحة . فاذا قبلنا أن الرأى العام العادى يمكن تضليله عن الملامح الاساسية لقضية ما ، فمن المتعذر أن نقبل امكانية تضليل رئيس دولة كبرى ، بمالها من اجهزة وخبراء ومستشارين عن حقيقة يمكن أن يدركها أى تلميذ : وهى أن حق تقرير المصير يتعارض مع غزو شعب ما بشعب طارىء غريب ..

فالمؤلف يغفل الاعتبارات المصلحية والضغط السياسى الداخلى ، الذى جعل ترومان يندفع هذا الاندفاع

***

ويعود المؤلف الى سرد تطور الحوادث فيقول انه مع صيف سنة ١٩٤٥ ، أصبح نفوذ الصهيونية على ترومان واضحا .. ففى ٣١ أغسطس اتخذ ترومان أول موقف علنى له الى جانب الصهيونية بمطالبة مستر كليمنت اتلى رئيس الوزراء البريطانى بأن يقبل مائة ألف مهاجر صهيونى جديد فى فلسطين . وقد كان بيرنز ، وزير خارجية أمريكا ، قلقا من رد فعل هذا الموقف فى البلاد العربية ، فاعلن فى ١٨ أكتوبر « أن الحكومة الامريكية لن تساند أى قرار نهائى يغير الموقف الاساسى فى فلسطين بدون استشارة اليهود والعرب على السواء » . فكأن وزارة الخارجية الامريكية كانت ما تزال تحاول أن تتشبث بالرأى الذى كان روزفلت قد اتخذه من قبل ، والذى كان ترومان قد أحيط به علما على أى حال

وقد اعترف ترومان بعد ذلك فى مذكراته بأنه بينما

كان يحاول الضغط على بريطانيا للتساهل فى مشكلة الهجرة الى فلسطين ، كان الصهيونيون يجعلون مهمته أكثر صعوبة بمحاولتهم استخدام النفوذ الامريكى فى تأييد اقامة دولة يهودية . ففى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٥ ، تلقى ترومان برقية من القسيسين وايز وسيلفر يطالبان باتخاذ موقف لا فى تأييد قبول مائة الف مهاجر جديد فحسب بل وفى تنفيذ « روح » وعد بلفور باقامة دولة يهودية ، رغم أن هذا هو « روح » المبادىء الصهيونية ، ولا يمت الى « روح » وعد بلفور بشىء

ويقول المؤلف ان استغراب ترومان هذا دليل آخر على سذاجته السياسية ، فلو كانت لديه اى فكرة عن العمليات الصهيونية فى امريكا خلال الحرب لادرك ان استخدام الصهيونية لمشكلة اليهود الاوروبيين ولوعد بلفور ولكل شىء لم تكن له غاية سوى استخدام أمريكا فى اقامة دولة صهيونية

ومن هنا جاء قوله فى مذكراته « كنت اعتقد أن حل مشكلة اليهود الانسانية فى أوروبا أولى بالاهتمام من أهداف الصهيونية فى اقامة دولة يهودية » .. فهنا أيضا يتضح عجز ترومان عن فهم الصهيونية . فالصهيونية لم تهتم أبدا بمشكلة اللاجئين اليهود كقضية انسانية لها ألف حل ، انما كانت تستغلها فحسب فى اقامة دولة يهودية

ففى خلال الحرب مثلا ، فكر روزفلت فى مشروع لاسكان اليهود اللاجئين فى بلاد العالم التى ترحب بهم . وعهد روزفلت بهذا المشروع الى « موريس . ل . ايرنست » ولكن ارنست لم يلبث أن اكتشف أن المشروع الذى كان يظن أنه عمل انسانى عظيم لانقاذ اليهود الاوروبيين ، انما تنظر اليه الصهيونية على أنه عمل خطير يهدد أهداف الحركة

الصهيونية » فكتب يقول « لقد دهشت ، بل وشعرت بالاهانة ، عندما وجدت زعماء اليهود يهاجمون هذا المشروع ويصفوننى بأننى خائن . وقد اتهمونى علنا بأننى أعمل فى هذا المشروع وأشجع استقبال اليهود فى شتى أنحاء العالم لكى أخرب أهداف الصهيونية السياسية وهكذا وجدت ان كل اصدقائى من الصهيونيين يعارضون مشروع روزفلت . لقد وجدوا أن اهدافهم تهددها مشروعات روزفلت الكريمة الانسانية »

وقد تكرر هذا الموقف الصهيونى مرتين بعد نهاية الحرب ..

ففى ١٥ ديسمبر ١٩٤٦ ، عندما بدأت الامم المتحدة تدرس مشروعاً يدعو الدول الاعضاء الى فتح أبوابها للاجئين اليهود ، تقبل الصهيونيون هذا القرار بفتور شديد ..

كذلك عندما بدأ مجلس النواب فى الكونجرس الامريكى سنة ١٩٤٧ يدرس مشروعا لتقبل بعض المهاجرين فى الولايات المتحدة ، عبر الصهيونيون عن نفس البرود ازاء المشروع : فهدف اقامة دولة يهودية سياسية كان يعلو عندهم فوق كل اعتبار . وما كانت قضية اللاجئين اليهود تهمهم الا بقدر ما يمكن استغلالها فى هدفهم السياسى

وقد كانت سنة ١٩٤٦ فى الولايات المتحدة سنة انتخابات ، وانتهز الصهيونيون الفرصة طبعا للحصول على أكبر قدر من المكاسب ...

ففى ولاية نيويورك ، عرف ان توماس ديوى ، مرشح الحزب الجمهورى للرئاسة ، كان يفكر فى اصدار بيان فى تأييد الصهيونية لفائدة هذا البيان فى حملته الانتخابية . وعلى الفور ، أسرع « ليمان » و « ميد » ، المرشحان

عن الحزب الديمقراطى لنصبى محافظ المدينة ونائبهـا فى الكونجرس ، الى ترومان ليبلغاه النبأ ويلحا عليه فى ضرورة اصدار بيان مماثل باسم الحـزب الديمقراطى وكانت النتيجة أن صدر بيان آخر من ترومان أعلن فيه تصميمه على ضرورة ادخال مائة الف يهودى الى فلسطين، وأصبحت الدولة والحزبان الكبيران على السواء منغمسين فى تأييد الصهيونية تماما . فلما تذمر ترومان بعـد ذلك من اسراف الصهيونيين فى الضغط عليه ، لم يكن ممكنـا أن يتراجع عن الموقف الذى اتخذه بالفعل . كان اسـفه متأخرا : فقد لوى الصهيونيون بالفعل ذراع الدولة ، وأصبح قيام دولتهم وشيكا

وقد كانت قيمة الحكومة الامريكية الكبرى فى هـذه المرحلة بالنسبة للصهيونية ، هى الضغط على حكـومة حزب العمال فى بريطانيا ..

فعندما القى ارنست بيفن بيانا فى يونيو سـنة ١٩٤٦ عارض فيه قبول مائة الف يهودى فى فلسطين ، رفع عضوا الكونجرس الامريكى عن ولاية نيويورك احتجاجا مباشرا الى الوزير البريطانى ، ولكن الاخطر من ذلك ان الصهيونية اتجهت الى أعضاء الكونجرس المرتبطين بها لتحركهم فى اتجاه هام : ففى ذلك الوقت بالضـبـط كان الكونجرس يدرس مشروعا لمنح انجلترا قرضا قدره ٣ر٧٥٠٠٠٠٠٠ دولار ويقول المؤلف ان تهديد الصهيونية لبريطانيا بعرقلة هذا القرض فى الكونجرس، كان له أثر فعال جدا فى ارغام بريطانيا على التراجـع واتخـاذ موقف اكثر ملاءمة للصهيونية ..

ويذكر المؤلف ان ارنست بيفن شـكا من انه كان فى مقدوره ان يصل الى حل يرضى العرب واليهود فى فلسطين

لولا اصرار ترومان على حكاية دخول المائة الف يهـــودي وقال بالحرف الواحد « انني لا أستطيع أن أحل أي مشكلة حلا وديا ، اذا تحولت هذه المشكلة الى ورقة في انتخابات محلية ! » ..

ويعتقد المؤلف أن بيفن كان يرى بوضوح الفارق بين مشكلة اليهود كمشكلة انسانية عامة وبين قضية الصهيونية في اقامة دولة سياسية يهودية في فلسطين

كان هذا الوضوح في فهم الموقف في بريطانيا ، كما يقول المؤلف ، هو الشيء الذي لم يتحمله الصهيونيون ، فمضوا يتحدون الحكومة البريطانية الى أقصى الحدود ، بالضغط الســـافر عليها من خلال صنيعتهم ترومان ، وبالارهاب المسلح في فلسطين نفسها .. فبينما كان وايزمان يعلن علنا استنكاره للارهاب المسلح الذى تمارسه عصـــابات « الهاجاناه » و « شتيرن » و « أرجون زفاى ليومى » كانت هذه العصابات كلها تعمل في انسجام دقيق تحت قيادة وتوجيـــه الحركة الصهيونية التي يتكلم وايزمان باسمها ..

وفي نفس الوقت ظلت عمليات الهجـــرة غير الشرعية مستمرة ، وقد نشر الصهيونيون دعاية واسعة في العالم كله تقول ان تدفق اليهود من أوربا في أعقاب الحرب الى فلسطين كان عملا تلقائيا غير مرتب ، في حين أن كل الادلة تؤكد أن هـــذه الهجرة كانت مدفوعة ومنظمة بواسطة شـــبكة صهيونية سرية واسعة . ويشير المؤلف هنا الى تقرير سرى لمخابرات الجيش الامريكى الثالث في أوربا ، يقـــول انه تأكد وجود حركة صهيونية سرية هي التي تنظم تسلل ٢٠٠٠ يهودى كل اسبوع الى منطقة الاحتلال الامريكى في اوربا . وان هذه الحركة تضـــم كثيرين من

العسكريين اليهود الذين كانوا فى صفوف الحلفاء، وكانت هذه الحركة تنظم بعد ذلك تسللهم من جديد الى شواطىء البحر المتوسط وهناك يركبون سفنا أعدتها الحركة الصهيونية لنقلهم الى فلسطين . وهناك تقرير آخر يقول ان أطعمة هيئة الاغاثة الدولية UNRWA كانت تحول الى مساعدة عملية التهريب غير الشرعية هذه

ومن أكبر الادلة على ان هذه الهجرة لم تكن تلقائية ، ان كل المهاجرين كانوا من الشبان والشابات الاصحاء الذين يمكن ان يلعبوا دورا فى اقامة اسرائيل ، ولو كان الامر أمر هجرة تلقائية لما تم هذا الفرز والاختيار

الدليل الثانى هو انه عندما اذاع الجنرال الامريكى فردريك مورجان ، رئيس فرع هيئة الاغاثة فى ألمانيا ، هذا التقرير عن نشاط الصهيونية السرى ، لم يلبث ان صدر قرار بفصله من منصبه بتهمة معاداته للسامية !

كان الذى أصدر القرار هو مدير عام المنظمة ، هربرت ليمان : نفس الشخص الذى جاء ذكره منذ قليل ، حين ضغط على ترومان لاصدار بيان يؤيد هجرة اليهود الى فلسطين .. !

الدليل الثالث الذى يسوقه المؤلف على ان الهجرة لم تكن عفوية : هو انه حين بدأت بريطانيا تنفذ اجراءات فعالة لايقاف الهجرة .. بدأت على الفور حملة اكتتاب علنية من اليهود البريطانيين لتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين ..

***

ونصل بعد ذلك الى المرحلة التى طرحت فيها القضية على الامم المتحدة

فازاء الشلل الكامل الذى أصيبت به بريطانيا من جراء الضغط الامريكى الهائل والعمليات الارهابية الضخمة فى فلسطين والهجرة السرية التى لا تنقطع ، قررت بريطانيا ان تحيل الامر الى الامم المتحدة

وعندما ظهرت فى أفق الامم المتحدة فكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، لم يكن التقسيم فى حد ذاته مرضيا لليهود الذين يريدون فلسطين كلها ، ولكنهم أسرعوا بالموافقة لسبب تكتيكى : فالتقسيم يحمل فى بدوره الاعتراف بحقهم فى اقامة دولة سياسية ، وهذا نصر كبير وخطوة ضخمة الى الامام بالنسبة لهم ..

وطبعا استطاع الصهيونيون ان يجعلوا الولايات المتحدة تعلن موافقتها على مبدأ التقسيم : وبهذا كسبوا نصف المعركة فى الامم المتحدة ، بحكم النفوذ الهائل الذى كان لامريكا فى المنظمة الدولية بعد الحرب

وفى نوفمبر ، اكتشف وايزمان ان الوفد الامريكى حاول أن يكسب رضاء العرب عن فكرة التقسيم بأن عرض عليهم ان يكون النقب جزءا من الدولة العربية . وعلى الفور ، استطاع وايزمان ان يتصل بترومان ، وبعد لقاء واحد معه ، أرسل ترومان تعليماته الى الوفد الامريكى بأن يسحب هذا العرض الخاص بالنقب من العرب !

يقول حاييم وايزمان فى مذكراته : « ان هذا القرار (من ترومان) فتح الطريق أمام قرار الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر .. »

وهذا صحيح !

فأكثر الدول الاعضاء كانت واقعة تحت النفوذ المباشر لامريكا بعد الحرب . وقد بقيت بعض الدول الصغيرة

تقاوم : هاييتى ، ليبيريا ، الفلبين ، الصين ، أثيوبيا ، اليونان .. وهنــــا تحركت الاداة الصهيونية الهائلة فى جميع أنحاء العالم تمارس ضغطا لا مثيل له .. ضغطهـا كان معظمه يوجه من خلال الولايات المتحـــدة الامريكية : الحكومة الامريكية تضغط . اعضاء الكونجرس يضغطون على الحكومات الاجنبية رأسا ، وعلى حكومتهم لكى تضغط على هذه الحكومات ، شركة فايرستون للمطاط طلب منها أن تضغط على حكومة ليبيريا لكى تصــــوت الى جانب التقسيم . القاضيان افرانكفورتر ومورفى يتصلان بحكومة الفيلبين .. وهــــكذا

***

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، أصدرت الامم المتحدة قرارها بالتقسيم ..

ويقول المؤلف : انه بعد أن تم اتخاذ القرار بالفعل ، بدأت المناقشة حول سلامة الاساليب التى اتبعتهـــــا الصهيونية ، وما زالت هذه المناقشة فى رأيه قائمة الى الان

ففى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧ ، كتب حاييــــم وايزمان الى ترومان رسالة ينفى فيها « الاتهامات » الموجهة الى الحركة الصهيونية من انها تمارس ضغطا غير لائق على وفود الدول فى الامم المتحدة . ولكن ترومان نفسه كتب فى مذكراته بعد ذلك يقول : « الحقيقة هى ان الضغط الذى وقع على الامم المتحدة فى ذلك الوقت لم يكن له مثيل قـط . وان البيت الابيض تعرض لضغط فى نفس الوقت ، ولا أظن أن البيت الابيض تعرض لمثل هذا الضغط فى أى وقت . ان اصرار والحاح الزعماء الصهيونيين ، الذى تحركه دوافـع سياسية مصحوبة بالتهديدات ، قد ضايقنى وازعجنى حقا

.. بل أن بعضهم كان يطلب منا ان نضغط على دول ذات سيادة للحصول على الاصوات المطلوبة فى الجمعية العامة »

***

ورغم أن القرار صدر بالفعل ، الا أن الضغط لم يخف . بقى هدف آخر مهم وهو : الاعتراف !

وفى مجال الاعتراف الدولى ، لابد من الحصول على اعتراف أمريكا أولا .. ليسهل الباقى

ويقول المؤلف : ان ترومان ازاء هذا الالحاح والضغط الذى زاد عن حده ، اضطر الى رفض مقابلة أى ممثل صهيونى ، ولكن بالرغم من تعليمات رئيس الجمهورية ، تمكن الصهيونيون من الوصول اليه

ففى مارس ١٩٤٨ ، طلب وايزمان مقابلة ترومان وبناء على تعليمات ترومان ، رفض هذا الطلب . وفجأة تلقى ترومان زيارة من مستر « ايدى جالوبسون » ، وهو يهودى أمريكى وصديق حميم وقديم لترومان ، واخذ يلح عليه فى ان يقابل وايزمان . ويقول المؤلف أن ترومان ضعف امام هذا الضغط الذى لامثيل له ، وقابل وايزمان فى ١٨ مارس ، وفى هذا اللقاء تحسن الجو من جديد بين ترومان ووايزمان ، وانفتح الباب لقرار أمريكى جديد هو : الاعتراف باسرائيل يوم ١٤ مايو ، بعد احدى عشرة دقيقة فقط من اعلان قيام الدولة

ويعقب المؤلف قائلا : أن امريكا جرت عادتها دائما على أن تكون حذرة ومتمهلة فى اعترافها بأى حكومة جديدة . وخروجها عن هذه القاعدة ، على هذا النحو السافر ، يظهر لنا الى أى حد نجحت الصهيونية فى استخدام السياسة الامركية كأداة لها

الفصل
الثالث

مناقشات إسرائيلية

- المجتمع اليهودي في العالم
- هجرة .. أو لا هجرة
- الاندماج في المجتمعات الأخرى
- أيهما يخدم إسرائيل : التحرر ... أم التعصب ؟



يقول بن جوريون « •• ان اسرائيل ليس لها في العالم غير حليف واحد وفي : هو الشعب اليهـــــودى • ان اسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا أقارب لها •• سواء من ناحية الدين او اللغة او الاصل •• كتلك القرابات التى تربط مثلا بين الـــدول العـــربية او الاسكندنافية أوالبوذية أوالكاثوليكية أو الانجلوسكسونية •• اننا شعب يعيش فى هذا العالم بمفرده »

وهذا صحيح ! ••

فقد تكون خيانة الدولة التى كانت تستعمر فلسطين « انجلترا » لوثيقة انتدابها قد لعبت دورا رئيسيا فى اقامة دولة اسرائيل • وقد تكون رغبة الدول الاستعمارية الاخرى في اقامة رأس جسر لها فى المنطقة قد لعبت دورا رئيسيا آخر • ولكن المؤكد أن القوة التى جاهدت وناضلت طوال خمسين سنة ، والتى ضغطت وساومت وتحالفت وتسللت لاقامة دولة اسرائيل ، هى : اليهودية العالمية •• أو المجتمع اليهودى العالمى الذى كانت الحـــــركة الصهيونية بالذات هى الاداة العنيفة المنفذة فيه ••

وما تزال هذه اليهودية العالمية تلعب دورها الاكبر فى حماية اسرائيل وفى النضال ضد العرب

وقد كنت اشعر دائما انه من المفيد لنا أن نفهم المجتمع

اليهودي العالمي بقياداته وتناقضاته وخباياه ، الصهيونية منها وغير الصهيونية ، بوصف هذا المجتمع فى مقدمة القوى التى يرتبط بها نمو اسرائيل أو انكماشها ، بل يرتبط بها وجودها او عدمه ..

والاصل ، هو أن الصهيونى غير اليهودى ..

اليهودى .. هو الفرد الانجليزى او الفـــرنسى أو العربى الذى يعتنق الدين اليهودى ، تماما كالمواطن الذى يعتنق أى دين اخر

والظن الشائع عن الصهيونى هو انه اليهودى الـــذى يؤمن بضرورة قيام دولة اسرائيل ويساعدها بكل انواع المساعدات .. حتى ولو بقى كما هو : يهوديا انجليزيا أو فرنسيا أو أمريكيا ..

ولكن بن جوريون يقول لنا : لا ! ان هذه صهيونية مزيفة ! بل انـــه لا يرضى ان يطلـــق عليهـــا وصف الصهيونية !

ان الصهيونى فى رأيه هو اليهودى الذى يريد العودة الى جبل صهيون ، هو اليهودى الذى يحس أنه اذا كان يعيش فى أى بلد آخر ، غير اسرائيل ، فهو يعيش فى منفى ! وأنه آن الاوان لانتهاء عصر النفى والتشرد ، ولابد من العودة الى أرض اسرائيل ! ..

ويستطرد بن جوريون ، فى محاضرة مطبوعة له ، قائلا : « .. أما أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشعب الامريكى او الانجليزى أو الفرنسى ، أولئك اليهود الذين لا يشعرون انهم يعيشون فى منفى ، أولئك اليهود الذين لا يرون ان مستقبلهم ومســـــتقبل أولادهم واحفادهم لا يمكن أن يوجد الا فى اسرائيل ..

هؤلاء اليهود جميعا انما يذوبون تدريجيا فى حضارة

غير يهودية ولغة غير يهودية • ان هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم ـ كذبا ـ لقب الصهيونيين بحكم انتمائهم الى منظمات تحمل هذا الاسم ، هم فى الحقيقة خطر على مستقبل اليهودية

وفى دراسة أخرى لـ « بن جوريون » ، نجد أنه يدفع هذا المنطق خطوة أخرى الى الامام ، فيتساءل : من هو اليهودى ؟ وما هى مقومات الشعب اليهودى فى شتى انحاء العالم ؟ ..

ويرد بن جوريون على هذه الاسئلة قائلا : ان ما يربط بين اليهود ليس الدين اليهودى ! بدليل أن الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لا دينيون ، أى يهود ملحدون لا يؤمنون بوجود الله . و لاالعنصر الواحد بعد هذا التشتت الواسع بين اليهود فى شتىالبلادوالقوميات. ولا اللغة الواحدة بدليل ان اللغة العبرية كادت تختفى تماما قرونا طويلة ، ومعظم يهود العالم لا يعرفونها ولا يتكلمونها : ان ما ربط بين اليهود وجعل تلك الصفات الاخرى كالدين والعنصر واللغة ـ صفات قابلة لان تجمعهم من جديد ، هو صفة أخرى أساسية ، هى : رؤيا العودة .. الايمان بأن الخلاص هو فى العودة الى جبل صهيون حيث أقام داود معبده الاول .. أى الى أرض اسرائيل

ويستطرد بن جوريون فى تأكيد صفة « العودة » « واستخلاص » الارض التى كانت لهم ـ كالعلامة الاولى المميزة لليهودى فيقول : ان شعب اليهود يختلف عن كل شعوب العالم • واليهودى نفسه يختلف عن كل من حوله فى أى مجتمع بسبب هذه الصفة بالذات ، فكل الشعوب نشأت واستمرت ملتصقة بالارض الخاصة بها • قد تحتلها دول أخرى • أو يستعبدها نظام حكم معين • قد

تنمو وقد تضمحل • ولكنها دائما موجودة فوق أرضها • باستثناء اليهود • الذين عاشوا عشرات من القــرون مطرودين مما يعتبرونه أرضهم • مصرين على العودة اليها، ومن هذه الصفة نشأت عزلتهم ، ونشأ انفرادهم بصفات خاصة بهم ••

والخلاصة التى يريد ان ينتهى اليها بن جوريون هى انه اليوم وقد قامت دولة اسرائيل عند جبل صهيون •• فقد جاءت لحظة الامتحان النهائى الحاسم لكل يهودى على وجه الارض : فمن لا يعود اليــوم ليس « صهيونيا » بالتأكيد ، ثم هو يهودى يعرض نفسه للذوبان فى مجتمعات أخرى غير يهودية •• اى يعرض اليهودية ذاتها للانقراض •• ولا يتأخر بن جوريون عن ابراز الجانب العملى لهذه الفلسفة كلها ، فهو يقول فى مؤتمر للصهيونية العالمية : ان مشكلة دولة اسرائيل الكبرى هى الامن ، وأمن اسرائيل لا يحققه اى جيش مهما بلغ تسليحه ، انما يحققه ان « يعود » الى اسرائيل ، بسرعة ، مليونان من اليهود على الاقل فى كل عام •• الى أن تتم عودة يهود العالم أجمعين !

ويقول بن جوريون ، فى تحقير لبق لحياة اليهــود خارج اسرائيل : اننى لا أحتقر شايلوك الذى كان يعيش على الربا فى مدينة البندقية (يشــير الى الشــخصية الشهيرة فى مسرحية شيكسبير « تاجر البنــدقية ») فاليهودى ، طالما بقى فى مثل هذه الظروف ، مضطر الى مثل هذه الحياة ! »

اى ان اليهودى لا يمكن ان يكون كريما شريفا الا فى دولة يهودية هى دولة اسرائيل ••

هذا الكلام كله ، ليس عقيدة فردية يعتقدها دافيــد بن جوريون وحده وانما هى وجهة النظر الاساسية التى

تقوم عليها دولة اسرائيل

جولدا مايير ، ايضا ، لها محاضرة مطبوعة عنوانها : « ماذا نريد من يهود العالم » تقول فيها ، مثلا :

ـ ان اليهودى الانجليزى الذى ينشد بحكم انجليزيته نشيد « حفظ الله الملكة » كيف يمكن ان يكون فى نفس الوقت صهيونيا ؟

ـ اننى اصدق من يقولون ان اليهود فى امريكا كانوا يبكون فى لحظات الخطر التى أحاقت بنا ٠٠ ولكننى أقول ان دموعهم لا تكفينا !

لم تذكر جولدا مايير شيئا آخر هو : نقودهم !

ـ بعد قيام دولة صهيون ٠٠ لا يمكن أن يعد صهيونيا الا ذلك الذى يحمل حقائبه ويأتى على الفور !

ـ جميل جدا ان يعطينا اليهود فى الغرب تأييدهم وحماسهم وأموالهم ٠ ولكن هذا لا يكفى ٠ هذه المشاركة من بعيد لا تكفى ٠ فمن بعيد ، لا يمكن ان تتم زراعة النقب ! وبقاء اسرائيل يتوقف على ما اذا كان ممكنا ان نزرع صحراء النقب وجبال الجليل ! اننى لا أستطيع أن أفصل أمن اسرائيل عن تعمير النقب والجليل ! اننى كلما سمعت اغانى اسرائيل يرددها اليهود فى نيويورك ولوس انجليس وشيكاغو رقص قلبى طربا ! ولكن ترديد الاغانى عن النقب فى نيويورك أو بوسطن لا يعمر النقب ! انما تعمرها هذه الاغانى اذا كانت تقنع الشباب اليهـــودى بالهجرة الى النقب ، والا فسوف يبقى اليهود يعيشون فى أمريكا ٠٠ ويغنون عن النقب من امريكا ٠٠ ولكن النقب سوف يبقى خاليا مهجورا

ـ هناك في روسيا ثلاثة ملايين يهودى ٠ ولكن لا أحد

يعرف هل يأتون الينا يوما أم لا يأتون قط ! ولكن يهود الدول الغربية ·· الذين لهم مطلق الحق فى الحضور ·· والذين يؤيدوننا الى أقصى الحـــدود ·· لماذا لا يأتون ؟

انتهى كلام جولدا مايير ! ...

الى هذا الحد ، تذهب اسرائيل فى الضغط على يهود العالم الخارجى من اجل الحصول على مهاجرين جدد : خصوصا والارقام تقول ان الاقبال اليهودى على اسرائيل من حيث الهجرة ، قد جف أو كاد ..

فمع اختفاء حكاية«اضطهاد اليهود »التى جلبت المهاجرين بمئات الالاف فى اعقاب الحرب ، من ذا الذى يريد ان يذهب الى اسرائيل ؟ ··

وهذا يظهر لنا امرين :

الاول : هو مغزى أصرار اسرائيل ، على اثارة قصـة اضطهاد اليهود وتجديدها ، ونشر الذعر منها ·· حتى يشعر اليهودى فى كل مكان بالخطر ، ان لم يكن الخطر الماثل فالخطر المحتمل ، وبالتالى يفكر فى الهجرة الى اسرائيل ··

وما نشر يوما ما من ان بعض عملاء اسرائيل هم الذين يرسمون صليب النازية المعقوف على معابد اليهود .. منطقى جدا ·· لحاجة اسرائيل الماسة الى اثارة هذا الفزع من الخطر ·· بل والخطر نفسه احيانا !

وهناك رأى قوى فى اسرائيل يقول : انه لابد من تدمير حياة اليهود فى بعض الدول حتى يضطروا للهجرة الى اسرائيل ··

والثانى : هو ان اسرائيل ، حيث لا يفلح هذا السلاح ، لا تجد مفرا من بعث أعتق الافكار العنصرية المتعصبة ، فى سبيل كسر ولاء اليهودى نحو اى بلد يعيش فيه ،

وفى سبيل شق ما بين اليهودى وبين الاخرين ، والى حد الذهاب الى التبشير رسميا بفكرة ان اليهود شعب مختار ممتاز وان العالم سوف يظل يضطهده لهذا السبب ، بكل ما تحمله هذه الافكار من سموم ، فى سبيل تحقيق هدف الصهيونية المعلن .. زحف عشرة ملايين يهـــودى الى فلسطين ، بما فى ذلك من نية التوسع الظاهرة ، زحفا على الاراضى العربية الاخرى خارج فلسطين ذاتها ..

وكثير من المفــكرين اليهود ، يعارضون هذه الافكار .. لا يقبلون القول بأن دولة اسرائيل هى المكان الطبيعى لكل اليهود .. بل كانوا يعارضون قيام دولة اسرائيل نفسها .. ايمانا منهم بأن قيامها على الاسس التى تقوم عليها انما يتم ضد حركة التاريخ التقدمية ، بل وايمانا منهم بأن قيام دولة اسرائيل فى ذاته قد يكون سببا فى اضطهاد اليهود فى الدول الاخرى مستقبلا .. لان اسرائيل كدولة لابد أن تكون لها مع الزمن مواقفها المؤيدة والمعادية لدول أخرى ، وفى حالات العداء سوف يكون اليهود فى وضع لا يحسدون عليه ..

ولكن هذه الأصوات ضاعت أو خفتت تحت تأثيرانتصار فكرة قيام الدولة سنة ١٩٤٨ .. وان بقى أصحــاب هذه الاصوات يضعون ايديهم على قلوبهم ..

هذه الاصوات اليهودية هى الاصوات التى تعــارض فكرة اسرائيل القائلة بأن الهجرة اليها أمر حتمى على كل يهودى ..

يقول المؤرخ اليهودى الانجليزى سيسيل روث :(..ان الصفة التى ميزت اليهودى دائما هى انه كان اشبه بمواطن عالمى ، ظروفه تجعله يتحرك عبر الحدود والخلافات القومية المألوفة وقد ادى بذلك رسالة مرموقة فى حضارة أوربا

مثلا فى القرن التاسع عشر .. ولكن قيام دولة اسرائيل يهدد باختفاء هذا اليهودى . فقيام دولة اسرائيل فى الواقع انما يتمم رسالة هتلر فى القضـــاء على اليهودى الاوربى وامكانياته الواسعة !! ..

ثم ان الحركة الصهيونية قد رفعت فوق رؤوس اليهود الانجليز عصا غليظة من التهديد ، الذى لا يمكن التخلص منه احيانا الا بكتابة شيك على احـــد البنوك تبـرعا لاسرائيل .. ! »

ويستطرد سيسيل روث قائلا فى وصف حالة هؤلاء اليهود النفسية فيقول : « ان هؤلاء اليهود الذين عارضوا قيام دولة اسرائيل يتمنون الان نجاحها ولا شك ، بعد ان قامت بالفعل .. ثم انهم يعرفون ان فشلها سيكون ضربة معنوية هائلة لليهود فى كل مكان من العالم . ولكنهم مع ذلك قلقون .. فهم يرون ان اليهـــود فى كل دولة أصبحوا لا يشاركون فى أى مسألة تهم البلاد التى يحملون جنسيتها الا اذا كانت هذه المسألة تتصل باسرائيل ، وهذا يهدد بعزلهم فى المدى الطويل . ثم ان اليهود الانجليز كان من السهل عليهم مثلا أن يؤيدوا اسرائيل خلال حربهـا سنة ١٩٥٦ ضد مصر لان انجلترا كانت ضد مصر .. ولكن ماذا يكون موقفهم لو جد ما يجعل اسرائيل ـ كدولة ـ تقف فى لحظة ما ضد مصالح انجلترا الاساسية بصورة أو بأخرى ؟ .. »

ويقول « سالو بارون » استاذ التاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيـــا بأمريكا .. « ان بعض الصهيونيين يركزون على القول بأن موجة معاداة السامية يمكن ان تهب فى اى وقت ، لان هذا الخطر هو الدافع الوحيـــد الذى يجعل الشباب اليهودى يهاجر الى اسرائيل .ولكننى أقول لهم أن هذا غير صحيح . فالهجرات الجماعية ،

تاريخيا ، لا تقع الا تحت تأثير ضغط سياسى او اقتصادى عنيف واقع بالفعل ، ولهذا فان كلام بن جوريون عن مليون أو مليونى مهاجر ينتظرهم فى اسرائيل خطـــأ تماما . يضاف الى ذلك ان نزعة معاداة السامية تختفى وتتلاشى بالفعل ! ان بن جوريون وجولدا ماير لا يكفان عن الكلام عن قصص اضطهاد اليهود وتاريخهم البائس المحـــزن وقد ضاق الشباب اليهودى فى شتى دول العـــالم ذرعا بهذا الكلام لانهم يرونه متناقضا مع الحياة التى يتمتعون بها فى كل المجالات . أما القول بأن شعب اليهود شعب مختار ، له تاريخه الفريد .. فكل شعب من شعوب العالم له تاريخه الفريد ، وله ملامحه الخاصة به ! »

وهذا يقودنا الى نقطة أخرى بالغة الاهمية ، الى سؤال آخر يدور حوله شد وجذب كثير فى أوساط اليهودية العالمية ، هو : مستقبل اليهود فى العالم الخارجى ، بصرف النظر عن وجود دولة اسرائيل أو عدمه ..

ومناقشة هذا السؤال ، أيضا تظهر لنا اين تقف دولة اسرائيل ، والفلسفة التى بنيت عليها ، من حركة التاريخ العصرى ..

فهناك رأى يهودى قوى ، وهو الرأى السليم فيمـــا أعتقد ، يقول ان التطور والتحرر السياسى والاجتماعى فى مختلف انحاء العالم يحل مشكلة اليهود ، وبالتالى يقضى على « وجود اليهود » بالشكل التاريخى القديم لهـــذا الوجود .. أى بالشكل المنعزل المنفرد بذاته المنطوى على نفسه

فالمراحل السابقة من التاريخ الانسانى ، والتـــاريخ الاوربى فى الحقيقة بوجه خاص ، بما فى تلك المراحل من اضطهاد دينى ، وتفرقة عنصرية ونظم طبقية اقطاعية

واتوقراطية .. هذه الظروف كلها كان من طبيعتها ان تبقى القضية اليهودية قائمة ، وأن تجعل اندماج اليهود في المجتمعات التى يعيشون فيها صعبا الى حد بعيد . ولكن عصر التنوير والتحرير العقليين ، ورياح المساواة التى تكتسح أمامها كل شيء ، والتسامح الذى يطـــرد التعصب بسرعة ، وانتشار الحريات العامة وتطبيق مبادىء حقوق الانسان .. كل هذا التطـــــور جعل « القضية اليهودية » بشكلها القديم تتغير . وفتح الباب لاول مرة أمام المجتمعات اليهودية لان «تذوب» وتندمج فى البلاد التى تعيش فيها ..

وليس معنى هذا « الاندماج » أو فى الاصطلاح العلمى assimilation هو أن يختفى اليهود كيهود .. ان معناه أن يبقى اليهودى يهوديا كما أن المسلم سيظل مسلما والمسيحى مسيحيا ..

ولكن الذى سيختفى هو احساس اليهود ، لنقل فى انجلترا مثلا بأنهم نوع مختلف ، وشعب قائم بذاته ، تفصله عن الانجليزى العادى هوة واسعة . وبالتالى سوف يقل ارتباطه الخاص بدولة اسرائيل ، وسوف يصبح ولاؤه السياسى والقومى الوحيد لانجلترا ، وسوف تنتهى من ذهنه نهائيا فكرة « العودة »

هذا التطور الذى لا مفر منه نحو الاندماج ، بحكم اننا اصبحنا فى عصر الحرية الدينية والمساواة يشهد عليه ، ويعترف به ، كثير جدا من المفكرين اليهود ، بل وبعضهم يحبذونه تحبيذا .. بينما تحاول دولة اسرائيل وممثلوها فى اليهودية العالمية ان ترفضه وتقف فى وجهه بأى طريقة من الطرق ..

يقول سالو بارون ، أستاذ التاريخ اليهـــودى الذى

سبقت الاشارة اليه : ان هـــــذا الذوبان او الاندماج assimilation معنـــــاه أن يصـــبح المرء جزءا من الشعب الذى يعيش فيه · ومعناه فى حالة اليهود هو ان يصبحوا جزءا من الاغلبية القومية التى يعيشون فيها· وأنه مع بزوغ عصر التحرر والتنوير والمساواة بدأ اليهود يواجهون هذا الاحتمال لاول مرة فى تاريخهم الطويل ·· الان لابد آن يتحول اليهودى الذى يعيش فى فرنسا الى « فرنسى يهودى » كالفرنسى المسيحى · ومعنى ذلك ان « المجتمع اليهودى الخاص » فى العالم يتلاشى · اذا لم تعثر اليهودية على حل سريع لهذا الموقف »

ويعترف سالو بارون بأن تفكير الصهيونية بالطريقة القديمة يجعلها ـ مع الزمن ـ تقف موقفا معاديا لحركة التحرر والمســــاواة والتسامح ، احساسا منهـــا بأن هذا التحرر العالمى يسحب رصيدها من اليهود الـــذين تعتبرهم رعايا لها ·· مآلهم هو العودة اليها ·· ثم يحذر اصدقاءه الصهيونيين من هذا الاتجاه · بل ويذهب سالو بارون بعيدا فى تنبؤه فيقول انه بمنطق الذوبان والاندماج الذى لابد أن يؤدى عصر التحرر اليه ·· لن تبقى كنيسة عبرية واحدة فى العالم ولكن ستصبح هنـــــاك كنيسة « عبرية كاثوليكية » وكنيسة « عبرية بروتســتانتية » وكنيسة « عبرية اسلامية ! »

هذه الظاهرة التاريخية ، ظاهرة اتجاه اليهـــــود الى الاندماج فى مجتمعاتهم واختفاء مشكلتهم ، لا يختلف أحد على وجودها ·· ولكن الخلاف فى اليهودية العالمية وفى الحركة الصهيونية هو حول طريقة مواجهتها ··

فهناك من بين اليهود من يرحبون بها ويعتبرونها تطورا طبيعيا لمشكلة اليهودى ··

وهناك الذين يخافون منها ، بل ويعتبرونها أخطر على اليهود من القنبلة الذرية ، ومن هتلر ، ويحاربونها فى غير لين ..

من الفريق الاول مثلا ، نجد « أوسكار هاندلين » وهو استاذ يهودى للتاريخ الامريكى فى جامعة هارفارد • انه يقف ليلقى محاضرة فى مؤتمر صهيونى دولى فيقول : أنا واحد من اليهود الذين ذابوا فى المجتمع الامريكى • لم أكن صهيونيا قط • وكنت أعارض قيام دولة اسرائيل فكريا ، وان كنت الان اتمنى لها النجاح !

ثم يستطرد فى الدفاع عن فكرة ذوبان اليهودى الامريكى فى بلاده فيقول ان اليهود فى أمريكا ليسوا أقلية لانه لا توجد فى أمريكا أغلبية • أمريكا أمة تقوم على التعدد • فيها جماعات كثيرة بعضها على اساس الدين كالبروتستانت والكاثوليك واليهود • وبعضها على أساس اللون كالزنوج السود وابناء الكاريبى السمر • وبعضها على أساس مراحل الهجرة ومصادرها كالسويديين والايطاليين والايرلنديين فليس هناك فى أمريكا «أغلبية» حتى يقال أن اليهود أقلية

ويرد على ساسة اسرائيل الذين يهاجمون حياة اليهودى الامريكى التى تقوده تدريجيا الى الذوبان • فيقول ان كل ما فى الامر هو أن اليهود يصبحون تدريجيا مثل جيرانهم ومثل الجميع • لانهم حتى لو سيقوا كرها الى مدارس يهودية تعلمهم اللغة العبرية، فانهم مع ذلك يتعرضون لنفس الاشعاع الثقافى والمعنوى والاجتماعى الذى يتعرض له كل أمريكى •• من خلال الحياة اليومية ، والاختلاط ، والاذاعة والصحافة والتليفزيون، والذين يعارضون فى ذلك انما يريدون فى الواقع اقامة سور يعزل اليهود عن سائر

مواطنيهم بكل ما يحمله هذا من اخطار .. ان اليهودى الامريكي الان ليس سوى ذلك الذى يعتبر نفسه يهوديا بحكم الوراثة ، وهو يمر حاليا بمرحلة انتقال ..

ولكن ليس كل يهودى يواجه هـــذا الموقف .. اى موقف انتصار حركة المساواة وانتهاء مشكلة اليهود .. بنفس الحالة النفسية ..

فالمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » يولول ويقول ان المجتمع اليهودى اخذ فى الذوبان منذ اكثر من مائة سنة . ففى خلال عصور الاقطاع وما شابهها كانت للهيـــودى وظيفة اقتصادية معينة يعتمد عليها وجوده وتقوم عليهـا شخصيته ووحدته . اما الان فاليهود يتشتتون بين شتى وظائف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبالتالى يذوبون. تختفى لغتهم وتختفى تقاليدهم بل ويغيرون اسماءهم لكى لا تنم عن يهوديتهم ، يتأمركون أو يتفرنسون .. الىآخره

وينتهى « ماهلر » الى القول بأن الحل الوحيد لانقاذ اليهودية ومنع تحولها من شعب واحد حيثما كان الى مجرد ديانة يدين بها ناس مختلفون ينتمون الى شعوب مختلفة .. هو : جمعهم فى اسرائيل !

وهذا يقودنا الى أصحاب الموقف الثالث ، وهو موقف اسرائيل الرسمي والفكرى ، الذين يرفضون ان تحـــل المشكلة اليهودية فى العالم ويريدون اذكاءها ، حتى انهم ليقولون مع « ارى تاتاكودار » أستاذ علم الاجتماع فى الجامعة العبرية « ان اليهودى حقا هو من يشعر بأن هناك « مشكلة يهـــودية » حتى لو عاش بمفرده فى جزيرة نائية !! »

أى أن اليهودى فى رأيه هو الذى يشعر باضطهاد حتى ولو لم يوجد من يضطهده !!

ان اسرائيل ترفض رفضا شديدا ان يعيش اليهودى الامريكي أو اليهودى الفرنسى كامريكى أو فرنسى • فهى تهاجم حياتهما وتحقرها •• وهى تطالب فى الحاح بأن يقيم اليهود فى كل مكان مدارس خاصة بهم ويتعلموا اللغة العبرية ويتشبعوا بالثقافة اليهودية الخاصة ويقاوموا التأثر المحلى بثقافة وحضارة البلاد التى يعيشون فيها أو كما يقول « ماهلر » هذا : « ايجاد نوع من التعليم والتثقيف يقود اليهودى الى الهجرة »

وهذه السياسة ، اذا كانت لا تجد نجاحا يذكر فى قطع ما بين اليهود وبلادهم وتوجيههم الى الهجرة •• فهى على الاقل تنجح نجاحا كبيرا فى ارهابهم واشعارهم بالذنب ، ودفعهم الى تعويض عدم هجرتهم بأن يساعدوا اسرائيل الى أقصى ما يستطيعون : ماليا ومعنويا وسياسيا ودعائيا ••

فأخشى ما تخشاه اسرائيل اليوم ، هو ان تتحول اليهودية الى دين فقط ، لا الى قومية كما تريدها هى • لانها اذا تحولت الى دين فقط • واذا تحرر العالم من مشاكل التفرقة والاضطهاد ، فأى دين فى العالم يأمر كل ابنائه بأن يعودوا الى مهبط هذا الدين ؟ •• واى عاقل يقبل منطقا معناه ان يعود كل المسيحيين فى العالم الى القدس وكل المسلمين فى العالم الى مكة ؟ ••

وما أسخف فكرة « العودة » المزعومة اذن ، وما أبعدها عن منطق الدين ومنطق الحياة ؟ •• وما اكثر ما تبدو الهجرة اليهودية فى تلك اللحظة عارية الا من اهدافها السياسية والاستعمارية الرجعية المتعصبة ••

الفصل الثالث

إسرائيل .. والماء !

اليهودى لم يكن فلاحًا قط .. ولكن الحركة الصهيونية تريد خلق الفلاح اليهودى لأول مرة منذ قرون . لأنها تعرف أن الزراعة هى أكبر ما يجعل لأى شعب جذورا حقيقية فى الأرض التى يسكنها ..



نظرة الى مشكلة مياه الاردن ، من داخل اسرائيل ..

فما الذى يجعل اسرائيل — فى الواقع — تصمم الى هذا الحد على تحويل كل قطرة تستطيع تحويلها من مياه نهر الاردن ، الى درجة المغامرة بحرب شاملة مدمرة ؟

ان اليهودى — تقليديا — ليس فلاحا . والشعب اليهودى منذ قرون ليس شعب فلاحين . انه شعب مدن ، يميل نشاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ..

وهناك دراسة عميقة المغزى ، للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ، عن وضع اليهود الاقتصادى فى البلاد المختلفة وفى ظل النظم الاجتماعية المتعددة ، من راسمالية الولايات المتحدة الامريكية الى شيوعية الاتحاد السوفييتى .. يلاحظ فيها المؤرخ الصهيونى ان اليهود ليس بينهم فلاحون قط . وان هذا كان شأنهم فى كل البلاد التى عاشوا فيها ، باستثناء بولندا ، وبعض أماكن معزولة فى روسيا القيصرية . بل ان وجودهم فى الصناعة نفسها يقل فى العادة بينما يزداد تركزهم دائما وبسرعة فى أعمال التجارة والمال ، وفى المهن الحرة كالطب والمحاماة والصحافة وغيرها ..

ففى الولايات المتحدة مثلا ،من خمسين سنة ، كان ٦٠٪ من اليهود الامريكان يعملون فى الصناعة، لكن هذه النسبة

تقل كثيرا حتى تكاد تنعدم . وفى الاتحاد السوفييتى لايكاد يوجد يهودى فلاح ، بل ويقل وجودهم أيضا كعمـال صناعيين ، فهم حتى فى مؤسسات الدولة يعملون كما عمل اجدادهم منذ القرون الوسطى :باعة فى المخازن والمحلات. ويقطع المؤرخ الصهيونى بأنه لا يوجد اليوم أى مجتمع يهودى زراعى ذى قيمة فى أى بلد من البـلاد التى يوجد فيها اليهود

ويستطرد المؤرخ قائلا : ان هذا بالطبع معناه ان ثمـة ارتفاعا متزايدا فى مستوى معيشة اليهودى حيثما كان . ولكن اتجاه اليهود دائما الى الانحصار فى اماكن اقتصادية محددة ـ هى مراكز المال والتجارة ـ يعد مصدرا خطيرا من مصادر النزعة المعادية للسامية ، وسببا من أسباب اتساع الهوة بين اليهود وغيرهم من أبناء البـلاد التى يعيشون فيها ..

فاليهود ـ كما يقول المؤرخ ـ لا يساهمون أبدا فى عملية أساسية من « عمليات الانتاج » فى أى بلد ، سـواء كان انتاجا زراعيا او صناعيا .. انما هم يعملون فى المـال والتجارة فقط .. الامر الذى يبذر بذور النقمـة عليهم ..

ان النزعة المعادية للسامية واضطهاد اليهـود فى رأى المؤرخ ، بذورها اقتصادية تماما ، ومرجعها اساسا الى هذا الوضع الاجتماعى الاقتصادى العجيب الذى يصـل اليه اليهود دائما .. حتى القول بأنه لاتوجد نزعة معادية لليهود فى امريكا ، لايقبله المؤرخ « ماهلر » .. اذ يقـول ان هذا أمر غير مضمون فى المسـتقبل . ثم يلاحظ ان الموقف فى امريكا أو فى ولاية نيويورك مثلا يشبه الوضع فى برلين سنة ١٩٣٠ فى ابان موجة كراهية اليهود الجارفة : من حيث ازدياد تركز اليهود فى الاعمال المالية والمهن

الحرة كالطب والمحاماة . فنصف المحامين والاطباء فى ولاية نيويورك يهود . وهذا التركز الاقتصادي والاجتماعى يثير كراهية الجماهير الكبيرة التى تعمل فى شتى الاعمـــال الانتاجية المجهدة القليلة الاجر كالزراعة والصناعة

ويروى المؤرخ أنه قضى شهرين فى جولة فى بولندا تحت النظام الشيوعى وكان فيما يبدو يناقش ويدرس قضايا اليهود وانه كثيرا ماسمع عمالا وعاملات يسألونه « لماذا لا نجد من بين اليهود أى عامل صناعى مثلنا ؟ .. لمـــاذا لا نراهم فى هذه الاعمال المجهدة ؟ » ويروى انه قرأ اخيرا ان الاتحاد السوفييتى قرر انه ليس من حق أى قومية من قوميات الاتحاد السوفييتى ان يكون لها نسبة بين طلبة الجامعات اكثر مما لها من نسبة بين عمال المناجم . ثم يعقب قائلا: انه لايوجد عامل مناجم يهودى واحد لا فى روسيا ولا فى امريكا !

ان تركز اليهود فى مواقع اقتصادية معينة كان دائمـــا عاملا يفرق بينهم وبين سائر المواطنين : فى نظر أنفسهم وفى نظر سائر المواطنين على السواء ! ومنذ العصـــور الوسطى كانت كلمة « اليهودى » فى أوربا معناها كلمة التاجر . . .

وأنقل عن المؤرخ الصهيونى حرفيا قوله « . . ان بعض المفكرين يقولون ان التجارة بالعكس مهنة تجمع بين النـــاس ولا تفرقهم . ولكن هذا كلام سطحى . أن اليهود يعملون حقا فى التجارة وهم بذلك يتصلون بســـائر الناس .. حتى الفلاح المتوسط فى العصور الوســـطى كان لايستطيع أن يعيش بدون ان يتردد على السوق ، لان الاقتصاد وقتهـــا كان يقوم كله على التجارة . فاذا أخذنا اليهود الذين كانوا يملكون الحانات فى بولندا فسوف نجد أنهم بالطبـــع يحتكون بالفلاحين .. فالفلاحون لا يكادون يتـــركون

الحانات . انهم يقضون فيها اجازاتهم ويحتفلون فيهـــا بزيجاتهم وأفراحهم ، ولكن هل « اندمج » اليهود فيهم كنتيجة لذلك ؟ بالطبع لا .. لان اليهودى هو من يملك الحانة ، والباقين هم الفلاحون ! »

ولعلنى استطردت قليلا ، وراء هذه الدراسة للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ولكننى أعود الى الخيط الاصلى للموضوع وهو ان اليهودى — تقليديا — ليس فلاحا ، وان شعب اليهود منذ قرون مديدة شعب مدن ، يميل نشـــــاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ..

ولكن الحركة الصهيونية الحديثة ادركت منذ وقت مبكر ، ان الزراعة هى التى تمنح الشعب اســـتقراره ، وتغرس جذوره فى الارض . ولذلك كان من أول اتجاهاتها خلق الفلاح اليهودى والزراعة اليهودية . ومنـــذ قدوم المهاجرين الاوائل الى فلسطين بالذات — دون سائر بــلاد العالم — عمدوا الى خلق نواة المزرعة اليهودية ...

فخلق الزراعة اليهودية قرار سياسى وليس قرارا اقتصاديا . وهذا الطابع السياسى هو الذى لازم نمـــو الزراعة اليهودية من أيام الهجرة الاولى ، والتمهيـــــد للاغتصاب ، حتى مشروع تحويل نهر الاردن

وقد توصلت اسرائيل الى أســــلوب هو اســــلوب « المستعمرة الزراعية » أو الكيبوتز » ، وهو وحـــدة زراعية وعسكرية فى نفس الوقت حتى تستطيع أن تقاتل وتقاوم خلال عملية الاغتصاب ضد السكان العـــرب ، ولتكون بمثابة حصون دفاعية بعد انشاء دولة اسرائيل : تقوم على الاقل بمهمة الدفاع المؤقت ، نظرا لطول حدود اسرائيل وتعذر ايجاد جيش عامل على طول هذه الحدود، وبسبب ندرة اليد العاملة . فأوجدوا المستعمرة الزراعية

التى يسكنها الفلاح الجندى فى نفس الوقت ..

وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، استمرت سياسة ايجاد المجتمع الزراعى لنفس الاسباب السياسية فى الدرجة الاولى ، ولهذا نجد ان اسرائيل تتعمد اقامة المستعمرات الزراعية فى المناطق النائية ، وفى الصحارى غير المسكونة كالنقب ، وفى مناطق الحدود بوجه عام ، حتى ولو كانت ظروف الزراعة فى تلك المناطق صعبة او غير اقتصادية مدفوعة بنفس الاحساس السياسى ، وهو : ان الزراعة هى التى تشغل الارض فعلا ، وتكسب الملكية الدائمة لصاحبها ..

ان هذا الدافع يكمن وراء محاولة اسرائيل تحويل نهر الاردن ، وزراعة النقب ، أكثر مما يكمن أى سبب آخر

وفى هذه المحاولة .. لم تصطدم اسرائيل بمشكلة الارض ، ولكنها اصطدمت بمشكلة الماء ...

وقد قرأت دراسة علمية مفصلة ، عن مشكلة الماء والزراعة فى اسرائيل ، صدرت باللغة الفرنسية فى باريس ، قام بها أستاذ فرنسى يهودى ، اسمه « جوزيف كلاتزمان » ، مدير معهد الدراسات العملية ، ومستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية فى فرنسا .. بعد أن زار اسرائيل أكثر من مرة لاتمام هذه الدراسة .. كما قرأت دراسة باللغة الانجليزية عن « اقتصاد اسرائيل » بقلم الكاتب الاسرائيلى الكس روبنز بعد ان عمل مستشارا لوزارات المالية والصناعة والتجارة فى اسرائيل ما يقرب من تسع سنوات

تقول هذه الابحاث : ان اسرائيل لديها حاليا ٥٠٠ الف هكتار صالحة للزراعة لو أمكن توفير الماء لها ، ولكن الماء لا يصل حاليا الا الى ١٣٠ ألف هكتار منها فقط ..

وكل المياه المتوافرة في اسرائيل الان لا تزيد على ١٣٠٠

مليون متر مكعب فى السنة ، وحوالى ثلثى هذه الـكمية يأتى من الآبار والثلث الباقى من الانهار والجداول ومياه الوديان ، ومن هذه الكمية يذهب ٦٠ مليون متر سنويا الى الصناعة و ١٧٥ مليون متر للاستهلاك العادى و ١٠٤٠ مليون متر للزراعة ..

ومن هذا الاستخدام العنيف لمياه الآبار ، يتزايد خطر ازدياد نسبة ملوحة الأرض الزراعية ، خصوصا فى تلك المناطق القريبة من شاطىء البحر ..

وليست المشكلة التى تواجهه اسرائيل هى قلة الماء فقط ، ولكن المشكلة ايضا هى ان كل المياه المتوافرة موجودة فى جزء معين منها ، فى حين انها تريد ان تشغل بالزراعة أماكن أخرى بعيدة عن مصادر المياه ، للاسباب التى سـبق ذكرها ، الامر الذى يجعلها تضطر الى تحمل نفقات باهظة لحفظ المياه ونقلها الى مناطق بعيدة كالنقب ..

ولهذه الاسباب كلها أصبح سعر الماء مرتفعا فى اسرائيل، بل وأحيانا غير اقتصادى ..

وفى بحث « كلاتزمان » دراسة مفصلة لتكاليف الماء ولاسعاره ، يمكن ان نستخلص منها أن سعر المتر المكعب الواحد من المياه المطلوبة للزراعة يصـل أحيانا الى ٢٥ مليما ، فاذا كان الهكتار يحتاج الى سبعة آلاف متـر مكعب من الماء فى السنة فمعنى ذلك ان تكاليف رى الهكتار الواحد تصل أحيانا الى حوالى ١٧٠ جنيها ! ..

وقد بنى الباحث دراسته على أساس تكاليف وأسعار مؤسسة « ميكورو » الاسرائيلية شبه الحـكومية التى توزع حوالى ٥٠٠ مليون مترمكعب من الماء سنويا فى اسرائيل

ولهذا تضطر الدولة الى ان تبيع الماء للفلاحين بأقل من تكاليفه ، ولكن الاقتصاد القومى يتحمل من جراء ذلك عبئا باهظا ، يتزايد يوما بعد يوم ..

واهم ما فى البحث ، هو ان طريق المستقبل فى اسرائيل، فيما يتعلق بالماء ، مسدود تماما . .

ان اسرائيل تحلم بأن يصل عدد سكانها سنة ١٩٨٠ ، هكذا يقول المؤلف ، الى اربعة ملايين . .

ولكن الحساب الدقيق يقول انه مع استخدام كل مصادر المياه المعروفة ، بما فى ذلك تحويل نهر الاردن ، فان هذه الزيادة فى السكان سوف تستهلك فى الصناعة وفى الاستعمالات العادية كمية متزايدة من الماء ، لا يبقى منها للزراعة الا ألف مليون متر مكعب فقط ، أى أقل من المياه المخصصة للزراعة حاليا !!

فالطريق مسدود تماما !

ولهذا ، تبذل اسرائيل جهودا علمية وتجريبية جبارة فى محاولة استنباط محاصيل زراعية تحتاج الى كمية أقل من المياه ..

ولكن الخبراء لا يرون فى هذه التجارب ما يمكن أن يسد عطش اسرائيل . .

ولذلك ينتهى جوزيف كلاتزمان الى رأى قاطع ، هو انه لا مستقبل لاسرائيل الا اذا نجحت تجربتان عمليتان أساسيتان :

الاولى : هى تجربة تحويل مياه البحر الملحة الى مياه عذبة ، بتكاليف قليلة

والثانية : هى تجربة استخدام المطر الصناعى . .

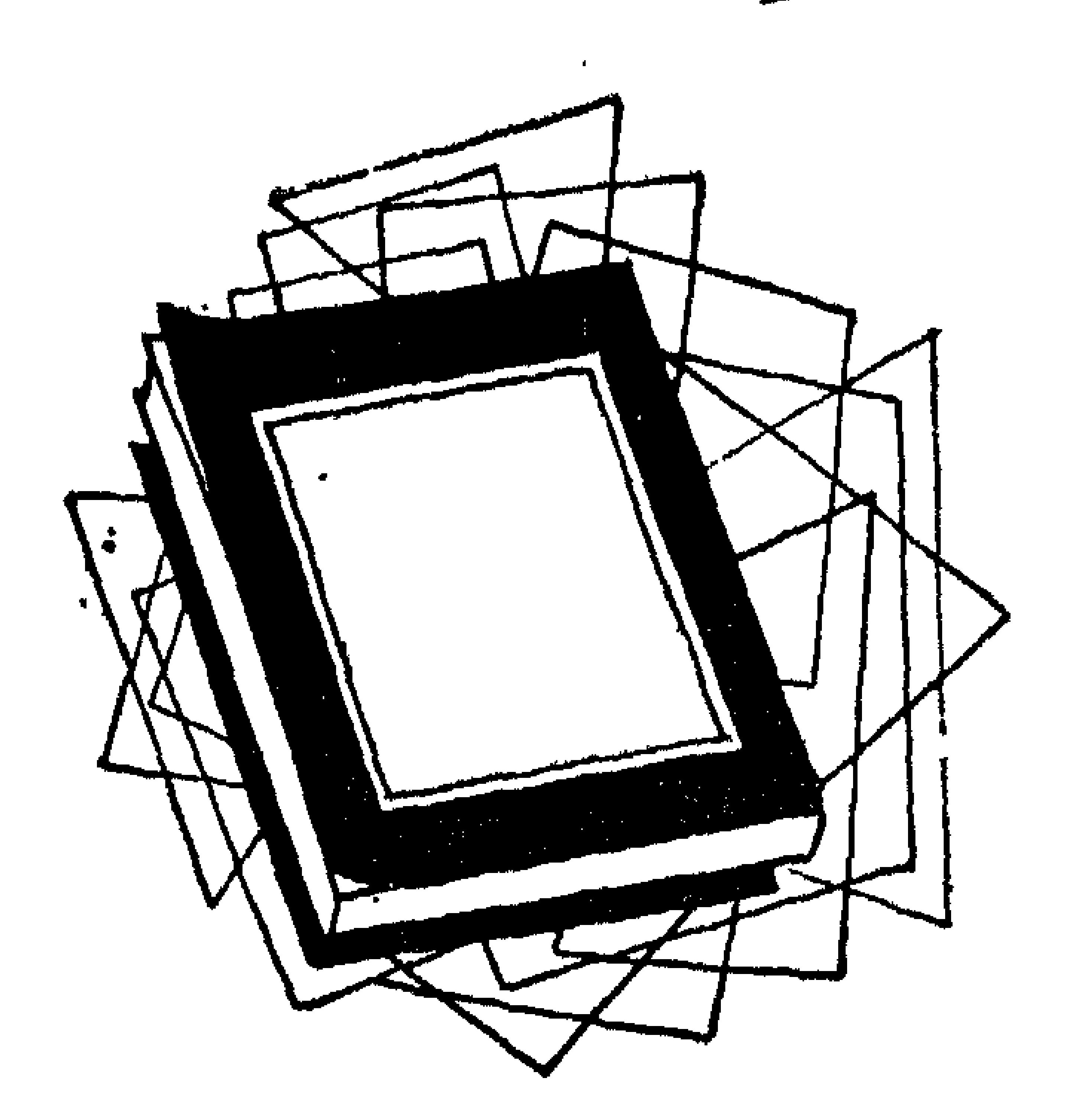
أما مصادر المياه المعروفة حاليا ، حتى ولو حولت اسرائيل نهر الاردن ، فهى لا يمكن ان تروى عطش اسرائيل ، اذا زاد عدد سكانها بالقدر الذى ترجوه لنفسها ..

الفصل الرابع

طوبى للخائفين !

رواية للكاتبة الإسرائيلية يائيل دايان

يائيل دايان ، ابنة القائد الصهيوني العسكري المعروف موشى دايان ، هي مؤلفة هذه الرواية التي تشرح لنا عن "عقل اسرائيل" و"نفسيتها" أكثر مما تشرحه لنا عشرات من المؤلفات .



هذه رواية ألفتها فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها . الفتاة اسرائيلية صهيونية ، اسمها « يائيل دايان » ، بنت موشى دايان القائد العسكرى الصهيونى المعروف ، وأقرب المقربين الى بن جوريون ، والوزير فى حكومة اسرائيل أكثر من مرة ..

وقد ألفت « يائيل دايان » وهى فى التاسعة عشرة من العمر رواية اسمها « وجه جديد فى المرآة » ، كانت محل تعليقات شتى ، ولكنها لم تستوقفنى كثيرا ..

أما هذه الرواية فقد استوقفتنى بشدة لا لانها رواية مكتوبة باتقان فنى كبير فحسب ، ولكن لانها أشبه أن تكون تحقيقا نفسيا عن مجتمع اسرائيل ودولة اسرائيل . . وهو الشيء الذى يجب أن نتابعه باستمرار ..

وقد كنت جالسا فى شرفة فندق « سان جورج » فى بيروت حين دخل الشرفة صحفى هندى تعرفت به فى القاهرة منذ سنوات .. حاملا حقائبه ، آتيا من سفر .

وسألته : من أين أنت قادم ؟

فقال لى : من اسرائيل !

وقبل أن تقفز الدهشة الى وجهى قال : ليس مباشرة! فأنا قادم الآن من قبرص . ولكننى قبل قبرص كنت فى تل أبيب

ورأى أنني سوف أنهال عليه بالاسئلة فبادرنى مرة اخرى يقول :

ـ سنتحدث فيما بعد . فان على أن أنجز هنا أشياء كثيرة قبل أن أسافر غدا الى دمشق . ولكنى ساترك لك هذه الرواية التى صدرت منذ أسابيع .. اقراها .. وسوف تجد فيها الرد على كثير من الاسئلة .. وليكن حديثنا بعد أن تفرغ من قراءتها ..

وقال لى وهو يحمل حقائبه من جديد : ان كل بلد فيه الآن أكثر من بنت تحاول أن تكون « فرنسواز ساجان » .. وهذه هى « فرنسواز ساجان اسرائيل »

وترك لى الصحفى الهندى رواية اسمها « طوبى للخائفين ! »

القصة تبدأ فى قرية صهيونية قرب الحدود السورية اسمها « بيت عون » .. وفلسطين ما زالت فلسطين .. أى قبل انشاء دولة اسرائيل بقليل ..

ومحور القصة فى صفحاتها الاولى صبى صغير اسمه نيمرود ، أبواه « ايفرى » و « مريام » مهاجران جاءا من روسيا قبل سنوات . والصراع فى هذه الصفحات الاولى يدور حول تربية الصبى الصغير والعوامل التى تتنازعه . وهى فى نفس الوقت العوامل التى تتنازع المجتمع اليهودى فى تلك القرية ..

ان الاولاد الصغار فى القرية يهربون من أهليهم الى منطقة غير مطروقة ، بالقرب من المقابر ، يلعبون فيها لعبتهم المفضلة وهى « من هو القوى ؟ » . وفيها يحاول كل صبى ان يثبت انه أقوى من الآخرين بأى طريقة يختارها .. بأن يتسلق مثلا شجرة أعلى من الشجرة التى يتسلقها سواه أو بأن يسبح عبر نهر الاردن فى الماء البارد مدة

أطول من سواه .. او ان يضع يده على النار المشتعلة ويتحمل لسعها أكثر من سواه !

وفى القرية رجل اسمه « جيديون » يسميه أهل القرية « الصخرة » .. فهو نموذج القوة العضلية .. والشجاعة البدنية .. والاستهانة بالخطر .. وهو كما يتهامس أهل القرية مشترك فى احدى العصابات الصهيونية السرية .. ويشترك فى اعمال ارهابيةمجهولة .. ويعود الى القرية سالما متكبرا ..

ان كل أب فى القرية يريد ان يشب ابنه مثل «جيديون» هذا . وان يحمل بدوره يوما لقب « الصخرة » .. وهذا ما يريده أيضا « ايفرى » لابنه الصبى « نيمرود » رغم معارضة أمه المسالمة « ميريام » التى لا تبرح المطبخ ..

ولكن الصبى تربطه علاقة زوجية باسكافى عجوز فى القرية اسمه «لاميش» فهو يذهب الى دكانه حيث يتفرج عليه وهو يصنع الاحذية ويستمع منه الى قصص وحكايات عجيبة ..

ان الاب لا يحب تأثير لاميش على ابنه .. ان لاميش يحدثه أحاديث يهودية قديمة . عن الله . والدين . والكتاب المقدس .. الى ان كان يوم ، رأى فيه جيديون «الصخرة» الصبى نيمرود يدخل مع العجوز لاميش الىالمعبداليهودى .. أو الكنيسة اليهودية .. ودهش جيديون وغضب . ورأى فى هذا افسادا للطفل . فأسرع ونقل الخبر الى أبيه ..

وعندما عاد الصبى من المعبد الذى لا يذهب اليه الا القليلون ثار أبوه فى وجهه بحديث له مغزى عميق :

ـ أيام زمان ، حين كنا يهودا فى روسيا وغيرها ،كان من الضرورى بالنسبة لنا ان نطيع التعليمات . . ونحافظ

على ديننا ، اما الآن فقد أصبح لدينا شيء اهم ! الارض ! انت الآن اسرائيلي ، ولست مجرد يهودى ! أتعرف ماذا كان اسمي الحقيقي فى روسيا ؟ .. كان اسمي «موتل» . هل تتصور ذلك ؟! نعم كان اسمي «موتل» ولكنني غيرته حين جئت الى هنا وسميت نفسي « ايفرى » . لقدتركت هناك ملابسي ومتاعي وأقاربي .. وعثرت هنا على رب جـديد . هذا الرب الجديد هو خصب الارض وزهر البرتقال . الا تحس بذلك ؟

واخذ ايفرى حفنة من تراب الارض وسكبها فى كف الصبى وقال له : امسك هذا التراب .. اقبض عليه .. تحسسه .. تذوقه .. هذا هو ربك الوحيد .. اذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصل لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا .. ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا . هذا هو المهم ! اياك أن تذهب مرة أخرى الى المعبد . اذا أردت أن تسلى نفسـك وتتعلم شيئا فاذهب وتعـلم حلب البقر !

وليس هناك اقوى من هذا المشهد ، فى التدليل على ما جاء ذكره فى فصل سابق : من ان الصهيونية حركـة سياسية لا دينية !

وتحاول الام أن تخفف من غلواء الاب ، تحاول أن تقول له ان الماضي لا يمكن أن يمحى بأكمله حتى بعد الهجرة . ولكن الاب لا يقبل هذا الكلام . ويستطرد قائلا لهاولابنه: هناك .. كنت أخاف من القسيس .. من ابى وأمى .. من عسكرى البوليس .. من الطبيعة .. ومن نفسى .. هناك لم يكن من حق الطفل اليهودى ان يكون قـويا أو يتسلق شجرة .. كان عليه فقط ان يبقى فى دكان أبيه لا يبرحه

ولكن الصبى نيمرود يحتفظ بعلاقته « السرية » مع

الاسكافى العجوز لاميش الذى يحـدثه عن الله .. وعن عواطف الحب والشفقة .. وعن ذكريات ايام قديمة فى قرية روسية بعيدة ..

حتى يجىء يوم يحتفل فيه أهل نيمرود بعيد ميلاد ابنهم .. ويدعون له كل الاولاد والبنات

وفى غمرة الضجة والصخب اثناء حفلة عيد الميـلاد يظهر الاسكافى العجوز لاميش .. لقد جاء يحمل لفافة فى يده قال انها هدية أحضرها لنيمرود فى عيد ميلاده. ويفرح نيمرود بحضور لاميش بينما يستقبله أبوه فى فتور مهذب ويدعوه لتناول الشاى . ثم يفتح نيمرود الهدية : انها أرنب من الجلد .. صنعه لاميش من بقايا الجلد التى تملأ دكانه .. وقد ركب للارنب زرارين صغيرين فى مكان العينين . وتصايح الاطفال وضحكوا من نيمرود وبدأوا يقولون ان نيمرود نفسه ارنب لانه لا يشترك فى لعبة « من هو القوى » . وانفجر سخط ايفرى ، فأخذه لاميش الى حجرة بعيدة عن الاولاد وانفجر فيه مهددا متوعدا اذا ظل يتصل بابنه ويبثه المشاعر التى يبثها فيه

قال له :

ـ انك لم تتغير عما كنت عليه فى قريتنا الروسيـــة منذ سنوات بعيدة .. الهجرة لم تغير فيك اى شىء .. فأنت لا تهتم بالارض .. وجلدك ما زال أصفر اللون ! لم يكتسب اى سمرة بعد .. انك .. يهودى جدا !

ويرتجف الإسكاف العجوز بالغضب والاسى ، ويقول له:

ـ كيف تجرؤ يا ايفرى على أن توجه لى هذا الكلام ؟. بل كيف تجرؤ يا « موتل » . يا ابن القسيس «نمخاس»؟ ان تغيير اسمك لا يغير حقيقتك ! انك فى قرارة نفسك خائف .. خائف مثل موتل ابن القسيس نمخاس تماما ! ان الله رزقك ابنا بديعا ، ولكن ماذا أنت صانع به ؟ ..

ــ ليس هذا شأنك . انك تريد ان تراه يشب مثل أى يهودي آخر فى قرية أوربية .. ولكن ابنى لن يكون هكذا. انه سيكون نوعا جديدا

ــ الانسان ليس له نوع قديم ونوع جديد وابنك كائن انسانى حساس . خذ اى قطعة من الجلد الطرى .. انك تستطيع أن تظل تطرقها وتدبغها حتى تصبح فى صلابة الحديد .. ولكن .. آه .. ان أى شيء فى هذه الحالة يمكن أن يكسرها .. انك بذلك تخسر الجلد .. ولا تحصل على الحديد ..

ــ انني أريد أن يكون نيمرود شجاعا

ــ الشجاعة صفة حميدة .. اما عدم الخوف فهــو صفة بشعة ذميمة .. انك تمارس تأثيرك عليه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم .. تريد أن تقتلع منه كل خوف .. ولكن يبقى له خوف رهيب ــ خوفه من أن يخاف ! هذا ما يسيطر عليه الآن . انه لن يكون شجاعا اذا مضيت فى تربيته على هذا النحو .. ولكنه سيشب عاجزا عن أن يخاف، وسوف يكرهك لهذا السبب يوما ما !

ــ وما العيب فى الا يخاف ؟

ــ من لا يخاف لا يستطيع أن يحب . والله يريد منا أن نحب . ابنك سيتمنى أن يحب . ولكن عدم الخوف سوف يجعله وحيدا .. معزولا .. عزلة قاتلة .. انك تريد أن تتخلص من ذاتك القديمة .. ولكنك لست واثقا من ذاتك الجديدة .. ولهذا تحاول أن تصب ابنك فى هذا القالب الذى تتخيله ! ..

وحين ينصرف لاميش والضيوف ، يترقب الصبى المهموم الهدية التى أعدها له أبوه .. وفض الاب لفافته بعناية وحرص كبيرين ، فبدا نصل لامع حاد ــ خنجر مرهف ..

وقال ايفرى لابنه : هيه ·· ما رأيك ؟ خنجر حقيقى ! تستطيع أن تقطع به اى شىء !

وقال الصبى لنفسه انه لا يعرف ما اذا كان يريد أن يقطع أى شىء على الاطلاق .. لقد رأى مثل هذا الخنجر مع الاولاد الذين من سنه . ان هذا الخنجر حلم كل صبى فى القرية . اما هو ..

وقال الاب ساخرا : نعم ·· تستطيع أن تقطع به أى شىء ·· حتى ذيل الارنب الجلدى

وقال الصبى وكأنه قد تذكر فجأة :

ـ اين أرنبى ؟

ـ فى حجرتك .. على الرف .. انك طبعا لا تريد أن تلعب بمثل هذه اللعب التافهة

ودخل الصبى حجرته الصغيرة لينام ·· حاول أن يضع الارنب معه فى الفراش ولكن الفراش كان ضيقا ، فوضعه على مقعد مواجه له ... ووضع بجواره السكين

ان غرفته مليئة بألعاب اشـــتراها له أبوه ·· مدافع ودبابات وبنادق .. ثم تذكر البندقية الحقيقيـــة التي يحتفظ بها أبوه ·· وكيف أن أباه يعلمه كل يوم جمعة كيف يستعملها وينظفها ·· وتذكر كيف أن أمه لاتستطيع الآن أن تضىء الشموع كل يوم جمعة · لقد قال لها أبوه انه لم تعد هناك حاجة الى مثل هذا . ان الرب القديم لم يعد موجودا .. وتتردد عيناه بين الارنب الجلدى بعينيه المصنوعتين من الازرار وبين الســـكين المرهف .. حتى ينام ..

وفى لمحات سريعة تجتاز المؤلفة فترة الحرب العالمية الثانية ، واشتراك العصابات الصهيونية الى جانب انجلترا ،

ثم ما بعد الحرب ، ثم حرب فلسطين ، واخيرا اعـــلان دولة اسرائيل ..

وكيف نجد الصبى الصغير «نيمرود» وقرية«بيتعون» بعد هذه الخطوب ؟

لقد مات العجوز « لاميش » . مات حزينا لانه رأى تعاليمه تذبل ، ورأى المجتمع من حوله يتجه الى عبـادة القوة وعدم الايمان بالله ، وعدم الاعتراف بالحب والخوف

اما «جيديون» او « الصخرة» كما كان يسميه أهـل القرية ، ورمز القوة والالحاد والثأر من كل الحياةالقديمة التى قاساها اليهود ، فقد عاد من احـــدى « مهماته السرية » حطاما . انفجر فيه لغم فمزق له ذراعيهواحدى ساقيه .. عاد جسدا مشوها عاجزا عن الحركة ..

وقد حاولوا أول الامر ان يمنعوا نيمرود من زيارته . ولكنه تسلل يوما اليه . وقد دهش حين دخـل البيت فوجد « الصخرة » يبكى . لقد كان جيديون يمثل كل ماهو نقيض لاميش . ولكن ما اشبههما الآن :«لاميش ميت ومدفون تحت قطعة من الحجر ، وجيديون ميت حى ، مربوط الى سريره ، عاجز عن عمل أى شىء .. لايستطيع أن يسير .. لا يستطيع أن يضم امرأة ..

ـ ولكنك تستطيع ان تقرأ .. وتستطيع ان تفكر .. وتستطيع أن تتكلم ..

ـ كلا . ان الصخرة لا عقل لها . اننى لم أكن اخاف حين كان لى جسد قوى يستطيع أن يمارس أى شىء ، وعضلات استطيع ان آمرها ، وأطـراف تطيعنى ، اما الآن ، وقد فقدت كل هذا .. فماذا بقى لى .. ؟!

ودهش نيمرود اكثر حين قال له جيديون : انه الآن

يحسد لاميش بعد ان كان يكرهه ويحتقره !!

- أتذكر يوم غضبت منك حين أخذك الى المعبد ؟ لقد كنت غيورا . ذلك انني لم أذهب الى المعبد قط . وطالما اجتاحتني رغبة خفية كي أصلي . ولكن المجتمع هنا لم يكن يقبل من « الصخرة » أن يصلي ، أو يكون له رب .. كان على « الصخرة » أن يكون رمز النموذج الجديد ، القوى الذى لا يخاف ، ولا يحتاج الى اله !

على انه من خلال هذا كله لم يكن هناك مفر من ان ينمو « نيمرود » في القالب الذي « يريده له الجو السائد في بيت عون » ، وان تهمل احلامه الارنب الجلدي وتتعلق بالسكين ذى النصل المرهف الحاد !

« أصبحت الحياة بالنسبة لنيمرود حياة جسد ، ومادة . افراحه جسدية وآماله جسدية . هدفه هو الاثبات المستمر لقوته الجسدية . اما الجانب الاخر من نيمرود فقد اختفى تماما .. فى حالات قليلة كان يبدو هذا الجانب الاخر كأنه طيف شاحب بعيد ، فيقوم نيمرود برحلة على قدميه فى انحاء البلاد ، وقد يقوى على ان يحب منظرا جميلا من مناظر الطبيعة ، بل وتصل به الحساسية أحيانا الى درجة أن يقطف بعض الازهار ، وينسى للحظة انه يجب ان يكون قويا فحسب .. ولكن تلك كانت حالات عابرة سرعان ما تختفي ، وبينما كان جيديون الصخرة يتضاءل فى فراشه الى « صخرة صغيرة » ثم الى « لاميش جديد » كان نيمرود يتحول الى « صخرة » . كل مافى الامر انه لم يثبت صفاته تلك فى الحرب اذ انه كان صغيرا جدا حين قامت الحرب وانتهت . ولكن لا بأس ، فان أباه يؤكد له دائما انه لا مفر من الحرب يوما ضد العرب ، لا مفر من الحرب !

ويطرق باب نيمرود شيء جديد .. قصة حب ..

فقد نزل فى قرية « بيت عون » مجموعة من البنـات المهاجرات القادمات من بودابست فى المجر . ومن بـين المجموعة التقت عينا الفتاة الشـقراء « ايللى » بعينى الشاب القوى ، الصخرة ، نيمرود ..

هل يتزوج نيمرود من فتاة مهاجرة مختلفة عنه فى عاداتها وتقاليدها وأفكارها ؟ سؤال تثيره الام ، ثم تزيحه جانبا .. ولا تعترض ..

ولكن السؤال الاساسى يبقى بين نيمرود والفتاة . انه يحبها . يحبها حبا من نوع خاص وكأنها مجرد امتداد لجسده او لقدراته الجسدية المادية البحتة ، والفتـاة تلاحظ هذا وتتحمله ، وترجعه اول الامر الى انه يمارس تجربته الاولى مع النساء . ولكنها تكتشف فى القرية اشياء غريبة .. تكتشف ذات ليلة اللعبة التى يمارسها الاولاد الصغار « من هو القوى » وتصرخ حين ترى صبيا يضع يده فى النار لكى يثبت انه قوى . وتعود اليها ذكرى كل بشاعات الحرب فى أوربا . وتجرى باكيةالىجيديون، الصخرة سابقا ، الراقد فى فراشه ابدا ، يقول شـعرا حزينا يائسا ! ..

انها لا تتحمل هذا الذى رأته . لان معناه انهـا لو تزوجت فسوف يشب اولادها على نفس التعاليم

ويقول لها جيديون « تسأليننى عن تفسير لهذا ؟ انظرى الى جيدا ! أنا التفسير ! انا الاجابة على سؤالك اسخافة.. شجاعة زائفة ! » ثم أشار الى ساقيه المقطوعتين وقال :

« لا عقل ! لا حكمة ! نتائج عظيمة وخطر عظيم ! »

وقال فيما قال انه يصاب بغثيان من « نموذج الانسان الجديد » الذى يصنعونه فى البلاد .. وقال لهاان نيمرود يريد ان يكون صخرة والصخرة لا يمكن ان تتحول الى

نبات حى قادر على التنفس ..

« وكان جيديون يلهث ، وقلبه يدق فى صوت أشبه بدقات عصا فى يد رجل أعمى ، يسير متعثرا ، مترددا ، فى ظلام مطبق بدون هدف .. ! »

وفى تلك المرحلة تعبر القصة شخصيات اخرى ثانوية وصور جانبية ولكنها ذات دلالة . فهناك اليهودى اليمنى « زكى » الذى ترسم القصة فيه نموذجا لعلاقة اليهود الشرقيين باليهود الاوربيين داخل اسرائيل . فهم تابعون ضعفاء ، يعترفون — كما تقول المؤلفة عن زكى — بضعفهم وعجزهم وحاجتهم الى قيادة وحماية اليهودى الاوربى .. وهناك «رينا» بنت المزرعة التى يمكن ان تعد صورة من « النموذج الجديد » الذى تحاول اسرائيل ان تصنعه فى عالم المرأة . وهناك «يورام» الشاب ابن المدينة — تل ابيب — الذى جاء مع فرق التدريب العسكرى الى القرية . وهناك الحديث المتواصل عن حوادث الحدود . والمؤلفة تزعم بالطبع ، بشكل غير مباشر ، ان العرب دائما هم المعتدون ، وان اليهود يتحدثون دائما عن « الرد » ، مقابلة العدوان بالعدوان ، تلقين العدو درسا . يقولون هذا كله فى لهجة أقرب الى الغيظ منها الى الحقد ، وأقرب الى التعب منها الى التحفز ! » ..

ويذهب نيمرود وايللى وبعض الاصحاب يوما الى المدينة ، الى تل أبيب . وهنا ترسم المؤلفة صورة غريبة للتناقض بين المزارع وبين المدن فى اسرائيل . فهى تقول ان ابناء « بيت عون » شعروا كأنهم سافروا الى دولة أخرى .. وعندما جلس نيمرود ، ابن المزرعة ، فى المقهى واستمع الى مناقشات الناس من حوله ، دهش وذعر . انهم يقولون عن اصطدامات الحدود انها وحشية وبشعة بدلا

من أن يمجدوها. وهم يتحدثون عن السلم، بل ويقترحون ايقاف الهجرة الى اسرائيل والموافقة على عـــودة بعض اللاجئين العرب الى ديارهم ! وعندما دخـــل نيمرود فى حديث مع بعض الناس سألوه من أين هو فقال « من بيت عون » فسألوه « اين تقع بالضبط ؟ » فجرح جرحا عميقا حين وجد أن الناس فى تل أبيب لم يســـمعوا عن اسم بيت عون قط . ولكن الذى أثاره الى أقصى حد هو أن « رينا » نموذج « الانسان الجديد » بين البنـــات .. آثرت أن تترك القرية وخطيبها السابق لتتزوج شــــابا وسيما ناعما من تل أبيب !

وعندما عاد الى بيت عون سأله ابوه .. «هل صحيح اننا سنقوم باجراء عسكرى بمناسبة تبادل اطلاق النار على حدود سوريا » فقال نيمرود مستهزئا « لا أظن .. فالناس فى تل أبيب يتحدثون عن السلام ! كأننا نحن.. نريد الحرب ! » وتستطرد المؤلفة قائلة « ولكنـــه كان يكذب . انه يريد الصدام والآن اكثر من أى وقت مضى . أنه يريد أن يقفز الى القتال أو فليعد الى رحم أمه وكأنه لم يولد قط ! ان الصخرة تنمو فى باطنه حتى أوشكت أن تقتل أى شىء رقيق فيه . أن « الصبار » نبات ضخم وقوى ومليء بالعصير ولكنه ينكمش فى بعض المواســم ويفقد مافيه من عصير ولا يبقى منه الا الشوك الحاد . والشوك فى نيمرود بدأ يتجه الى الداخل ويقتل فيه أى شىء يمكن أن يكون عذبا . ولهذا فعندما نظر الى الارنب الجلدى فجأة سخر من نفسه وقرر ان يهـــديه الى « ايللى » .. ليتخلص منه ..

وقد قرر نيمرود أن يحل مشكلة قلقه وازمته النفسية منذ عاد من تل أبيب بمشروع غريب .. فهناك وراء حدود

اسرائيل ، فى الارض العربية الممتدة ، يشرف جبل شامخ اسمه « جبل الثلج » حيث تلتقى حدود اسرائيل وسوريا ولبنان ..

وتسجل المؤلفة ما تسميه « يوميات نيمـــرود » فى رحلته الغريبة . ارتدى ثيابا عربية للتنكر وأخفى خنجره بين طيات ثيابه وعبر الحدود ليلا ، صاعدا الى الجبل ..

رحلة غريبة مملوءة بالرمز ، جياشة بالكلمات والعبارات التى تحمل اكثر من معناها المباشر . ان فيها حلم الاسرائيلى بالتوسع خارج حدوده الحالية . وان هذه الجبال عبر الحدود هى ملك له . وفيها احساس الاسرائيلى بالغرور العميق منذ اقام دولته « اننى لا اطلب معركة ، ولكننى اطلب شيئا اتحداه واتغلب عليه . وداعا يا بيت عون . ابنك خارج لكى يغتصب الجبال العذراء ! » ثم يتحدث عن شعوره المعقد نحو العربى « اننى لست مســـالما ولا باحثا عن التهدئة . ولكننى ايضا لا اهتم بالحرب . لا أستطيع أن اقتنع بأن هؤلاء الناس اعدائى .. ربما لانهم قريبون جدا ، يمكن لمسهم بأصابع اليد ، لو اننى استطيع ان أتجنب رؤية « العربى » واتصوره نوعا من الوحش ، فلربما استطعت أن أكرهه وأن أقاتله وأحاربه . ولـكن هذه ليست الحقيقة . اننى أعبر حدوده لمجرد انه يملك شيئا جميلا أريد أن ألمسه ! »

وحين يصعد الجبل يعاود تحديه : « هانذا على قمـة جبل الثلج اصيح كما كنت افعل وانا صغير « من هو القوى ؟ » ولكن أصداء صوتى هذه المرة تتردد فى الاردن ، وعلى ضفاف نهر الليطانى ، وعلى الطريق الصـــاعد الى دمشق ، وفى السماء ! »

ولا نرى « العربى » فى الرواية كلها الا ونيمرود عائد ،

متلصص ، من رحلته الرمزية الغريبة الى جبل الثلج فيلمح ظهر عربى عجوز يحمل بندقية ، ويكتب فى رمز آخر « كنت أفكر فى بندقيته ، ويدى على خنجرى • هل يطلق على النار اذا رآنى ؟ اسهل شيء ان اهاجمه من الظهر واطعنه واجهز عليه ! ولكن هذه ليست لعبة عادلة . ولكنه ـ أيضا ـ اذا اكتشف وجودى فستكون هذه نهاية أشياء كثيرة .. لو رآنى فاننى ضائع لا محالة

ويتزوج نيمرود من ايللى . ويبنيان بيتا جديدا في المزرعة . ويشن الاسرائيليون هجوما ليليا على قرية سورية . وتبرر المؤلفة الهجوم طبعا بتحرش السوريين بحدود اسرائيل . ويشترك نيمرود أخيرا فى القتال الذى كان يتحرق اليه • ويعود وفى ذراعه جرح خفيف •وتقول له زوجته ايللى انه يفضل ان يتخلل رصاص العدو شعر رأسه على أن تتخلله أصابع زوجته ••

وايللى تعيش فى حياتها مع نيمرود لكل الاسباب والصفات التى سبق سردها • وهى حامل ولا تريد أن يشب ابنها مثله • ولكن الحدث الذى جعلها تنفجر وتثور وتهرب من البيت هو مرض أم نيمرود ثم وفاتها .. لقد ذعرت ايللى وهى ترى نيمرود يعبر هذه المرحلة بلا انفعال . لم يجد فى وفاة امه أكثر من مجرد حادث بديهى وطبيعى لا مفر منه ولا يحتاج الى حزن ولا حتى الى أن يذهب الى فراش موتها ! كأن هذه المرأة العجوز ليست أمه ولا تمت اليه بأى شيء !

وهربت ايللى الى بيت صاحبتها التى تزوجت فى تل أبيب « افتحوا النوافذ ! •• افتحوا النوافذ والابواب والارحام والا أختنقنا جميعا ! لقد تزوجت صخرة ـ شجرة ميتة •• واديا أجرد لا ينبت فيه شيء ! •• هل تستطيع

الصخرة أن تحب ؟ لا أريد طفلا ! لا أريد أن أنجب منه !»

وحين يذهب نيمرود الى أصحابها ليعيدوها اليه يقولون له « ان المسكينة تحبك ! تحب ما فيك من قوة تبعث على الغثيان . هذه أرض طيبة . انها لا تأكلنا . ولكننا نحن نأكل انفسنا .. »

وبعد أن تهدأ اعصاب ايللى ، يصالحها زوجها ، وتعود لتلد طفلها فى بيت عون ..

ماذا بقى فى القصة من احداث ؟

بقى حادثان أساسيان ..

الاول هو موت « جيديون » . فقد مات منتحرا برصاصة أفرغها فى جوفه بعد أن ترك رسالة طويلة لنيمرود ، خليفته فى حمل لقب الصخرة .. رسالة قال فيها « اننى احس بالذنب نحوك . فقد قتلت الجانب الطيب فيك – وهو الخوف . لقد كنت نموذجا سيئا لك . لقد قتلتك لاننى نفسى قتلت بنفس الطريقة من قبل ..

« لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية وهأنذا انتهى فاسدا وضعيفا .. ان المرء يحتاج الى شجاعة لكى يخاف .. ولم تكن لدى هذه الشجاعة . ولا انت فانت مهدد بمصيرى – سوف تجن وتدمر كل ما حولك ، وتدمرنفسك قبل كل شىء . نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالاطفال . لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون .. لا تصنع منهم صخورا . اننى أترك الارض لالحق بمن هم أحسن منى مثل لاميش ! »

الحادث الثانى : أو المشهد الاخير الذى تختتم به «ديائيل

دايان » قصتها هو ان ابن نيمرود قد اصبح صبيا

وقد ذهب بدوره الى حيث يلتقى الاولاد ويلعبون لعبة « من هو القوى » وقد أراد أن يثبت قوته فقفز فى نهر الاردن ليعبره . ولكنه يشرف على الغــرق . وفى تلك اللحظة يمر نيمرود صدفة بالمكان فيرى ابنه على وشك الغرق » وفجأة تحطم كل شىء • لقد وقف الصخرة يرتعد• كان نيمرود النموذج الجديد ، الصخرة ، يرتجف ذعرا . كان الخوف الساحق يمزقه . كل مخاوفه القديمة التى اخفاها .. واغرقها .. وقتلها .. قفزت فجأة على السطح تسخر منه وتغزو قلبه واعصابه .. وقفز بلا وعى فى الماء لينقذ ابنه .. فلما انقذه فوجىء الاولاد بالصــــخرة يبكى كالاطفال ••

وعندما عاد الى البيت وهو ما زال يبكى قال له ابوه « ايفرى » : « ابك يا ابنى .. لا تخجل ! ابك ! ضـــع ابنك فى فراشه وحدثه بحكايات لأميش القديمة ، وحاول أن تصلى ! »

وفى الفراش ، اخرج نيمرود من الدولاب أرنبا مضحكا من الجلد له عينان من الازرار •• أعطاه للطفل !

هكذا قدمت « يائيل دايان » صورة لمجتمع اسرائيل من وجهة نظرها .. التى تمثل بغير شك وجهة نظر واسعة الانتشار داخل اسرائيل .. كما قال لى الصحفى الهندى الذى اعارنى الرواية ..

ومن سطور هذه الرواية وما فيها من خلجات نفهم :

ـ ان اسرائيل دولة اقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به . بل انهم هاربون من دينهم قبل أى شىء آخر . رغم ان اسرائيل اقامت دعايتها وحجتها فى احتلال

فلسطين على اساس الدين .. انهم ناس يثارون لاحتقار المجتمع الاوربى واضطهاده لهم

ان اسرائيل أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلق نوعا جديدا من الناس أطلقت عليه أسم نبات « الصبار » ليكون جنسا ممتازا على سائر البشر فهذه الدعوة ـ العنصرية فى اساسها ـ تمزقها المؤلفة تمزيقا شديدا وتدمغها بالفشل الذريع .. وبأنها تشويه للانسان لا غير ..

اننا اذا تأملنا فى هذه الفكرة وآثارها ونظرتها فسوف نجد أنها « نازية » مائة فى المائة ! .. لها نظرة النازية الباردة الوحشية الى الصفة العنصرية ، والى الانسان كجسد وأداة لا شفقة فى استخدامها أو تدميرها

وان فكرة القوة .. والغزو .. والتوسع .. والعدوان .. عميقة راسخة الجذور فى بناء مجتمع اسرائيل

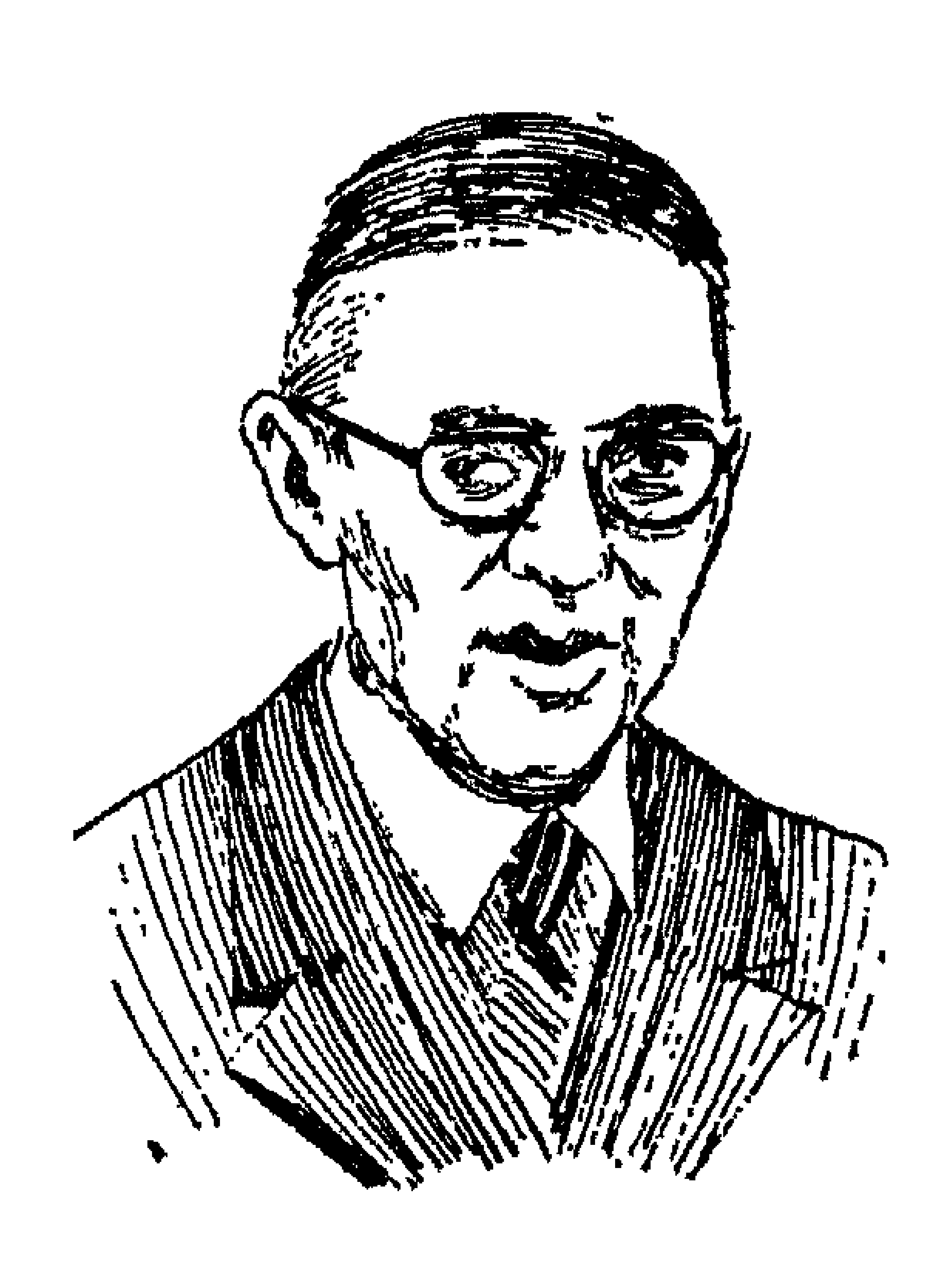
وان الجيل الجديد ينتقد كل هذا .. ولكنه مصاب الى حد كبير بنفس الامراض .. فهو حائر .. يكاد يرى ان انشاء دولة اسرائيل بالنسبة له لم يكن حلا للمشكلة ولكنه كان بداية مشكلة هائلة ..

مشكلة تتلخص فى عبارة : الى أين ؟ !

الفصل الخامس

چان بول سارتر ومشكلة اليهودي

أين أخطأ سارتر ، وأين أصاب في كتابه التحليلي عن مشكلة اليهودية ؟



جان بول سارتر فيلســـوف وفنان اشتهر باتخاذ مواقف سياسية كثيرة ، تنطوى عادة على الوقوف الى جانب الحق والعدالة والمساواة ، والانتصار للمضطهدين ونضاله المشهود من أجـــل حرية الجزائر واستقلال الجزائر مازال ماثلا . وصموده فى وجه العســكرية الرجعية فى فرنسا كان رمزا لبطولة المثقف الذى يشعر بمسئوليته نحو المجتمع

جان بول سارتر من الفنانين الذين صمدوا قبل ذلك فى وجه الطغيان النازى . وطالما هاجم فى مؤلفاته كل ما تنطوى عليه النازية من عنصرية وتعصب قومى

ومن المنطقى أن يكون لسارتر بعد ذلك موقف قوى ضد « أعداء الســامية » أى أصحاب دعوة التعصب العنصرى ضد اليهود ..

من المنطقى أن يكون له هــذا الموقف . وهو موقف عادل بالتأكيد . لان دعوة معاداة الســامية والتعصب العنصرى ضد اليهود هى دعوة رجعية مظلمــة كدعوة معاداة الزنوج وكنزعة اضـــطهاد أى أقلية من أى نوع وكأى دعوة عنصرية أخرى

ولكن هذا كله لايبرر المبالغة . ولا يبرر الخروج على المنطق السليم والجموح وراء الرغبة فى تبرير كل مايصدر

عن اليهود . وكل ماهو يهودى ومن هو يهودى .. ولو ادى الامر الى اتهام العالم كله والتاريخ الانسانى كله بأقسى الاتهامات

ولكن هذا هو ماجمح اليه جان بول سارتر بالضبط .. فى هذا الكتاب الذى سوف أحاول أن أعرض بعض ماجاء فيه بعد استطراد قليل من هذه المقدمة ..

***

ونحن العرب قد وجدنا انفسنا ـ من حيث لانريد ـ طرفا فى كل ماله صلة باليهود .. بما فى ذلك حكاية « معاداة السامية » . ذلك أن اليهود ، الذين واجهوا على يد المجتمعات الاوربية اضطهادا طويلا ، وصل الى قمته فى غرف الغاز التى أقامها هتلر لاعدام الجنس اليهودى .. هؤلاء اليهود وجدوا أن حل قضيتهم الوحيد هو فى أن ينشئوا مدرسة للتعصب العنصرى لاتقل عن الهتلرية ، هى الصهيونية . وان تتبلور هذه النزعة العنصرية فى وطن ودولة لهم ينشئونها على أشلاء مليون عربى .. !

هكذا ـ من حيث لانريد ـ وجدنا انفسنا محتاجين الى أن نرهف السمع لكل مايقال عن اليهود او المسألة اليهودية ..

لماذا ؟ ...

هل لاننا نكره أن يدافع المدافعون عن اليهود فى المجتمعات التى ينتمون اليها .. فرنسية أو انجليزية أو امريكية ؟ ..

كلا .. فاننا نؤمن أن اليهودى كالمسلم والمسيحى له حق الحياة فى الوطن الذى ينتمى اليه . بل ان دعوتنا الاساسية ضد اسرائيل تستند الى أن اليهودى يجب

أن يبقى فى الوطن الذى ينتمى اليه .. لا أن يهاجر منه لينشىء دولة عنصرية باغية فوق قطعة من أرضنا

نحن اذن نتمنى لليهودى طيب المقام حيث يكون . لا لأن هذه هى العقيدة الانسانية التى نؤمن بها فحسب، بل لاننا ــ أيضا ــ أصحاب مصلحة فى هذه العقيدة . نحن أصحاب مصلحة فى أن يندثر ــ فعلا ــ التعصب العنصرى بوجه عام ، والتعصب العنصرى ضد اليهود بوجه خاص . لان هذا التعصب العنصرى ، ولو بطريق غير مباشر ، هو الذى خلق اسرائيل . وهذا التعصب العنصرى هو الذى تعمد اسرائيل ــ الآن ــ الى اذكائه ، أو ايهام الناس بوجوده فى كل مكان ، لالقاء الجذوة التى خلقت اسرائيل ..

نحن اذن ــ لهذا كله ــ لانكره أن يدافع المدافعون عن اليهودى فى فرنسا أو بريطانيا أو بولندا أو أمريكا

ولكننا نرهف السمع لهذا الدفاع ، ونشك فى واقعه احيانا ، لسبب هو : أن اسرائيل تتخذه سلاحا لهـــا ضدنا ، وتصطنع منه دخانا يخفى جريمتها العنصرية فى فلسطين !

هنا فقط نتنبه ونشك وننتقد ! لانه يكون هنا ــ على أحسن الفروض ــ من ذلك النوع الذى يقال عنـــه انه « حق يراد به باطل ! »

واسرائيل الآن تقوم « بحركة التفاف » فكرية واسعة فى العـــالم أجمع ! ... انها تحـــاول بالافلام الملونة ، وبمعدات السينما سكوب ، وبالروايات ، والمسرحيات ، وبالكتب العلمية والتاريخية ، وبالمحاكمات .. أن تثقل ضمير العالم كله بالذنب نحو اليهود ! أن تشعر كل فرد وكل دولة وكل دين وكل ملة أنه مسئول عن جزء مما

حل باليهود ! وفى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر اسرائيل به العالم .. تحاول أن تستخلص الضمانات لاسرائيل ، والاموال لاسرائيل ، والاعداء للعرب بوصفهم الخصوم الجدد لليهود ! .. فى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر به اسرائيل العالم تحاول ان تقنع هذا العالم بأن يغفر لها ذنبها ، وأن يرى فى طرد مليون عربى نوعا من التعويض المعقول لها !

ويجب أن نعترف بأن اسرائيل قد نجحت — فى أماكن كثيرة من العالم — فى خلق هذا الشعور ! وجان بول سارتر نفسه — فى هذا الكتاب الذى اعرض له ؛ يقول ان بعض المتحررين لايرون فى اليهود الا مجرد موضوع يثبتون به تحررهم ! فالواحد منهم يتحمس فى الدفاع عن اليهود لا لاحساس باطنى قوى بالحاجة الى هذا الدفاع ، ولكن ليقول للعالم أنه متحرر !

واننى لاخشى ، أن يكون جان بول سارتر نفسه ، قد وقع فى هذه الفلطة ، وفاق كل المتطرفين فى الدفاع عن اليهود لهذا السبب .. من حيث يدرى أو من حيث لايدرى ! ..

أن العنوان الكامل لهذا الكتاب — ١٥٢ صفحة — هو « عدو السامية .. واليهودى ! » ...

وسارتر فى هذا الكتاب يشرح لنا — أولا — نظريته الفلسفية فى « الانسان » ليقيم على أساسها تبريره المطلق لكل مايصدر عن اليهود ! ..

ونظريته فى (الانسان) — فى محاولة للتبسيط الشديد — هى أنه لايوجد شىء اسمه «الطبيعة الانسانية». أى أن الانسان لاتتحدد صفاته وأخلاقه ونزعاته بمجرد مولده .. ولكن يوجد شىء اسمه « انسان فى موقف »

... بمعنى أن « الموقف » الذى يوجد فيه الانسان هو الذى يحدد ويصنع طبيعة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية .. الى آخره . فالانسان لايمكن تمييزه أو فصله عن « الموقف » الذى يوجد فيه

والناس المتشابهون لايتشابهون بحكم « طبيعة » واحدة ولدوا بها ولكنهم يتشابهون بحكم تشابه «الموقف» أو « الحالة » التى يوجدون فيها . فما يجمع بين فئة من الناس هو وحدة « الموقف » وليس وحدة الطبيعة البشرية ..

والنتيجة التى يرتبها سارتر على هذا هى : أنه لايوجد شىء اسمه « جنس » يهودى واحد له «طبيعة» واحدة . فالواقع ، كما يقول ، ان هناك « أجناسا » يهودية متعددة ، فالفرق بين اليهودى الروسى مثلا واليهودى اليمنى شاسع جدا كالفرق بين أى روسى وأى يمنى !

فوحدة الجنس اذن ليست هى التى تجمع بين يهود العالم ..

هل هى وحدة التراث والتاريخ ؟

فى رأى سارتر : لا ! فتاريخ وطن اسرائيل القديم قد انقطع واندثر منذ ألفى سنة . فيهود العالم فى الواقع لا يجمعهم تاريخ واحد ولا عاطفة قومية واحدة

اذن .. هل تكون وحدة الدين ؟

كلا أيضا ! فالناس من أديان كثيرة يعيشون متفرقين فى أنحاء الارض دون أن تكون بينهم هذه « الرابطة » أو « الوحدة » التى نراها بين يهود العالم . ثم ان اليهود المشتتين لهم نظرات مختلفة الى الدين نفسه . وكثير منهم ملحدون فى حقيقة الامر ولكنهم مع ذلك يتمسكون

« بطقـوس » الدين فقط ، لانه يعطيهم احسـاسا « بالانتماء » الى فئة معينة ؛ فالدين بالنسبة لليهود لاقيمة له عندهم « كدين » ولـكن قيمته عنـدهم هى « كرمز » فقط

ويخلص سارتر من هذا الى أن الشيء الحقيقي الذى يربط بين يهود العالم هو « موقفهم » ! هو موقف كل المجتمعات منهم .. ونظرة العالم اليهم !

وامضى خطوة اخرى مع منطق جان بول سارتر .. كي تكتمل فكرته أمام القارىء

ان اليهودى ــ فى راى سارتر ــ يولد كما يولد اى مخلوق على سطح الارض .. ولكنه حين يشب يجـد نفسه فى « موقف » مختلف عن الآخرين : يجد أن الناس ينظرون اليه كيهودى .. وان الدنيا تعامله كيهودى .. هو وكل يهودى مثله ..

انه يولد وحوله جو من الاستعباد والاشمئزاز والنفور والكراهية !

انه يولد ليجد نفسه فى موقف « الملعون » . واذا به يكتسب ، بالتالى ، الصفات المادية والمعنوية والسياسية والاقتصادية التى تترتب على هذا « الموقف » ..

انه يولد ولديه القابلية الطبيعية لكى يكون مواطنـا مندمجا فى الوطن .. فرنسيا فى فرنسا ، وانجليزيا فى بريطانيا .. ولكن المواطنين هم الذين يأبون عليـه أن يندمج .. فلا يجد مفرا من أن يظل « يهوديا » .. وأن تظل اليهودية صفة تميزه وتفصـله عن الآخرين .. ويصبح بالتالى « غير قابل » للانتماء الى الوطن ــ اى وطن ــ والاندماج فيه

ولما كان اليهودى ــ أيا كان المكان الذى يولد فيه ــ..

يواجه هذا « الموقف » ... فان هذا « الموقف الواحد » بالتالى يوحد بين جميع اليهود فى العالم .. ويخلق بينهم هذه الرابطة التى نعرفها .. والتى مصدرها هو هذا الموقف « المنبوذ » وليس مصدرها وحدة الدين ولا وحدة الجنس ولا وحدة التاريخ ! ..

وأقدم تهمة وضعت اليهود فى هذا الوضع المنبوذ من العالم المسيحى ، هو اتهام المسيحيين لهم بانهم قتلوا المسيح .. ولذلك فكل مسيحى أوربى يشب وهو ينظر الى اليهود على أنهم قتلة أحفاد قتلة ! ..

والفكرة التى يبنى عليها سارتر نظريته - الى الآن - معقولة الى حد بعيد . ان الذى يجمع اليهود ليس الاصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد . وهذا احد الادلة التى نسوقها لنقول انه لا حق لهم فى الوطن الذى اغتصبوه فى فلسطين . انما الذى يجمعهم هو وحدة « الموقف » .. موقف « النبذ » و « الابعاد » الذى يواجهونه فى أوربا بالذات

ولكن سارتر بالغ كثيرا فى ترتيب النتائج على هذه الفكرة . فذهب الى أقصى الحدود فى القاء مسئولية هذا « النبذ » على المجتمعات التى ينشأ فيها اليهود . أى على العالم كله .. فى حين لم يفكر لحظة واحدة فى أن يكون اليهود أنفسهم مسئولين - ولو الى حد ما - عن هذا النبذ الذى يعيشون فيه

ومنذ ذلك الوقت والمجتمعات المسيحية فى أوربا ترفض أن ينتمى اليهود اليها أو يندمجوا فيها - قوميا او اجتماعيا - لقد اختارت أوربا لهم مركز « الملعون » فلم يكن امامهم مفر من أن يسلكوا سلوك الملعون . كان محرما عليهم ان يمتلكوا الارض أو أن يخدموا فى الجيش .. فلم يكن امامهم مفر من أن يركزوا حياتهم على النقود .

وبتركيزهم المطلق على النقود تعززت اللعنة الاولى عليهم بلعنة جديدة اقتصـادية . واليوم يتهم العـالم اليهود بانهم لايعملون ابدا فى اعمال انتاجية كالزراعة أو الصناعة أو العمل اليدوى ولكنهم يعملون فى مهنة النقود .. فان السبب فى رأى سارتر هو أن أوربا المسيحية أبت عليهم ان ينتموا الى الوطن انتماء عاديا وابت عليهم ممارسـة أى مهنة أخرى

***

ويستطرد سارتر استطرادا ذكيا فى تحليل حب اليهود المشهور للفلوس ، وتفرغهم للعمـل فى الاوراق الماليـة والبنوك والمضاربات وما الى ذلك فيقـول : ان الذى يجذب اليهودى الى الفلوس ليس حب الفضة أو الذهب فى حد ذاته ، ولكن الذى يجذبه فى الفلوس هو : قوتها الشرائية أو « قدرتها على الشراء » .. الفلوس لا جنسية لها . ولا قومية ولا تراث . انها لغة عالمية .. قوتهـا مستقلة عن قوة القيم الاخرى التى يجد اليهودى نفسه محروما منها . « ثمن » أى شىء لايتوقف على شخصية ولا جنسية ولا دين المشترى . المشترى هو الذى يملك الرقم المكتوب فى خانة السـعر . فاذا دفع الثمن فانه يصبح المالك القانونى للشىء . فالتملك بالشراء لغة عالمية لا تحتاج الا الى الفلوس . فى الآداب المحلية نقرأ دائمـا ان هناك اشياء كثيرة ليس لها ثمن .. لا تباع ولا تشترى كالشرف والحب والفضيلة والذوق .. الى آخره ، وهذا فى رأى سارتر اسلوب لاستبعاد اليهودى وحرمانه من نيل هذه الاشياء . ولكن هذا فى حد ذاته هو الذى يجعل اليهودى حريصا على أن يثبت أن كل هذه الاشياء يمكن شراؤها ، وأن الفلوس بالتالى هى أهم شىء . انه لايؤمن بأن اى شىء له « قيمـة » ولـكن كل شىء له

« ثمن » . ان « القيمة » لها معايير كثيرة غير الفلوس .. ترجع الى التراث مثلا أو الانتماء الى أصل معين أو حضارة معينة .. أو أو .. الى آخر هذه الاشياء التى يجد اليهودى نفسه محروما منها ، فهو لذلك يحاول الغاء فكرة « القيمة » التى لايستطيع أن يشارك فيها لتحل محلها فكرة « الثمن » .. أى الفلوس .. الشىء الذى يستطيع أن يمتلكه ويشارك فيه

« القيمة » شىء اجتماعى . فما ليس له قيمة فى مجتمع قد تكون له قيمة كبيرة فى مجتمع آخر . واليهودى منبوذ من كل مجتمع ، لذلك فهو يفضل الغاء فكرة « القيمة » التى لايستطيع أن يشارك فيها ، ويحل محلها فكرة « الثمن »

فلهفة اليهودى على الفلوس .. وعدم اعترافه بأى قيمة الا بالفلوس وبفكرة الثمن .. ليس مصدرهما خسة طبيعية فيه . ولكنهما «رد فعل» لحرمان المجتمع له من المشاركة فى القيم الخاصة بهذا المجتمع

يضاف الى ذلك أن اليهودى دائما قلق فى أعماقه . انه لايطمئن أبدا الى استمرار ملكيته لاى شىء . انه لايستطيع أن يثق فى أن مركزه أو ممتلكاته أو قوته فى المجتمع الذى يعيش فيه يمكن أن تستمر غدا .. تاريخه عبارة عن عشرين قرنا من التيه والتجوال .. انه مستعد فى أى لحظة لان يحمل عصاه على كاهله ويرحل . انه لايمكن أن يستشعر فعلا استقرار « الآرى » الذى لايمكن مناقشة التصاقه بأرضه وانتمائه لوطنه ، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها فى بلاده

على هذا النحو يمضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى اصبحت لاصقة بشخصية « اليهودى » فى الذهن

العام ، مبررا لها جميعا بانها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الاوربية ، والقوميات الاوربية لليهود خلال ٢٠٠٠ سنة مستمرة من الزمان . حتى حين يقول الواحد « يهودية حسناء » يجد أن للكلمة وقعا يختلف عن وقع قوله « أمريكية حسناء » أو « يونانية حسناء » مثلا . ان كلمة « يهودية حسناء » فيها نوع من لذة الاستباحة والاغتصاب ! اليهودية الحسناء هى تلك التى جرها فرسان القوزاق من شعرها فى شوارع القرى المحترقة . اليهودية الحسناء فى الفولكلور - الادب الشعبى - الاوربى هى المقهورة المغتصبة أو الذليلة فى حب أوربى لايهتم لها كثيرا ، وسوف يتزوج آخر الامر من أوربية مثله . وفى بعض القصص الشعبية حين تموت اليهودية فى سبيل حبها اليائس لاتقدم القصة موتها على أنه استشهاد ، بل على انه نوع من العدل ! »

« واليهودي فى فرنسا مثلا قد يصل الى أعلى الدرجات ، ويحقق أكبر قدر من الثراء ، ولكن المجتمع رغم ذلك يأبى عليه أن يلتحق التحاقا حقيقيا حتى ولو « قبل وجوده » فى كل مكان . انه قد يصبح وزيرا . ولكن الناس لايذكرونه فيقولون انه « وزير » بل انه « وزير يهودى »

وكما يرسم جان بول سارتر صورة اليهودى التى خلقها المجتمع الاوربى .. يرسم صورة « عدو السامية » .. وهو ليس المواطن الاوربى العادى ، ولا حتى الذى يقف من اليهودى هذا الموقف ، بل هو ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود

يقول سارتر ان أعداء السامية ودعاة التعصب العنصرى ليسوا عادة من الاذكياء او المتفوقين بأى صورة من صور

التفوق . اى ليسوا من « النخبة » فى أى مجتمــع . ولكنهم من « العاديين تماما » أو الاقل من العاديين !

واغلب الدعوات العنيفة ضد السامية نشات وترعرعت بين ابناء الطبقة المتوسطة الصغيرة التى لايملك افرادها شيئا .. فبمجرد تعصبهم يشعرون فجاة بانهم يمتلكون شيئا . فالطبقة المتوسطة الصغيرة التى لاتملك الا قليلا فى المانيا كانت هى نواة دعوة معاداة السامية ، انها عاجزة ازاء « اليونكرز » وكبار الصناعيين الذين يملكون كل شىء فى المانيا ، وهى فى نفس الوقت لاتقبل الاعتراف بانهــا لاتملك شيئا كالبروليتاريا ، لهذا أقبلت على دعوة معاداة السامية لانها تعطيها احساسا بالامتــلاك وبالتميز ازاء فئة أخرى ، هى اليهود ، تريد أن تسرق منها ماتملك .. وهو الوطن !

ويقول جان بول سارتر ان اليهودى .. ازاء هــــذا «الموقف» الذى يجد نفسه فيه .. يختار أحد موقفين .. فريق يحاول ان يتنصل من يهوديته .. وأن يتهرب منها .. وان يتستر عليها .. اى يحاول بوجه عام تخفيف وقع المقاطعة الموجهة ضده .. فهو انسان فى حالة هرب دائما من نفسه ومن وضعه ...

وفريق ثان .. يكون رد فعله عكسيا . انه يقبل اتهام العالم كله ، ويعامل العالم على هذا الاساس ، ومن هذا الفريق الثانى خرج ــ فى رأى سارتر ــ أولئك الذين دعوا الى اقامة وطن يهودى ودولة يهودية ، على أساس أن تأكيد الذات اليهودية والوجود اليهودى ، والرد على النفى الاجتماعى فى أنحاء العالم لايكون الا باقامة دولة تكون لها أرض وقومية ووجود ينتمى اليه

ثم يقول : ان اقامة دولة يهودية قد تحل مشــــكلة اليهود الذين يسكنون فى تلك الدولة . ولكنها لاتحل

مشكلة اليهود الذين يفضلون البقاء فى أوطانهم ، بل انها تزيد من تعقيد موقفهم . ذلك أن قيام هذه الدولة هو دليل آخر يبرهن على مايقوله خصومهم من أنهم لايحبون الانتماء الى الاوطان التى يعيشون فيها أصلا

وهو يتنبأ بأزمة شديدة بين اليهود المهاجرين الى اسرائيل من جهة .. واليهود الباقين فى أرض آبائهم وأجدادهم . فرنسا أو غير فرنسا من جهة اخرى !

الى هنا .. واعتقد اننى أعطيت وجهة نظر سارتر فى الموضوع فرصة كافية فى حدود هذه المساحة ، وقد آن أن نتأمل كلامه معا فى سطور قليلة ..

ان الملاحظة البارزة على هذا الكتاب هى أن سارتر كتبه بلهجة المحامى ، فبالرغم من أن فيه أشياء كثيرة صحيحة وعلى درجة كبيرة من ذكاء التحليل .. فان الكتاب كله مكتوب بلهجة المحامى الموكل للدفاع عن قضية معينة . فهو يشعر أن من واجبه تبرير كل شيء . والدفاع عن كل شيء . ونفى كل مسئولية — صغيرة أو كبيرة — عن موكله !

ونحن — كما سبق أن قلت — لسنا أعداء للسامية ولا أعداء لليهود كجنس أو كدين . بل ولانختلف فى هذه الناحية عن أى رأى قال به سارتر ولكن المرء حين يفصل فى قضايا نفسية وتاريخية واجتماعية عمرها ۲۰۰۰ سنة ، لايمكن أن يلقى كل المسئولية على طرف واحد دون طرف وهو مطمئن الضمير . ولقد بالغ سارتر فى نفى أى مسئولية عن اليهود الى درجة انه كاد يكون « عنصريا » بمعنى آخر ! فكما أن كراهية عنصر معين هو اتجاه عنصرى ، كذلك فان نسبة فضيلة الصواب المطلق الى عنصر معين هى ايضا نزعة عنصرية !

ان سارتر حين يعيد ويزيد ويؤكد ان اليهود يحاولون دائما الاندماج والذوبان فى كل مجتمع يعيشون فيه ، ولكن المجتمعات العالمية هى التى ترفض ذلك ، وهى التى تصر على ابقائهم منفصلين .. انما يتجاهل فى الواقع محاولات كثيرة جرت لامتصاص اليهود فى مجتمعات كثيرة ، ويتجاهل أن اضطهاد اليهود اذا كان قد حدث فى مناسبات كثيرة الا انه لم يكن أبدا القاعدة المستمرة فى التاريخ

وفى بلاد كالبلاد الشيوعية ، تم فيها الغاء الدين بصفة رسمية وبالتالى تم فيها الغاء الدين كعنصر تمييز بين مواطن ومواطن ،وانفتحت بذلك فرصة ضخمةلليهود لكى يصبحوا على الزمن جزءالايتجزأ من البلدالذى يعيشون فيه.. لم يغير هذا من الحقيقةفى شىء، وظلت المشكلةاليهودية قائمة بنحو أو بآخر .. بمعنى أنه ظلت الرابطة اليهودية المنفصلة عن الرابطة القومية العامة فى تلك البلاد قائمة . وآية ذلك محاولات اليهود فى تلك البلاد من أجل الهجرة الى اسرائيل . بالرغم من أن كثيرين جدا من هؤلاء الراغبين فى الهجرة هم فى الواقع ملحدون ، كما يقول سارتر نفسه فى ملاحظته عن اليهود الاوربيين

انهم هنا يهربون من هذا « الاندماج » الذى يقول سارتر انهم يطلبونه !

ولايمكن القول بانهم يهربون من نظام اقتصادى لايحبونه مثلا .. لانه لايحدث أبدا أن تهرب « فئة بأكملها » من وطنها ، اذا كانت تحس بالانتماء الى هذا الوطن بالمعنى الذى يفهمه اى مواطن فى اى وطن لمجرد اعتراضها على النظام الاقتصادى

وقد ركز سارتر حديثه خلال صفحات طوال عن

اشتراك اليهود الفرنسيين فى المقاومة السرية ضد النازى وضد الاحتلال الالمانى . واشاد طويلا ببطولتهم وقال مامعناه انهم بهذا دفعوا اعظم ضريبة يمكن أن يدفعها أى فرنسى

ولكن هذا المثل لايصلح دليلا مطلقا على رغبتهم فى الاندماج والانتماء المطلق الى المجتمع الذى يعيشون فيه . والسبب هو أن العدوان النازى لم يكن موجها ضد « فرنسا » وحدها ، انما كان موجها أيضا ضد « اليهود » بالذات . كان هتلر يهدد اليهود أكثر مما يهدد فرنسا .. فهم هنا أمام خصم للطائفة لا مجرد خصم للوطن . ولهذا فهم قد حاربوا هتلر كيهود قبل ان يحاربوه كفرنسيين . حاربوا حرب الدفاع عن بقاء اليهود لا حرب الدفاع عن عظمة فرنسا مثلا !

والدليل على ذلك ان هناك امثلة كثيرة تدل على أن اليهود فى هذا الوطن أو ذاك لم يكونوا يختارون دائما الانتماء الى الوطن فى ساعات مجد الوطن وساعات ذله على السواء ، وهو الانتماء الحقيقى . انما كانوا كثيرا مايعتبرون أنفسهم كتلة خارج دائرة الوطن ، لها حرية اختيار الوطن وتغييره وفق المصلحة التى يرونها ..

سارتر نفسه يشير الى الثورة الوطنية البولندية التى نشبت فى القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الروسى . وكيف أن يهود وارسو برفضهم الانضمام الى الثورة كانوا يهدفون الى تحقيق مركز ممتاز لانفسهم عن طريق موالاة المغتصب الروسى

وسارتر يقول ان قيصر روسيا كان يضطهد يهود روسيا فى نفس الوقت الذى كان يمالىء فيه يهود بولندا ويمنحهم الامتيازات . وأن السبب هو أن القيصر

اعتبرهم فئة منفصلة عن الوطن فى الحالتين . فالفئة المنفصلة فى وطنه هى خطر على وطنه ولذلك يضطهدهم . والفئة المنفصلة فى وطن بولندا تفيد سياسته ضد بولندا فهو لهذا يمالئهم !

ولكن هل دفاع سارتر هذا يبرىء اليهود ـ تماما ـ من مسئولية الموقف ؟

واذا فرضنا ان موقف الاضطهاد داخل روسيا كان « مفروضا » عليهم ولا حيلة لهم فيه .. فهل موقف ممالأة المستعمر فى بولندا ايضا كان مفروضا عليهم ولا حيلة لهم فيه ؟!

بالطبع .. لا ! ..

مثل آخر اضربه لا لان له دلالة خاصة ، ولكن لانه كان محل جدل بالذات ، هو : اليهود فى الجزائر ! ..

أن اليهود الجزائريين من سكان البلاد الاصليين . ومنذ الاحتلال الفرنسى للجزائر على الاقل يمكن القول ان حظهم وحظ أبناء سائر الاديان كان واحدا . فلا يعقل ان يضطهدهم الجزائريون وهم انفسهم مضطهدون . ولكن اليهود هناك وجدوا الفرصة المناسبة بعد الاحتلال لكن يختاروا الجنسية الفرنسية وينضموا بكل كيانهم الى الكيان الطارىء على الجزائر ، صاحب الامتيازات ويتخلصوا من جلدهم الجزائرى القديم وكان هذا قبل أن تقرر فرنسا اعطاء الجنسية الفرنسية لكل سكان الجزائر بعشرات من السنين .. وبعد مرور حقبة طويلة ، وبعد اشتعال النار تحت بوتقة الثورة الجزائرية ، اصبح اليهود الجزائريون جزءا من الاوروبيين ومن مشكلة الاوروبيين

ليس صحيحا اذن هذا الموقف الذى يتخذه سارتر .. من طلب البراءة التامة لكل المجتمعات اليهودية فى كل زمان ومكان .. وطلب الادانة الكاملة لكل المجتمعات الانسانية الاخرى فى كل زمان ومكان ! ...

وكما أن المحامى الذكى يعمد عادة الى اخفاء واهمال نقط الضعف فى موقف موكله ، كذلك فان سارتر يمر مرور الكرام على نقط الضعف الاساسية فى موقف اليهود اليوم ..

ان الكتاب ـ مثلا ـ مشحون بطاقة هائلة ضد أى اتجاه عنصرى . فماذا عن الدعوة العنصرية فى داخل المجتمع اليهودى .. وهى الدعوة الصهيونية ؟

لاشىء !

بالرغم من أن سارتر أشبع كل شىء يتصل بالمسألة اليهودية عرضا وتحليلا فانه لم يذكر الصهيونية الا فى سطور تعد على أصابع اليد الواحدة ! ..

رغم أن الصهيونية كدعوة كان عمرها أكثر من نصف قرن عندما كتب هذا الكتاب !

رغم أن الصهيونية ـ كدعوة عنصرية ـ أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين !..

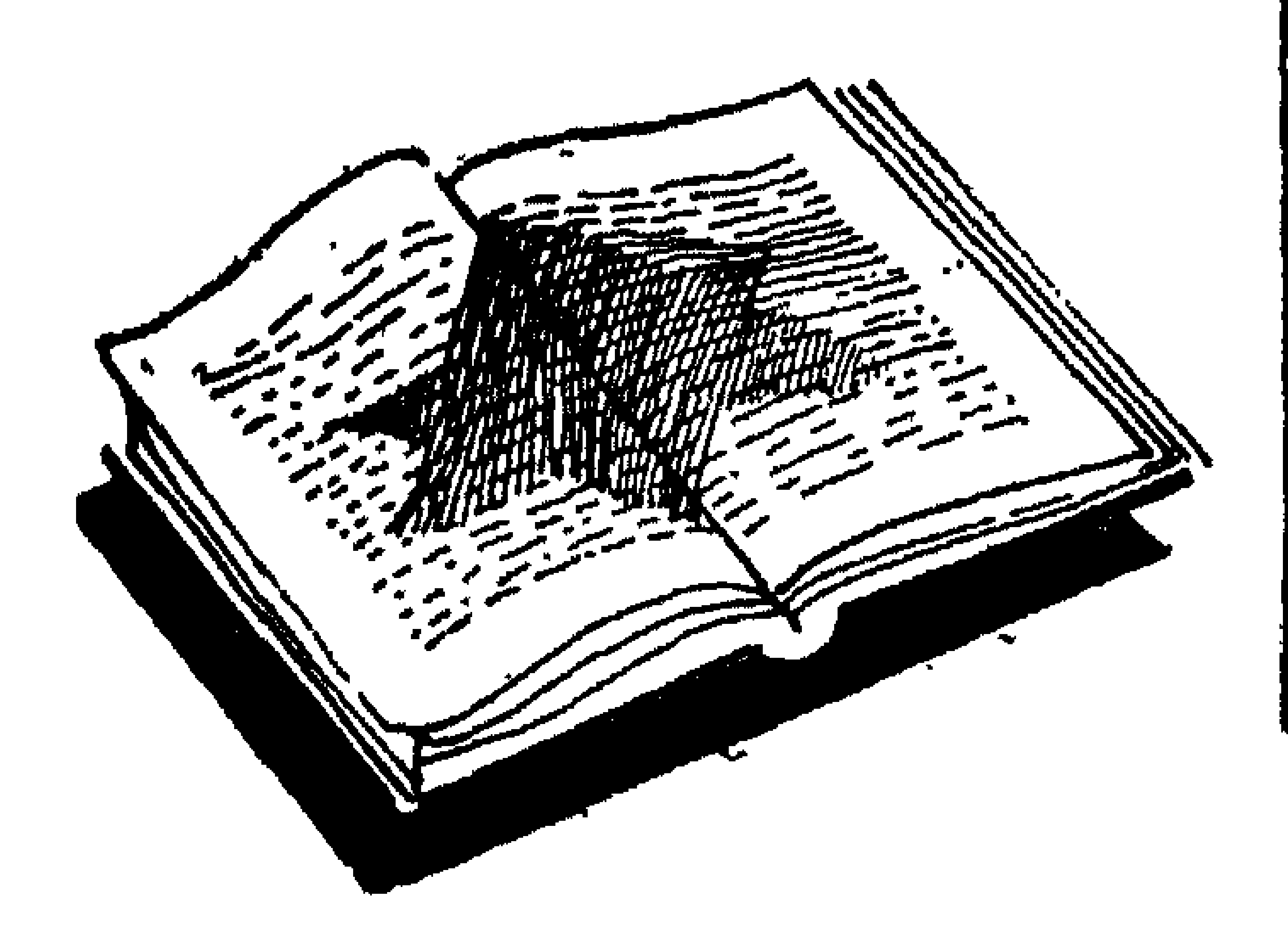
لانه لو وضع الصهيونية فى مكانها المناسب من الاهمية ، فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيلة التى يصوبها فى كتابه الى النزعات العنصرية والى كل أنواع التعصب

ومن المؤكد أن أى دراسة للمسألة اليهودية الان لاتهتم بالدعوة الصهيونية فكريا وسياسيا وتاريخيا .. تكون دراسة ناقصة ومتحيزة الى حد كبير ! ..

الفصل السادس

مذكرات بن جوريون

قصة الحركة الصهيونية، كما يرويها بن جوريون، من إلقاء الخطب المتفرقة في القرى اليهودية الروسية سنة ١٩٠٠ إلى تأسيس أول مستعمرات يهودية في فلسطين، إلى حرب السويس!



من الصفحات الاولى لهذه المذكرات ، يلاحظ القارىء أن بن جوريون لم يحاول قط ان يكتب فى هذا الكتاب كمؤرخ ولا حتى كسياسى متقاعد ، ولكنه كتبه كسياسى مازالت عينه على المسرح ، ينتظر الساعة التى يعود فيها الى الظهور : اى انه كتب فقط ما يناسب مواقفه السياسية والمستقبلة ...

والحقائق التى اخفاها بن جوريون ــ بالطبع ــ اهم من الحقائق التى ذكرها ..

ومع ذلك ، فماذا يقول بن جوريون فى مذكراته التى ظهرت منذ شهور ؟

يقول دافيد بن جوريون :

« منذ آلاف السنين ورغبة اليهود فى العودة الى أرض اسرائيل لا تموت . وأحيانا كانت هذه الرغبة تتعدى مجرد رغبة العودة الى الرغبة فى زراعة الارض ذاتها : ففى سنة ١٥٩٣ ، جاء « دون جوزيف ناسى » مع اتباعه من اسبانيا الى فلسطين ، حيث أقام اول مستعمرة زراعية فى الجليل ، على شاطىء بحيرة طبريا

ومنذ اكثر من مائة سنة حاول مليونير انجليزى يهودى، اسمه السير « موسى مونتفيور » ، أن يقنع اليهود المتوطنين فى فلسطين بأن يتحولوا الى فلاحين ، ومن أجل هذا

الهدف : اقيمت أول « بيارة » يهودية من « بيارات » البرتقال ، بالقرب من يافا ، سنة ١٨٥٦

وبعد ثلاثين سنة أسست منظمة يهودية فرنسية ، اسمها التحالف الاسرائيلى العالمى ، اول مدرسة زراعية فى فلسطين ..

وفى سنة ١٨٧٨ ، اسس يهودى من القدس أول قرية يهودية كاملة سماها « بتاح تكفاه » Petah Tikva أى : باب الامل !

ثم بدأت الهجرة ، مع التحول الى زراعة الارض بالذات تتوالى : موجات فقيرة تأتى من روسيا وشرق اوربا بوجه عام ، واموال تأتى من غرب أوربا ، برز من بين دافعيها اسم البارون « ادمون دى روتشيلد » رجل العائلة المالية الشهيرة ، التى كانت تمول أغنى حكومات أوربا كما تمول اقسى حروبها : نفس العائلة التى مولت شراء انجلترا لاسهم قناة السويس التى كانت تملكها مصر ، على يد « الخديو اسماعيل »

وفى سنة ١٨٩٦ ، اصدر صحفى ومؤلف مسرحى يهودى اسمه « تيودور هرتزل » كتابا صغيرا ، أطلق عليه اسما غريب الوقع فى ذلك الوقت وهو بالالمانية Der judenstaat أى « الدولة اليهودية »

كان هرتزل قد ارسلته صحيفة نمسوية الى باريس ليبعث اليها بتفاصيل محاكمة الضابط الفرنسى اليهودى « دريفوس » ، فتأثر بما وجد من نزعة الى معاداة السامية فى هذه المحاكمة ، فالف هذا الكتاب

ومن يوم صدور هذا الكتاب الصغير ، ولدت الحركة الصهيونية العالمية ، التى وضعت نصب عينيها اقامة دولة يهودية

ولم تحدد الحركة الصهيونية مكان هـــذه الدولة ، فى البدء ، بفلسطين . انما كانت مستعدة لقبول اى مكان يمكنها أن تقيم فيه الدولة الحلم

هكذا ذهبوا فى البداية الى الخليفة التركى العثمـانى ليعطيهم مكانا ما فى الشرق الادنى ولكنه رفض . وفى سنة ١٩٠٢ تحولوا الى القوة الجديدة البازغة ، انجلترا ، لكى تسمح لهم باقامة هذه الدولة فى العريش وما حولها من صحراء سيناء ولكن ندرة الماء فى تلك المنطقة من جهـــة ومعارضة لورد كرومر الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت من جهة اخرى ، أجهز على الفكرة ، ثم جـــاء جوزيف تشيمبرلن وزير المستعمرات البريطـــانى وعـرض على الصهيونية ان تقيم وطنها فى اوغندا ، وهو الاقتراح الذى قسم الحركة الصهيونية وقتذاك الى قسمين : قسم يقبل العرض وقسم لا يقبله

عند هذه النقطة يقول بن جوريون فى كتـــــابه « اسرائيل : سنوات التحدى » .. « ان الثورة الروسية قامت سنة ١٩٠٥ ثم تمكن القيصر من قمعها » . ويعترف بن جوريون ان هذه الثورة التحررية لو نجحت لادت الى رفع الاضطهاد عن اليهود الروس ، ولأثرت بالتالى على اقبال اليهود الروس على الهجرة ، ولكن الثورة اخمدت . وسيطر الحكم المظلم من جديد . فبدأت موجة من الهجرة الى فلسطين عرفت باسم « الهجرة الثانية » بعد ان اطلق اسم الهجرة الاولى على الموجة التى أقامت اول مستعمرات زراعية فى فلسطين سنة ١٨٨٢ . وقد كان بن جوريون من مهاجرى هذه « الموجة الثانية »

فقد ولد بن جوريون ، كما يقول فى ١٦ ديسمبر سنة

١٨٨٦ ، فى مدينة بولندية صغيرة اسمها « بلونيسك » كانت فى ذلك الوقت جزءا من روسيا القيصرية . كان ابوه محاميا . وكان بيته مقرا لنشاط يهودى كبير . فلم يلبث دافيد بن جوريون ان أصبح واحدا ممن يشتركون فى الجمعيات اليهودية ويعملون فيها بنشاط كبير

وفى سنة ١٩٠٦ ، وجد ان القاء الخطب فى القرى الروسية لا يكفى ، فقرر ان يهاجر الى فلسطين : وفى ذلك الصيف ركب مع بعض اليهود الروس باخرة روسية عبرت بهم الى البحر المتوسط ، بعد ان حصلوا على تصريح تركى بالاقامة فى فلسطين مدة ثلاثة شهور ، وبعد أسبوعين فى البحر رست سفينتهم فى يافا

ويقول بن جوريون ان امله خاب حين وجد اليهود الموجودين فى فلسطين يعيشون حياة « الافندية » على حد تعبيره : يحصلون على ايراداتهم من تأجير الارض للغير او من المهن الاخرى التى « فرضت على اليهود » يقصد الربا والسمسرة وشتى أعمال المال

***

كان واضحا له ان مثل هذه الحياة لا تخلق شعبا ملتصقا بالارض « فبين الارض والشعب ، لابد أن تقوم رابطة من العمل »

وبهذا الاتجاه الى العمل ، لا الى خلق « طبقة عليا من اليهود » ، بدأ اليهود يغرسون أول جذور لهم فى فلسطين بالعمل اليدوى المباشر فى كل مهنة ، وباحياء اللغة العبرية ، واقامة مدارسها ، وتثبيتها فى الحياة العامة قدر الامكان: الى هذا العمل بالذات ، يرجع بن جوريون بدء ميلاد دولة اسرائيل

وكان بن جوريون من بين اولئك الذين عملوا فى زراعة

البرتقال، والعنب، وصناعة النبيذ، ويقول : انه بينما كان يسير وراء المحراث في الحقل ، كان يهتم بما تحقق بعـــد ذلك من اقامة الدولة : بينما كانت موجة الهجرة الثانيــة مستمرة ، من الشباب الذين يندفعون وينتشرون فى حقول العمل اليدوى بالذات

وكما تعلموا زراعة الارض ، بدأوا يتعلمون الدفاع عنها: بدأوا يكونون جماعات سرية مسلحة مدربة على القتـال حملت من ذلك الوقت اسم « الهاجاناه »

ولما كانت البلاد التي يحدث فيها كل هذا تابعة فى ذلك الوقت للدولة العثمانية ، واليها سوف يتجه عمل اليهود لكسب مزيد من الحقوق ، فقد قرر بن جوريون ، وزميل آخر له أسمه «أسحق بن زفى» الذى أصبح بعد ذلك ثانى رئيس لدولة اسرائيل بعد وفاة « وايزمان » ، قرر الاثنان السفر الى القسطنطينية لدراسة اللغة التركية والقانون التركى

***

وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضع حدا لدراستهما ، فعادا الى القدس . وهناك اعتقلتهما السلطات التركيـــة بتهمة التآمر ضدها ثم طردتهما من البلاد فذهبـــا الى الاسكندرية . وفى الاسكندرية نظر الانجليز اليهما ايضـــا نظرة شك وارتياب بسبب قدومهما من المناطق التركية ، فاعطوهما تأشيرة دخول الى امريكا ، وأرسلوهمـــا الى الولايات المتحدة الامريكية

وصل بن جوريون وبن زفى الى نيويورك سنة ١٩١٥ . فبدءا على الفور الاتصال بالمنظمات اليهودية هناك . وكانت دعوتهما هى : اقناع الشباب الصهيونى بدراسة الزراعة وتعلمها لكى يصبحوا قادرين على الهجرة والزراعـــة فى

فلسطين بعد الحرب . كذلك بدأت الحركة الصهيونيةتدعو الى تكوين فصيلة يهودية تحارب مع قوات الحلفاء وتدخل معهم فلسطين بعد طرد الاتراك بمساعدة القاضي برندايس الذى اصبح عضوا فى المحكمة الاتحادية العليا الامريكية بعد ذلك . ولكن الفكرة نجحت فى انجلترا وليس فى امريكا . وبالفعل تكونت هذه الفصائل وانضمت الى جيوش «اللورد اللنبى » التى اقتحمت فلسطين ولم يشر بن جوريون الى الثورة العربية التى قامت قبل ذلك ضـــد الاتراك والتى سهلت مهمة اللنبى الى حد بعيد : فاغلب الظن ان ســـعى اليهود الى المساهمة فى المجهود الحربى للحلفاء كان توجسا من مجهود العرب الحربى وردا عليه

وفى سنة ١٩١٥ ، وعدسير «هنرى ماكماهون» المندوب السامى البريطانى فى مصر الشريف حسين امير مكة بأن انجلترا اذا حررت بلاد العرب من الاتراك فستردهـــا الى العرب وتنصبه ملكا عليها . ورغم ان هذا الوعد لم يشمل فلسطين ، الا ان وايزمان كما يقول بن جوريون انتبه الى ما قد تجره امانى العرب ، فاسرع يعمل على اســتصدار وعد انجليزى باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين من جهة، وعلى الاتفاق مع الشريف حسين من جهة اخرى. وبالفعل، حصل وايزمان على وعد بلفور من انجلترا سنة ١٩١٧ . وفى ٣ يناير ١٩١٩ حصل على اتفاق مع فيصل ابن الشريف حسين امير مكة يعترف فيه بوعد بلفور هذا ويعد بأحسن العلاقات بين الدولة العربية التى ستنشأ فى الشرق وبين « فلسطين » . .

وبعد شهرين من الاتفاق ، عزز فيصل موقفه بخطـاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله الى القاضى الصهيونى الامريكى « فيلكس فرانكفورتر » ، عضو الوفد الصهيونى الى مؤتمر فرساى فى فرنسا

ويقول بن جوريون: ان اتفاقية «فيصل ـ وايزمان» هذه لم يكن لها اى شأن . فالعرب فى فلسطين وفى كل الاقطار المجاورة بما فيها العراق التى اصبح فيصل نفسه ملكا عليها ، رفضوا رفضا باتا ان يعترفوا بهذه الاتفاقية

ويروى بن جوريون انه حضر المؤتمر الصهيونى العالمى سنة ١٩٣٣ على راس وفد «الماباى» وهو حزب العمال اليهودى فى فلسطين ، وكان يمثل أكبر كتلة فى المؤتمر لاول مرة ، فتم انتخاب بن جوريون عضوا فى المجلس التنفيذى للمنطقة الصهيونية والوكالة اليهودية : اذن فقد أصبح بن جوريون زعيما !

ويقول بن جوريون انه كان يرى ان أهم شىء هو الاسراع فى تهجير اكبر عدد ممكن من اليهود الى فلسطين ، ولكنه لم يعد ممكنا فى نفس الوقت تجاهل موقف العرب ، ولذلك فقد حاول ان يجد صيغة توفق بين امال الصهيونية وآمال القومية العربية ، وذلك بالدخول فى مباحثات مع بعض العرب البارزين فى فلسطين ومصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية

« وتمهيدا لمقابلاتى مع العرب ، تحدثت مع المندوب السامى ، الجنرال سير ارثر ووتشوب ، الصديق الوفى للقضية الصهيونية ، وسالته عما اذا كانت الحكومة الانجليزية توافق على اتفاق عربى صهيونى فى هذا الشأن . ورد المندوب السامى البريطانى على قائلا انه لا يعرف رأى حكومته فى هذا الموضوع ولكنه يعتقد شخصيا انها سوف توافق . وقد لعب دكتور يهوذا ماجنس اول رئيس للجامعة العبرية فى القدس دورا كبيرا فى ترتيب مباحثاتى مع العرب ، رغم اختلافى معه حول الكثير من زوايا القضية الصهيونية . وقد اتصلت المباحثات واللقاءات اكثر من سنتين فى فلسطين ، وفى البلاد العربية المجاورة ، وفى جنيف ، مقر

اللجنة الفلسطينية السورية .. ولكنهـــا لم تؤد الى اى نتيجة »

وفى سنة ١٩٣٣ وصل «هتلر» الى الحكم فى المانيا. وبدات موجة جديدة من الهجرة اليهودية الى فلسطين . وبدات مقاومة العرب الفلسطينيين لهذه الهجرة تتخذ شـــكلا عنيفـا ..

***

ووقف بن جوريون فى فبراير سنة ١٩٣٧ فى اجتمـــاع «الهستدروت» ـ اتحادنقابات العمال الصهيونى ـ يقول ان العرب لن يفهموا الا لغة القوة . وان التبـــاحث معهم لايجدى . انما لابد لهم ان يشعروا بأن الصهيونية قوة يحسب لها حساب ، وانها عامل حاسم فى الموقف ، وليست مجرد عنصر ثانوى

وفى نوفمبر ١٩٣٦ ، ارسلت انجلترا لجنة ملكية تحت رئاسة « اللورد بيل » لتبحث موضوع العلاقات العربية اليهودية فى فلسطين . وفى العام التالى نشر التقرير وكان يدعو الى تقسيم فلسطين . ولكنه لم يلبث ان دفن

وفى سنة ١٩٣٩ ، دعت انجلترا الى مؤتمر عربى يهودى انجليزى فى لندن ، هاجم العرب فيه الانتداب البريطـــانى واقتراح التقسيم على السواء . اما موقف انجلترا فقـــد اوضحته فى الكتاب الابيض الذى نشر فى تلك السنة ، وكان يقرر ادخال ٧٥ الف يهودى فى الخمس سنوات التالية . على الا يدخل البلاد اى يهودى اخر بعد ذلك الا بموافقة العرب . وشنت الصهيونية حملة واسعة على هـــذا الكتاب الابيض . وفى مقدمة من هاجموه فى البرلمـــان البريطانى نفسه ، واحد من كبار اصدقاء الحركة الصهيونية:

« ونستون تشرشل » الذى كان يحمل لواء المعارضة ضد رئيس الوزراء « نيفيل تشيمبرلن »

***

ثم انفجرت الحرب العالمية الثانية .. ويحـــاول بن جوريون أن يسجل فى تاريخ هذه الحرب أن العـــرب وقفوا فيها الى جانب هتلر، بينما وقفت الحركة الصهيونية الى جانب الحلفاء • وهو تصوير كاذب وغير صـحيح •• فالحكومات العربية ذاتها كانت موالية للحلفاء بل ومستسلمة لهم .. اما الشعوب العربية فكانت تطلب خروج الجميع من انجليز وفرنسيين والمان من بلادها ، وهـــو موقف اتخذته كثير من القيادات الوطنية فى البلاد الخاضـــعة للاستعمار .. مثل غاندى وحزب المؤتمر فى الهند مثلا . اما الافراد الذين لجأوا الى المانيا فرارا من اضطهاد الانجليز لهم •• فهم لا يعطون الصورة الكاملة عن « موقف العرب »

ومضت الصهيونية خلال الحرب ، تنظم الهجرة الشرعية وغير الشرعية الى فلسطين ، بواسطة الاداة العسكرية التى اسستها الصهيونية منذ ١٩٢٠ باسم الهاجاناه ويعترف بن جوريون هنا ان قوات اليهود العســــكرية ــ الرمزية فى الواقع ــ التى قاتلت الى جانب الحلفاء فى اوربا كانت مهمتها تنظيم وتسهيل هذه الهجرة غير الشرعية . فلما اقتربت قوات روميل من الشرق الادنى اسس الصهيونيون نوعا آخر من القوات العسكرية اسمه « فرق البالماخ » لتقوم بمهمة مقاومة الالمان خلف خطوط القتال فيما لو احتلوا فلسطين

***

وفى خلال هذا كله ، كان همهم الوحيد هو التفكير فى مستقبل فلسطين بعد الحرب

ويقول بن جوريون انه كان واضحاً لهم أن ألمانيا سوف تنهزم حتما في النهاية وتنتصر انجلترا • وقد أصبح رئيس وزراء انجلترا ونستون تشرشل نفسه صـــديق الصهيونية العريق • ولكن كان واضحا لهم أيضا أن انجلترا وان كانت ستخرج منتصرة الا أنها ستخرج أيضا ضعيفة • أما مركز الثقل فهو ينتقل بسرعة الى الولايات المتحدة الامريكية • فالى هناك ، حيث توجد أكبر واغنى جالية يهودية ، يجب أن ينتقل العمل

وهكذا ذهب بن جوريون الى أمريكا منذ سنة ١٩٤٠ ، ليعمل بين المنظمات اليهودية هناك • وفى مايو سنة ١٩٤٢ اتخذ مؤتمر الصهيونيين الامريكيين قرارات عرفت باسم «مقررات بلتيمور» ،نسبة الى الفندق الذى انعقد المؤتمر فيه . وكانت هذه القرارات تقول « ان مشكلة السلام فى العالم لن تحل الا بحل مشكلة تشرد اليهود فى العالم بغير وطن .. وانه لذلك لا بد من منح الوكالة اليهودية سلطة كافية لتحول فلسطين الى « كومنولث يهودى » بعـد الحرب »

وانتهت الحرب • وانقلب الحال فجأة فى انجلترا ، فقد خرج تشرشل من الحكم وجاء حزب العمال • فهل هي صدمة للصهيونية ؟

كلا ••

يقول بن جوريون : « ان حزب العمال كان قد سبق له أن اتخذ خلال الحرب قرارات تدعو الى قيام دولة يهودية ، قرارات فيها ما هو أكثر مما طالبت به الوكالة اليهودية نفسها فى أى وقت ، وخصوصا قرار يقضى باقتـــلاع كل العرب فى الدولة اليهودية ونقلهم الى البـــلاد العربية المجاورة ! »

ولكن المشكلة فى رأى بن جوريون لم تكن فى عـــدم حماسة حزب العمال فى خدمة الصهيونية ، ولكن فى عدم قدرته ·· وعدم قدرة انجلترا بوجه عام ! ·· يضاف الى ذلك أن مجلس الوزراء ليس هو كل شىء فهناك أيضـــا جهاز الدولة وأجهزة المستعمرات ، التى يعتقد بن جوريون أنها كانت قد أصبحت كلها ، منذ صدور الكتاب الابيض، معادية للصهيونية

هكذا أصبح لا مفر من احتمالين : اما الدولة اليهودية ، واما تنفيذ الكتاب الابيض

وهنا يشن بن جوريون حملة على وزير خارجية العمال بالذات ، ارنست بيفن ، الذى كان مسنودا فى رأيه من آتلى رئيس الوزراء · ويقول انه وصل الى الاقتناع بأنه لابد من الاصطدام بانجلترا ، وبعرب فلسطين ، وبالدول العربية المجاورة ·· « والا بقى اليهود أقلية مغلوبة فى بلد عربى ! » ولهذا لا بد للصهيونية من شىء أساسى وهو : القوة !

لا نظير فيما أعرف من كتابات ·· لهذا التبجح !

انه يتحدث عن فلسطين ، كأنهـــــــا بلد خال من السكان !

«انه فى لحظة واحدة يقلب صفحة الحديث عن العدل والانسانية والديموقراطية حين يصل الى النقطة الحاسمة ، ليتحدث عن أشياء أخرى تماما : القوة ! السلاح ! اقتلاع الشعب من مكانه ! تحويل الاغلبية الى أقلية !

يستطرد بن جوريون قائلا : انه كان دائمـــا رئيس المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية دون أن يتولى وزارة بعينها · فلما انشئت وزارة الدفاع لاول مرة سنة ١٩٤٦، تولى الاشراف عليها وهناك بدأ على الفور بدراسة القــوة

الحقيقية لفرق الهاجاناه فوجدها سنة ١٩٤٧ ، كالاتى :

١٠ر٠٧٣	بندقية عادية
١ر٩٠٠	بندقية أوتوماتيكية
١٨٦	مدفع رشاش
٤٢٤	مدفع رشاش خفيف
٦٧٢	مدفع مورتر عيار بوصتين
٩٦	مدفع مورتر عيار ثلاث بوصات

وعلى الفور بدأ العمل لاقامة صناعة أسلحة حربية فى فلسطين ، وفى تهريب المعدات والاسلحة من الخارج • ويقول بن جوريون انها جاءت من أمريكا بالذات التى كانت على وشك تخفيض صناعاتها الحربية بعد أن انتهت الحرب وحين يقول بن جوريون انهم حصلوا بمليون دولار على أسلحة تساوى ملايين كثيرة نفهم أن الامر لم يكن مجرد شطارة ، انما كان ينطوى بغير شك على تسهيلات رسمية غير عادية ••

أما الدول التى رضيت ــ كدول ــ أن تبيع لهم الاسلحة فكانت : تشيكوسلوفاكيا وفرنسا !

وفى تقرير أصدره بن جوريون فى ذلك الوقت لفرق الهاجاناه ، قال ان العدو المقبل هو انجلترا والعرب • ولكن الامر يختلف « فخلافنا مع انجلترا سياسى • واذا لجأنا أحيانا الى أعمال عسكرية ضدها فلمجرد تأكيد موقفنا السياسى » أما ازاء العرب فالمعركة عسكرية • ثم يدعو الى تدريب الهاجاناه بحيث تصبح قادرة على قتال « الدول العربية » لا العرب الفلسطينيين وحدهم

***

وفى مايو سنة ١٩٤٧ ، طرحت قضية فلسطين للمناقشة فى جلسة خاصة للجمعية العامة للامم المتحدة • ولاول مرة

يسمح للوكالة اليهودية بأن تشترك فى الجلسة وكان السؤال الذى يشير الى مفترق الطرق هو : هل هناك علاقة بين مشكلة اليهود فى العالم وبين فلسطين « كما يقـــول الصهيونيون » .. أم أن كلا منهما مشكلة منفصـــــلة ، كما يقول العرب ؟

وأيدت تركيا والهند وأفغانستان رأى العرب ، بينما أيد الباقون كلهم رأى الصهيونية !

فقد كان « الوجود العربى الدولى » فى ذلك الوقت فى قاع سحيق من الضعف وعدم القدرة على التأثير !

ثم تقرر تكوين لجنة استقصاء من احدى عشرة دولة

وقررت أغلبية اللجنة تقسيم فلسطين الى دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية ، يجمعهما اتحاد اقتصادى

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ صوتت ٣٣ دولة بما فيها أمريكا والاتحاد السوفييتى فى صالح هذا القرار . وصوتت ضده ١٣ دولة : الست دول العربية الاعضاء فى ذلك الوقت وأربع دول اسلامية هى باكستان وأفغانســـتان وايران وتركيا ، وثلاث دول لا هى اسلامية ولا عربية وهى الهند واليونان وكوبا . وامتنعت عن التصويت عشر دول من بينها انجلترا

وفرح الصهيونيون واليهود فى كل مكان . بينما أعلن العرب أنهم لن يقبلوا القرار وأنهم سوف يقاومونه بكل الوسائل ..

***

فى صفحات قليلة يطوى بن جوريون قصة الحرب التى نشبت عقب انسحاب انجلترا من فلسطين بين الدول العربية واسرائيل .. واعلانه قيام دولة اسرائيل فى اجتماع كبير بتل أبيب .. والبيان الذى أذاعه بذلك من محطة الاذاعة

السرية التى كانوا قد أعدوها لتصبح اذاعة علنية فى تلك الليلة ·· بينما كانت الطائرات المصرية تقذف قنابلها فى أول غارة على تل أبيب ·· ثم أحداث القتال ، والهدنة الاولى ثم الهدنة الثانية ·· ثم تكون اسرائيل بعد هذه الخطوب عند حدودها الحالية « التى يقول انها أضافت الى اسرائيل فوق نصيبها المقدر فى قرار التقسيم بما يصل الى الثلث » ، ثم كل الاحداث السياسية حتى سنة ١٩٥٣، حين قرر أن يستقيل من رئاسة الوزارة ويعتزل فى قرية « سدى بوكر » فى صحراء النقب

ولا أظن أننا فى حاجة الى سرد ما رواه عن هـــذه الاحداث · ذلك أن الاحداث نفسها معروفة · ولكن المهم هو أن نقف عند « طريقة بن جوريون » فى سرد هذه الاحداث ، والنظر الامين الى هذه الطريقة يثير الملاحظات التالية :

● يكشف بن جوريون منذ البداية عن نواياه تجـــاه قرار التقسيم ، الذى يتظاهر باحترامه ، حين يقول انه تلقى قرار التقسيم بمشاعر مختلطة · صحيح أن هـــذه أول مرة تعترف فيها المنظمة العالمية بقطعة أرض لاقامة دولة عليها لليهود ، ولكنه يرى أن هذه القطعة لا تكفى ، ثم انها مجزأة تربط بينها ممرات تقع تحت رحمة الارض التى تركها القرار للعرب

ثم انها تحرم اسرائيل من مساحات شاســـــعة فى النقب

وهذه النية هامة · فهى تكشف عن أن خطة اسرائيل الحربية للتوسع سنة ١٩٤٨ لم تكن عفوية استدعتهـــا الظروف الخارجية وحدها وتؤكد أن اسرائيل لا ترى حتى

هذا الذى حصلت عليه خاتمة لآمالها . انما هو فى رأيها خطوة ، يجب التوسع بعدها : كلما سنحت الظروف

● ان بن جوريون يحاول أن يصور الامر على أن انجلترا والعرب كانوا يقفون فى جهة ، والحركة الصهيونية التى تطورت الى دولة اسرائيل وحدها فى الجهة المقابلة . فالقارىء الحسن النية لا يلبث أن يعجب بهذه القوة الصهيونية الصغيرة التى هزمت تحالفا من سبع دول عربية ودولة كبرى هى بريطانيا

فهو يريد أن يقلب « الصورة الاستعمارية » الحقيقة التى كانت موجودة فى المنطقة وقتذاك ، مصورا اسرائيل على أنها كانت فى موقف القوة الاستقلالية التحررية التي تحاول أن تدافع عن نفسها ضد قوة استعمارية وبريطانية ..

والواقع هو عكس ذلك تماما ..

فالحقيقة الاستعمارية البسيطة فى المنطقة فى ذلك الوقت هى : ان انجلترا كانت الدولة التى تستعمر المنطقة بجيوشها ونفوذها على السواء ، بما فى ذلك فلسطين نفسها . وانه تحت سمع الدولة الاستعمارية وبصرها وبتشجيعها فتحت أبواب اسرائيل للهجرة «الشرعية» وغيرالشرعيةوصدرتالتصريحات تلوالتصريحات ــ بدأ من وعد بلفور ــ لخلق أسس قانونية لايجاد كيان يهودى على أرض عربية . أما اذا تحرك العرب ، فهنا تتصدى لهم هذه القوة الاستعمارية بالضرب والقهر والكبت ..

فالشعب العربى هو الشعب الذى كان واقعا تحت سطوة الاستعمار : يرى جزءا من بلاده يقتطع منه ببطء دون أن يقدر على شىء

دون أن يقدر على شيء : بسبب التخلف الاقتصـــادى والاجتماعى المفروض عليه • وبسبب الحكومات العميلة التى نصبها الاستعمار ومنحها « وهم » الاستقلال لا حقيقته وبسبب الجيوش المصطنعة التى كان كثير من ضباطها انجليز ، وكان مصدر تسليحها وشريان حياتها انجليزى • وبسبب الوجود الاستعمارى الصريح ممثلا فى قـــوات الاحتلال العسكرية فى هذه البلاد العربية

لم تكن انجلترا والعـــرب اذن فى صف ووكالة بن جوريون فى صف • انما كانت انجلترا تقف وقد كبلت العرب بكل القيود ، تشهد النمو الصهيونى فى تشجيع مستتر ••

و « حادث الحرب » ليس وحده هو الذى صنع اسرائيل انما صنعتها كل الاحداث السابقة منذ الحرب العالميـــة الاولى ووعد بلفور : وفي خلال هذا كانت انجلترا تضرب بقوة السلاح كل محاولة لاى نمو عربى فى المنطقة نحو الاستقلال ، بينما كانت تسمح للوجود الصهيونى بأن ينمو ويتبلور يوما بعد يوم

واذا كان قد بدا ، فى اللحظات الاخيرة ، ان انجلتـــرا قد أصبحت « عصبية المزاج » فى وجه الســــــياسة الصهيونية وانها حاولت أن توقف المد الصهيونى عندذلك: فذلك لان الحركة الصهيونية قد كشفت فى هذه الساعات الاخيرة عن أنها تخطت السياسة الانجليزية بالفعل • وانه بعد أن كان الظن أن الدولة الجديدة أو الكيان الجديد سيكون تابعا لانجلترا كفلسطين القديمة بصورة أو بأخرى ظهر أن ولاءها قد انتقل نهائيا الى أمريكا ، وأنها تهـدف الى الاستقلال التام وطرد الانجليز ، فأصبحت بذلك تشكل حقيقة جديدة مربكة لانجلترا فى فترة ما بعد الحرب

باضطراباتها وبما ظهر خلالها من تشقق فى بنــــاء الامبراطورية البريطانية كله ..

● وكما أن بن جوريون يحاول أن يزيف وضع القوى الاستعمارية فى المنطقة ، فهو يحـــاول أن يظهر القوى الدولية الكبرى ـ وفى مقدمتها أمريكا ـ وكانها قامت فى هذه المأساة بدور ثانوى ، بينما قام بن جوريون والستمائة ألف يهودى فى فلسطين بالعبء كله . وهذا أيضا تصوير مضلل لحقيقة ما حدث . ان مهارة الحركة الصهيونية ولا شك هى أنها استطاعت أن تنظم قوى اليهودية العالميـة حيثما كانت لتاييدها . وأنها استطاعت من خلال هـــذه اليهودية العالمية أن تضغط وترجو وترشو وتلح وتنــذر وتساوم وتضلل حتى تمكنت من تحويل الدول الكبرى الى موقف تبنى القضية الصهيونية

وهنا بالذات يبدو فشل العرب الحقيقى خلال تلك الفترة : فقد تمكنت الصهيونية من اقناع دول العـــالم أنها قوة لها حسابها فى ميزان الصداقة أو العداء ، بينما أعطى العرب عن أنفسهم ، بحـــكم كل ظروف التخلف والاستعمار ، صورة الذى لا يكسب أحد من صداقته ولا يخشى أحد من عداوته

ولكن هذا كله شىء .. وكون الصهيونية هى التى تولت بقوتها الذاتية تحقيق أغراضها فى فلســـطين ، شىء آخر ..

فالقوى الدولية التى سمحت بالهجرة غير الشرعية من قلب أوروبا الى شاطىء البحر ، ثم سمحت للسفن المشحونة بالسفر فى البحر المتوسط تحت سمع الاساطيل وبصرها ثم أمرت بايقاف القتال ساعة تحرج وضع اليهود بالهدنة الاولى ، ثم سمحت باستمرار القتال ساعة قوى ساعد

اليهود بعد الهدنة ، ثم سمحت بتخطى اسرائيل حدود التقسيم رغم قرارات الامم المتحدة ، ورغم مصرع رجـل الامم المتحدة «فولك برنادوت» • هذه القوى الدولية التى كانت توجه ، على لسان ترومان ، انذارات مدوية بضرورة قبول مائة الف مهاجر يهودى فى فلسطين قبل آخر السنة والتى كانت فى نفس الوقت من خلال عملائها وسلطانها ووجودها المسلح فى البلاد العربية تدمر كل رد فعـل جدى ازاء هذه الاحداث : هذه القوى بمصالحهـا السياسية والاستراتيجية الكبرى هى التى قامت وقتهـا بالدور الاساسى فى ايجاد اسرائيل ، وهى الخصم الحقيقى الذى تمكن آخر الامر من قهر العرب

ونضال العرب فى السنوات التى تلت ١٩٤٨ ، ضد الاستعمار والرجعية العميلة فى شتى صورها ، كان أحد بواعثه الدرس الذى تلقاه العرب من مأساة فلسـطين ذاتهـا ••

● ويحاول بن جوريون أن يستفيد الى أقصى الحدود من قصة الهجرة العربية من فلسطين : فهو تارة يدلل بها على جبن العرب وتفككهم •• وتارة يحاول أن يبث فى القارىء شعورا بأن عامة العرب كانوا راضين بالتقسيم حين يقول ان العرب بدأوا يهاجرون تلقائيا من المناطق التى جعلها مشروع التقسيم جزءا من دولة اسرائيل •• وتارة يصف الامر ، بشكل غير مباشر ، وكأنه تقلص الظلمة أمام انتشار النور والحضارة

والواقع أن مأساة الهجرة تحتاج الى دراسة مسـتقلة خاصة بها • ولكن الذى يمكن أن يقال فى هذا المجال ، هو أنها بالفعل كانت حدثا خطيرا وظاهرة ذات دلالة بعيدة المدى ، يفسرها بضعة اشياء :

- يفسرها ، ولنعترف ، تخلف الامة العربية حضاريا • فبينما كان المجتمع الفلسطيني العربي صورة من المجتمع العربي في كل مكان : زراعيا اقطاعيا بدائيا ، بعيدا عن العمل الصناعي والتنظيم النقابي والزراعة العلمية المنظمة والنظرة العلمية التنظيمية في كل شيء ، كانت الموجة الصهيونية الغازية مزودة بهذا كله تسندها قوى دولية استعمارية عديدة ، الامر الذى أكسبها ساعة الصدام الحاسم ميزة كبرى لا شك فيها

- ويفسرها القيادة الخاطئة الجاهلة التى منى بها العرب • قيادة لم تتمكن من أن تعطى خط السلوك والتصرف لجماهيرها ، وهل تبقى أو ترحل ، بل ان هذه القيادات كانت تبدو مشجعة لهذه الهجرة ، جاهلة أنها ببقاء العرب في أماكنهم انما تجعل قيام اسرائيل كله أمرا شبه مستحيل ، رغم كل الظروف

- ويفسرها ، وهو اعتبار اساسي وان كنت قد أبقيته حتى النهاية ، ان الصهيونيين جعلوا المدنيين الامنين هدفا أساسيا لهم ، فارتكبوا ضدهم المذابح الشهيرةفىديرياسين وغيرها ليجعلوا بقاءهم مستحيلا : فهم أيضا من خريجى مدرسة هتلر الوحشية واللا أخلاقية كالنازيين سواء بسواء

***

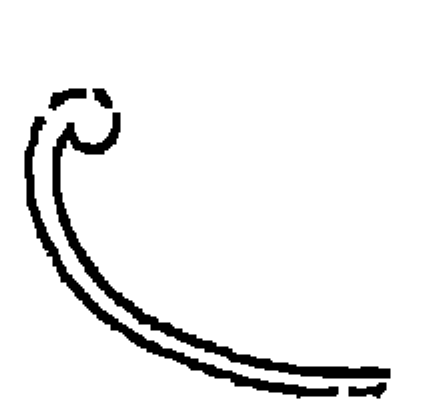
بعد ذلك ، يقفز بن جوريون فى كتابه الى أحداث حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وهجوم اسرائيل على شبه جزيرة سيناء خاتما به الكتاب ••

وهو فصل أشبه بقصة من صميم الخيال ••

فقد روى الاحداث على أن اسرائيل هى التى هجمت وهى التي حاربت وهى التى قررت متى تتقدم ومتى تتراجع ..

ولكن ، لسوء حظ بن جوريون ، فان كتابه صدر فى نفس الاسابيع التي صدرت فيها كتب اخرى أحدثت ضجة كبرى ، خصوصا كتاب « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى ميشيل بن زوهار ..

وهو الكتاب الذى يشرح قصة الفصل التالى ...



الفصل السابع

حرب السويس

- ايدن يطلب الإذن بالهجوم على مصر
- ٣ خطط لغزو مصر
- طبع أوراق بنكنوت مصرية في فرنسا
- التخلص من عبد الناصر
- متى تقرر اشتراك إسرائيل ؟
- معاهدة سيفر السرية
- بن جوريون يطلب تدمير الطيران المصري قبل أن يدخل الحرب



لايمكن الفصل بين قصة اسرائيل ، وقصـــة حرب السويس ..

وحتى الان ، ما زالت هناك موجة طاغية جديدة من الكتابة ــ في اوروبا وأمريكا واسرائيل ــ عن حـــرب السويس ، والكتب الجديدة تصـــدر مثقلة بأسرار بالغة الخطورة والغرابة .. ويؤدى نشرها بالتالى الى ضجة كبرى وجدل عنيف . ولا يمكن أن يعيش القارىء هنا في عزلة عن هذه الاسرار والمنازعات التى تهمه فى الدرجـة الاولى ..

ثم أن اذاعة هذه الاسرار الخطيرة ، عما كان يدور فى واشـــنطون ولندن وباريس وتل أبيب وغيرها ، بصرف النظر عن خطورة هذه الاسرار وغرابتها ، فان فيها دروسا لا تقدر بثمن ، انها تعلمنا كيف تدور عجلة الفكر والعمل فى الدوائر السياسية والعسكرية العليا فى تلك البلاد

يضاف الى ذلك أن كثيرا من القوى التى حركت أداة الحرب ضدنا ، بسبب تصادم مصالحها معنا ، ما زالت فى مراكز الحكم أو التأثير فى الحكم فى بلادها ،وما زالت بعض مصالحها تصطدم بنا .. فالقصـــة لم تذهب بكل ذيولها بعد ..

ومن ابرز واخطر الكتب التى ظهرت عن حرب السويس أخيرا كتابان :

الاول : كتاب « دالاس والسويس » للمؤلف الامريكى هيرمان فينر ، الذى ثارت بسببه ضجة عنيفة فى البرلمان الانجليزى ، جعل المعارضة تطالب سلوين لويد بالاستقالة .. لان الكتاب يسجل أنه كذب على البرلمان البريطانى حين قال انه لم يتآمر مع اسرائيل على الهجوم ضد مصر ، فى حين أن المؤلف يروى أن سلوين لويد طار الى باريس سرا وقابل بن جوريون هناك قبل الغزو بأيام

وقد سئل المؤلف ، فى برنامج تليفزيونى ، عن مصدر هذه الواقعة ، فقال : انه سمعها من كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت ، والرجل الثالث الذى كان فى الاجتماع السرى .. مع سلوين لويد ، وبن جوريون ..

وفى باريس اتصلت جريدة لوموند بالوزير الفرنسى السابق ، وحاولت أن تسأله عن صحة الواقعة .. فرفض أن يكذبها !

والكتاب الثانى هو : « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى « ميشيل بن زوهار » ، وهو كتاب يذيع أدق الاسرار واخطرها عن خطة الغزو والمؤامرات التى سبقتها ..

والمؤلف الاول حاقد طول الكتاب على دالاس لانه يعتقد أن دالاس هو الذى عرقل الهجوم على مصر زمنا طويلا ، فلما وقع الهجوم فعلا ، تخلى عن حلفائه ، مما جعل عبد الناصر ينتصر .. الامر الذى يندم عليه المؤلف ندما شديدا ..

والمؤلف الثانى ، يرى فى تآمر اسرائيـــل السرى مع بريطانيا وفرنسا صفحة مشرقة مشرقة .. يزهو بها

ولكن تبقى بعد ذلك الفائدة الكبرى للمعلومات الخطيرة التى يدليان بها ..

ان الكتاب الاول يركز على الجانب السياسى الدبلوماسى.

والكتاب الثانى يركز على جانب التآمر والتنفيذ ..

الكتاب الاول يروى القصة عن أمريكا

والكتاب الثانى يرويها عن لندن وباريس وتل أبيب

ولهذا آثرت أن أقدم الكتابين ـ بل الوثيقتين ـ معـــا فى سرد واحد لانهما ترويان قصة واحدة ..

ربما كانت حرب السويس تعد « حربا صغيرة » اذا قيست بعدد الايام الخاطفة التى استمر فيها القتـــال المسلح ..

ولكنها كانت « حربا » بأوسع معانى هذه الـــــكلمة واخطرها : اذ تعرضت فيها أقـــدار دول كبرى ودول صغرى للخطر ...وتعرضت فيهامبادىء النظم السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية للامتحان .. كما تعرض العالم كله ـ فى بعض مراحل الحرب لكارثة محققة

وكل يوم ، تفتح الاسرار عن جوانب آخرى فى هذه القصة التى لم نعرف كل جوانبها بعد ...

والكثير جداً مما يحدث فى عالم اليوم ، ترتب فى الواقع على الاحداث الكبرى لهذه الحرب القصـــــيرة : حرب السويس

يقول ـ مثلا ـ هيرمان فينتر ، مؤلف الكتاب الاول : ان النزعة الاستقلالية فى اوروبا ، التى يمثلهـــا ديجول ،

والتى تريد الا تكون تابعة لامريكا ·· قد اصبحت عقيدة لدى دوائر أوروبية كثيرة ، منذ تجربة حرب السويس ، وما يسميه المؤلف خيانة دالاس لحلفـــائه الاوروبيين ، واخضاع مصالحهم لمصالحه ·· اى مصالح أمريكا ، كما تصورها ··

وكأى حرب ، كانت هناك أحداث جســيمة أدت الى وقوعها ، بل جعلت نشوب الحرب حتميا ··

هذه الاحداث ، كما تكشف عنها هذه الكتب هى :

- صفقة الاسلحة بين مصر والاتحاد السوفييتي
- حلف بغداد ووقوف مصر فى وجهه
- ارتباط مصر بمساعدة الثورة فى الجزائر
- أعتراف مصر بالصين الشيوعية
- السد العالى ، وسحب دالاس العرض الخـــــاص بتمويله ، ثم تأميم عبد الناصر لشركة قناة الســـــويس ردا على ذلك

بل ان من يتأمل أثر هذه الأحداث فى العالم الخارجى، وما كان يدور بسببها وراء الكواليس فى لنــدن وباريس وواشنطون وتل أبيب يجد انه كان من المستحيل الا تقع الحرب ! ..

ولما كانت هذه الاحداث ليست ، هى فى حد ذاتهـــا الموضوع الرئيسى لهذا الحديث ، فلا بأس أن يكون المرور بها سريعا خاطفا ، بقدر ما يقف بنا — فى وضوح — عنـد بدء مؤامرة الحرب ذاتها ، وما أحاط بها من أسرار عجيبة

فهذه الاحداث أو المعـــارك التمهيدية التى أدت الى الحرب ، كانت لها ردود فعل مختلفة لدى أربع دول هى

أمريكا وبريطانيا وفرنسا واسرائيل . كل دولة منها لها خط يسير مع مصالحها السياسية . وفى بعض الظروف كانت هذه الظروف تتفق وفى ظروف أخرى كانت تختلف وتتناقض وتضطرب

***

فالبنسبة لبريطانيا ، يكشف الكاتب الاول « دالاس والسويس » عن انها كانت أول دول الغرب تنبها الى خطر عبد الناصر والثورة المصرية عليها . فصفقة الاسلحة قوت عبد الناصر وأخرجت مصر من دائرة الخضوع فى تسليحها للغرب . ومعركته ضد حلف بغداد عزلت أنصار بريطانيا الى حد بعيد . وهكذا كانت بريطانيا أول الدول تفكيرا فى التدخل المسلح ضد مصر ..

يروى الكتاب ان انطونى ايدن طار الى واشنطون فى فبراير سنة ١٩٥٦ ، أى قبل سحب عرض السد العالى وتأميم القناة ، حيث قابل ايزنهاور وجون فوستر دالاس وطلب منهما أن تشترك أمريكا مع بريطانيا فى عمل مسلح ضد عبد الناصر . وكان الاساس الذى أستند اليه فى هذا الطلب هو أن عقد صفقة الاسلحة السوفييتية فيه خرق « للبيان الثلاثى » . وهو البيان الانجليزى الفرنسى الامريكى الذى أعلنت فيه الدول الثلاث وصايتها على الحدود القائمة فى الشرق الاوسط

ولم يكن دالاس أقل انزعاجا من صفقة الاسلحة .بل ان الكتاب يروى انه ساعة سمع النبأ صاح فى أعوانه قائلا « هذا اخطر حادث دولى منذ حرب كوريا ، بل منذ الحرب العالمية • ولكن دالاس مع ذلك رفض قبول طلب ايدن . وتذرع فى ذلك بأن أى استخدام للقوات الامريكية

المسلحة يحتاج الى اذن من الكونجرس ، وهو أمر بالغ الصعوبة ...

وقدم ايدن لايزنهاور ودالاس ما يثبت أن عبد الناصر هو سبب كل « المشاكل » فى العراق ولبنان وسائر البلاد العربية . ولكن الجانب الامريكى ظل متمسكا بموقفه ..

وعندما عاد ايدن الى بلاده ، لم يخف دالاس ارتياحه من هذا التطور ، وقال لاعوانه ان ايدن كان يقف أشبه بالوسيط المعتدل بين الاتحاد السوفييتى وامريكا ، فالان قد اضطرته ظروف الشرق الاوسط الى طلب الالتصاق بأمريكا والوقوف معها فى عمل مشترك ..

ومن ساعتها ، بدأت توجد حفرة من الشك بين ايدن ودالاس ، حتى اصبحت مع أحداث السويس هوة عميقة

***

أما بالنسبة لامريكا ، فالكتابان يصوران لنا كيف ان سياستها فى تلك الفترة كانت مزيجا من عناصر شتى : فالدبلوماسيون الامريكيون ينصحون بالتفاهم مع عبد الناصر ومهادنة الحركة العربية بوجه عام . والصهيونيون وبعض الزعماء الامريكيين فى الداخل يؤيدون خطا معاكسا . وبريطانيا وفرنسا تشكوان من مصر باستمرار . وايزنهاور لا يريد الحرب بأى ثمن ، خصوصا كلما اقتربت معركة انتخابات الرئاسة . ودالاس تضطرب فى نفسه عوامل شتى : من تركيز على معركته المقدسة ضد الاتحاد السوفييتى . ونفور من الارتباط المطلق بمصالح امريكا وشك فى اسرائيل . وغيظ مستمر من تمرد عبد الناصر . ورغبته فى تحقيق ما يريده ايزنهاور فى عدم نشوب أى قتال ..

على أن أهم عمل ايجابى قام به دالاس في تلك الفترة هو ولا شك سحب العرض الامريكى الخــاص بتمويل السد العالى ...

فازاء تذمره من تمرد عبد الناصر ، خصوصابعداعترافه بالصين الشيوعية ، والضغط المسلح عليه من حلفــائه الغربيين لتاديب عبد الناصر قبل أن تستشرى النار ، وبحثه عن وسائل أخرى غير الحرب ، بدت فكرة سحب عرض السد العالى وكأنها تلبى كل هذه الحاجات

صحيح ان جورج همفرى وزير مالية امريكا كان قدقدم رأيا قاطعا ضد تمويل السد العالى على اســاس ان مصر لا يمكن ان تنهض بالتزامات مثل هذا المشروع . وصحيح ان بعض نواب الجنوب طلبوا عدم ابرام القرض لان السد العالى سيزيد المساحات المزروعة قطنا ، مما يؤدى الى منافسة القطن الامريكى « !! »

وصحيح ان بعض حلفاء أمريكا « تركيا وايـــران وباكستان » احتجوا على مساعدة أمريكا لدولة محايدة تقاوم امريكا . وصحيح أن اعتراف عبد الناصر بالصين الشيوعية كان قد هيأ الراى العام الامريكى لمثل هــذا القرار . ولكن المؤلف مع ذلك يعتقد أن هذه كلهـــا « اسباب » للقرار .. ولكنها لا تعبر عن كل «دوافع »جون فوستر دالاس : أن الدافع الاكبر هو الرغبة فى تأديب هذا الضابط المصرى ، حديث العهد بالسياسة الذى يثير الاضطراب فى كل مكان ، ويهدد الغرب ويرهبه ، ويرفض المساومة

***

وقد اخذ دالاس رأى حلفائه فى سحب العـــرض ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق اختيار الوقت ، والكاتب يسجل

كيف أن دالاس بقى ، الى ما قبل اعلان القرار للسفير المصرى فى واشنطون بساعات ، وهو غير مجمع رأيه على قرار حاسم ..

ويروى المؤلف ان بريطانيا وفرنسا كان لهما موقفان محددان من قصة سحب القرض ...

فقد ذهب كوف دى مورفيل ، وزير خارجية فرنسا حاليا وسفير فرنسا فى أمريكا فى ذلك الوقت الى دالاس وقال له : انه يحذر بشدة من الاقدام على سحب القرض. وقال له انه كان سفيرا فى القاهرة سنوات طويلة ويعرف عبد الناصر جيدا ويعرف انه سيرد ردا عنيفا على هذا العمل .. !

واشار كوف دى مورفيل الى أن رد الفعل قد يؤثر على قناة السويس .. ولكن دالاس استبعد الفكرة ساخرا ..

اما بريطانيا ، فقد وافقت على سحب القرض ولكن سفيرها قال لدالاس « Play it long » .. اى ليكن السحب على دفعات . فلا يقول لمصر : لا ! ولكن يقول ان الامر يحتاج الى اعادة بحث . ثم يتراجع تدريجيا ...

ولكن دالاس اختار الطريقة العنيفة ، طريقة الرفض القاطع فى اللحظة التى يلحق فيها السحب اكبر الضرر بعبد الناصر ، لانه فى رأى المؤلف كان تحت تأثير الدافع الذى سبقت الاشارة اليه : دافع توجيه الضربة بقصد الاهانة والتأديب ..

***

يروى المؤلف أنه عندما كان دالاس يقول للسفير المصرى احمد حسين « ابحث عن فلوس السد فى روسيا ! »

بلهجة المنتصر ، كان هناك اثنان ينتظران نهاية المقـابلة ليتناولا معه طعام الغداء : هنرى لوس صاحب مجلة تايم وجاكسون صاحب مجلة فورتشن • وقد روى الاثنان أن دالاس جاء اليهما فى اعظم حالات الغبطة والابتهــاج • وابلغهما الخبر وكأنه يبلغهما قصة « ضربة معلم » وجهها الى الاتحاد السوفييتى ومصر معا •• فلا الاتحادالسوفييتى قادر على تمويل السد ولا مصر قادرة على الرد ... وقال لهما فى عرض الحديث ، فخورا بنفسه : « ناصر يهددنى ؟ •• لست أنا !! »

•• هكذا ، لم يكد دالاس يعرفَ من أخيه الن دالاس مدير المخابرات الامريكية فى ذلك الوقت أن عبد الناصر قد أمم شركة قناة السويس ، حتى احتقن وجهه ،وغضب غضبا لم يسبق له مثيل ••

والمؤلف يقول : ان خبر التأميم كان صدمة حياته

ونترك دالاس عند صدمة التأميم ، لنعود اليه بعــد أن نستكمل باقى الخيوط ••

وقد بقى أن نعرف خطّ سياسة فرنســـا ، وخط سياسة اسرائيل فى نفس هذه الفترة

وهنا يجب أن نسرد الخطين معـــا : اذ ولدت من التقائهما أول فكرة محددة عن غزو مصر .. ولذلك كان لهذا الجزء أهمية خاصة فى التمهيد للاحــداث المقبلة الدامية ..

وفى هذه النقطة بالذات ، سوف أعتمد أساسا على الكتاب الثانى « السويس : سرى جدا » للكاتبالاسرائيلى ميشيل بن زوهار

عندما القى حلف بغداد ظله على الاحداث فى الشرق الاوسط ، كان هم فرنسا ان يفشل الحلف ، انه طريقة

لنشر السيطرة البريطانية نهائيا على المنطقة كلها ، بعد الاجهاز على نفوذ فرنسا المتبقى فى سوريا ولبنان

هكذا توجهت فرنسا - فيمن توجهت اليهم - الى اسرائيل تسألها سؤالا صريحا : هل أنت مع الحلف ، أم ضد قيامه ؟

وردت اسرائيل قائلة : ان خصومها الحقيقيين هم مصر وسوريا !

كانت اسرائيل تنظر الى المسألة من زاوية واحدة : ان الحلف لا يفيد مصر ، ولكنه يفيد العراق، وأعداء اسرائيل الاساسيون هم اعداؤها الرابضون على حدودها مباشرة. فكانت اسرائيل ترى في الحلف صدمة لا شك فيها لمصر اساسا وللعرب بوجه عام . ففى الحلف دول معترفة باسرائيل مثل تركيا وايران . ودولة اخرى غير معترفة باسرائيل ولكن ليس لديها أى عداء نحوها وهى باكستان. يضاف الى ذلك ان الحلف يمزق الجبهة العربية ، وكل هذا ينطوى على فوائد كبيرة لاسرائيل بصورة او بأخرى ..

ولكن اسرائيل محتاجة الى اسلحة فرنسا فهى تراوغ وتناور ..

واستمر هذا الموقف حتى طلبت فرنسا من اسرائيل أن تحدد موقفها نهائيا من الحلف : ضده . أو معه . هكذا ، وقد أصبح ظهر اسرائيل الى الحائط ، بحكم اعتمادها الاساسى فى التسليح على فرنسا ، قالت بلسان موسى شاريت فى الكنيست ، انها ضد الحلف ، ارضاء لفرنسا . ولكن هذا الاعلان الكلامى لم يؤثر فى ترحيب اسرائيل الحقيقى بالحلف ...

قال دبلوماسى اسرائيلى فى ذلك الوقت « فى كل مرة ،

كنا نذهب الى وزارة الخارجية الفرنسية فى طلب أسلحة، كان المسئولون الفرنسيون يزجون السؤال التقليدى : ولكن ما هو موقفكم أولا من حلف بغداد ؟ .. وفى نفس الوقت كان هناك وعد من بريطانيا بتسليم غواصتين الى اسرائيل ، فكنا نخشى ان تؤدى أية معارضة جدية منا للحلف الى الغاء هذه الصفقة ! ... »

المشكلة الاخرى التى ثارت بين فرنسا واسرائيل فى ذلك الوقت هى مشكلة هجرة اليهود من تونس والجزائر والمغرب . فمع اشتداد الحركة الاستقلالية هناك ، واحتمال حصول هذه البلاد على استقلالها ، نشطت اسرائيل لبث دعاية صهيونية بين يهود تلك البلاد ،بقصد دفعهم للهجرة الى اسرائيل ... الامر الذى أثار حفيظة فرنسا ..

قال موسى شاريت للمؤلف « لقد غضبت فرنسا لسببين : السبب الاول هو أن هجرة واسعة بين السكان اليهود سوف توحى للجميع بأن الوجود الفرنسى هناك فى طريقه للزوال ، مما يزيد الضغط عليه . والسبب الثانى هو أن يهود شمال افريقيا كانوا دائما من العناصر الموالية لفرنسا والتى تعتمد عليها فرنسا ولا أحد يحب أن يرى العناصر التى يعتمد عليها تهاجر وتترك البلاد »

وفى تصريح أدلى به موسى شاريت وقتها لجريدة الموند قال : « ان الضمانات التى تتوافر لليهود فى تونس أو فى المغرب تحت الحماية الفرنسية لا تتوفر بنفس الدرجة فى تونس مستقلة أو فى مراكش مستقلة . ولذلك يجب أن تظل اسرائيل مفتوحة الذراعين ليهود شمال افريقيا

***

ولكن أحداث الجزائر لم تلبث أن أصبحت القضية

الاولى . بحيث اثبتت ان اثرها على الشرق الاوسط سيكون أعمق بكثير من أثر حلف بغداد

ففي سنتي ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ، اصبحت القاهرة مركزا رئيسيا للنضال ضد النفوذ الفرنسي فى شمال افريقيا . واخذ صوت العرب من القاهرة يثير الخواطر ضد فرنسا .. « بشكل صدم حتى منديس فرانس الذى كان يأمل فى الوصول الى حل مع شمال افريقيا ! »

« .. ثم لم يلبث عبد الناصر ان استقبل فى القاهرة تحت راية الوحدة العربية ، قادة الثورة الجزائرية ، كما بدأ يزود جيش التحرير الجزائرى بكل وسائل المساعدة فقد فتح لهم مخازن السلاح ، بغير حد .. »

وأخذت الصحف الفرنسية تنشر صورا تثبت أن بعض المقاتلين الجزائريين قد تدربوا فى القاهرة ، وبالتدريج بدأ اسم ناصر يستخدم كرمز لعداوة فرنسا ..

وكان من الطبيعى بعد ذلك ان ينتشر العطف على اسرائيل بين كل دعاة « الجزائر الفرنسية » وكل الفرنسيين وقتها كانوا من دعاة الجزائر الفرنسية ! ولم يلبث ان تم التقارب بين الموقفين « فرنسا فى شمال افريقيا واسرائيل فى الشرق الاوسط » كل منهما جزيرة من الحضارة الغربية ، ورأس جسر للعالم الغربى ، وسط بحر من الكراهية العربية »

« وشيئا فشيئا أخذ يتبلور الرأى القائل ان مساعدة اسرائيل وتسليحها هو الذى يجعلها تقهر عبد الناصر : ان ضرب رأس الثورة الجزائرية يقضى عليها . هذه الرأس اسمها ناصر ، وتوجد فى القاهرة ، ولا احد يمكن أن يضربه هناك سوى اسرائيل »

ثم بدأ هذا الجو يقود الى خطط مشتركة

ففى بيت احد الاصدقاء ، التقى اثنان من الرجال سرا: الاول فرنسى ، اسمه « آبل توماس » ويعمل مديرا لمكتب « بورجيس مانورى » وزير الداخلية والمسئول مباشرة عن حرب الجزائر . والثانى اسرائيلى هو « م . ناحمياس » المبعوث الخاص لوزارة الدفاع الاسرائيلية

وبسرعة اتفق الاثنان على أنه من مصلحة فرنسا ان تتقوى اسرائيل عسكريا ، ثم لم يلبث ناحمياس ان قابل بورجيس مانورى ، وفى المرة التالية كان الذى قابل مانورى هو شمعون بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية . وكان اقناع الضباط الفرنسيين ووزارة الدفاع الفرنسية سهلا : فالجيش هو الذى يقاتل فى الجزائر ويشعر أكثر من غيره بالحاجة الى حليف فى المعركة المسلحة ..

كان ذلك فى أواسط سنة ١٩٥٥ ، وهكذا بعد أن اطمأن الاسرائيليون لحلفاء اقوياء فى وزارة الدفاع الفرنسية فى « الجنرال كوينج » وزير الدفاع الذى قاتل معه الضباط الاسرائيليون خلال الحرب العالمية ــ وجدوا فى بورجيس مانورى حليفا آخر بالغ الاهمية ، وقد جاء دليل أهميته وولائه لهم سريعا ..

***

فقد دق جرس التليفون يوما فى السفارة الاسرائيلية فى باريس ، وكان المتكلم هو « رجلنا فى مرسيليا » كما يقول المؤلف . وكان يقول ان السفن على وشك أن تشحن دفعة من الدبابات A MX 13 الى مصر . وكان قد تمت قبل ذلك الموافقة على توريد عدد من هذه الدبابات الى مصر والى اسرائيل على السواء ، وفى المجلس الوزارى

الذى يجب أن يقر هذه الصفقة ، استطاع «انطوان بيناى» ان يسهل صفقة مصر ويعطل صفقة اسرائيل ، وعلى الفور وصلت الدبابات الى رصيف مرسيليا تمهيدا لشحنها الى مصر ..

وعلى الفور اتصلت السفارة الاسرائيلية « ببورجيس مانورى وبالجنرال ليكونت » مدير مكتب « الجنرال كوينج »

واتصل ماتورى بالجنرال كوينج ، الذى أصدر قرارا بعدم شحن أى سلاح الى مصر ، ووصل الامر الى مرسيليا ، حيث كان يوجد الكولونيل عكاشة « الدكتور ثروت عكاشة الملحق العسكرى المصرى فى فرنسا فى ذلك الوقت » وطار عكاشة على الفور الى باريس . وسأل وزارة الخارجية التى لم تكن تعرف شيئا عن أمر الجنرال كونيج . واستجوبه « انطوان بيناى » نفسه فى الامر ، فرد عليه قائلا : نعم ، انا الذى اصدرت الامر . ولن اعدل عنه الا اذا شحنت دبابات اسرائيل فى نفس الوقت !

يقول المؤلف : ان الجو وقتها فى باريس كان معاديا لمصر ، اذ كانت الصحف بالصدفة ملأى بصور الاسلحة المصرية فى الجزائر !

واحتدمت الازمة الوزارية . وفى النهاية انتصر « كوينج » فقد شحنت دبابات اسرائيل ، وتلكأت دبابات مصر

وظهرت الدبابات الفرنسية فى عرض عسكرى اسرائيلى فى تل أبيب ، وبدأت الهمسات تترى عن قرب بيع طائرات ميستير وأوراجان لها ، الامر الذى زاد من قلق البلاد العربية ..

لقد باعت فرنسا بالفعل ١٠٠ دبابة لاسرائيل وعددا

من الطائرات . وفى خطابه يوم ٢ اكتوبر ذكر عبد الناصر هذه الارقام وهو يبرر عقده لصفقة الاسلحة مع الاتحاد السوفييتى

وقد ظلت المجموعة الفرنسية المؤيدة لاسرائيل تتزايد باستمرار ، مع تفاقم الحرب فى الجزائر

« .. اليمين الفرنسى ، رغم عدائه التقليدي الغامض للسامية واعتقاده بعدم دوام اسرائيل بدأ يحبها ، والاشتراكيون الفرنسيون بدأوا يتعاطفون مع تجارب اسرائيل فى الزراعة والصناعة ومشروعات الهستدروت ، ثم هناك قضية الجزائر التى تضع البلدين فى موقف واحد من العرب . « لاكوست مثلا ، انه اشتراكي ولكنه أيضا الحاكم العام للجزائر ، فلديه سبب قوى لكى يصبح مؤيدا لاسرائيل » . ثم هناك اليهودية الفرنسية. قال « جيلبير » السفير الفرنسى فى اسرائيل وقتها للمؤلف أن اليهود الفرنسيين قد بدأوا يذوبون فى المجتمع الفرنسي منذ مطلع هذا القرن ، وبالتالى كانوا لا يحبون أن يعرفوا أى شىء عن الصهيونية ، وبعد وعد بلفور ، عندما أثار وايزمان الامر أمام مؤتمر فرساى ، وقف سيلفيان ليفى ، ممثل اليهودية الفرنسية، وهاجم وايزمان والصهيونية هجوما عنيفا ، أن اليهودية الفرنسية لم تشأ أبدا أن تقوم اسرائيل .. لماذا ؟ « لانها لم تكن صهيونية قط ، ولانها كانت تخشى من تهمة العدوان المزدوج التى تعرضت لها خلال الاحتلال فى الحرب العالمية الثانية »

ولكن هذا كله تغير مع استمرار اسرائيل ونجاحها : ومع اقتراب سياستها وسياسة فرنسا « ولما كان جزء كبير من الصحافة الفرنسية والسينما الفرنسية مملوكا

لليهود ، فقد امكنهم ان يوسعوا الشعور المؤيد لاسرائيل بنجاح كبير »

فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، عاد بن جوريون من عزلته فى سد بوكر الى الحكم ، عاد بسبب ما سماه ضعف وسائل الدفاع الاسرائيلية . ثم لم يلبث ان امر بالهجوم الاسرائيلى المشهور على آحد معسكرات الجيش المصرى بالقرب من غزة ..

وسرعان ما تعددت حوادث الحدود بين البلدين

هل زادت حوادث التسلل المصرية الى اسرائيل بسبب عنف الهجمات الاسرائيلية ؟ أم ان عنف الهجمات الاسرائيلية كان بسبب زيادة حوادث التسلل ؟ انها حلقة مفرغة فى راى المؤلف ..

المهم .. ان عبد الناصر أصبح فى حاجة الى السلاح . فرنسا لا تعطيه بسبب الجزائر ٠ وبريطانيا وآمريكا لا تعطيانه بسبب حلف بغداد ٠ وهكذا اتجه الى الاتحاد السوفييتى

هذه الصفقة الشهيرة سجلت موت « البيان الثلاثى » فى الشرق الاوسط ..

وازداد قلق اسرائيل ..

ان التقارير عن التسلح المصرى الجديد مخيفة ٠ وسباق التسلح الذى بدأته اسرائيل كما يقول المؤلف نفسه ـ باللجوء الى فرنسا ـ قد انقلب عليها .. فحرب الفناء اذن قد تقع ولابد لها من اسلحة اخرى حديثة سواء لاعادة التوازن او للاستعداد لحرب وقائية ضد مصر

يقول المؤلف « اسلحة لاعادة التوازن أو للجولة الثانية : تلك كانت الفكرة الطاغية على السياسة الاسرائيلية فى الشهور التالية . وهكذا بسبب المبادرة الاسرائيلية الى شراء الاسلحة تفجرت الاحداث حتى

وصلت الى حرب السويس »

ان استقلال مصر بمصادر اسلحتها اصبح حقيقة كبرى قلبت كل حسابات الغرب واسرائيل ..

وامام الكنيست ، وقف رئيس الوزراء الاسرائيلي الداعي الى التهدئة موسى شاريت ، يتكلم عن احتمال الحرب الوقائية . ويطلب السلاح من الجميع . ثم طار على الفور الى باريس حيث قابل وزراء خارجية الدول الكبرى وهم يستعدون لمؤتمر جنيف ، قابل ادجار فور وهارولد ماكميلان وانطوان بيناى . وتكلم مع مولوتوف بالروسية . كما قابل جون فوستر دالاس

وفى جو الاستعداد للحرب الوقائية ، عاد بن جوريون الى تسلم رئاسة الوزارة

قال شاريت انه فى نهاية اكتوبر ١٩٥٥ طلب من ادجار فور رئيس وزراء فرنسا ان تسلم فرنسا الى اسرائيل طائرات « ميستير ٤ » التى تستطيع ان تقاوم الميج التى حصل عليها عبد الناصر . فوافق ادجار فور ووعد بالمساعدة . ولكنه حين ذهب وقابل انطوان بيناى وجد هذا « رسميا ، باردا ، جافا »

***

ولكن بعد قليل ، عقد فى باريس مؤتمر لسفراء فرنسا فى الشرق الاوسط ، برئاسة انطوان بيناى

فى هذا المؤتمر ، كان السفراء الفرنسيون فى البلاد العربية يتزعمهم دى شايلا سفير فرنسا فى القاهرة ، يطالبون بمحاولة جديدة لتحسين العلاقات بين فرنسا والبلاد العربية . بينما كان جيلبير السفير الفرنسى فى اسرائيل ضد هذا الرأى على طول الخط

وقرر المؤتمر سلوك الاتجاه الاول ، عاد دى شايلا الى

مصر يقول لعبد الناصر انهم لن يقدموا اسلحة الى اسرائيل بل سوف يرسلون اسلحة الى مصر ، نظير ايقاف الحملة على فرنسا فى شمال افريقيا

***

يقول المؤلف : ان بيناى كان مستعدا لاى شيء مقابل ان تشــــترك فرنسا فى بناء الســـد العالى الذى كانت المباحثات بصدده قد بدأت بين مصر والدول الغربية

يقول موسى شاريت للمؤلف : « ان وزارة الدفاع (أى بن جوريون) كانت ترفض رفضا مطلقا ان تدخل الظروف السياسية فى اعتبارها . فعندما كنت افاوض دالاس فى جنيف ، قامت هى بهجوم مفاجيء على « الكونتيلة » فى مصر ، فتغير موقف دالاس . وعندما كنت على وشـــك الحصول على صفقة اسلحة من فرنسا ، هـــاجم الجيش مواقع سورية فى طبرية ، فقال لى انطوان بيناى « كيف تهاجمون السوريين وهم اصدقاء لنا ؟.. » وامر بتأخير تسليم الاسلحة التى سبق الاتفاق عليها مع اسرائيل

ويقول المؤلف انه من ابرز ملامح هذه الفترة فى باريس وتل ابيب على السواء : الخلاف بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية فى كل من البلدين

فظروف اسرائيل جعلتها تخضع كل شيء لمشكلة الامن وبالتالى لوزارة الدفاع . حتى اصبح المعيار الوحيـــد لصـــداقة اى بلد لاسرائيل هو مقدار ما تزودها به من اسلحة . ونوع هذه الاسلحة ، لا اكثر ولا أقل

ويروى الكتاب كثيرا من القصص التى تشبه احيانا الروايات البوليسية ، عن سعى اسرائيل للحصول على الاسلحة من فرنسا

بالنسبة لطائرات ميستير مثلا :

يقول المؤلف ان اول وعد تلقته اسرائيل ببيع طائرات « ميستير ٤ » لها ، كان من منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا سنة ١٩٥٤

وعندما جاء ادجار فور فى رئاسة الوزارة بعد منديس فرانس ، كرر هذا الوعد ..

وتم بالفعل اعداد الطائرات . ودهنت بالوان دولة اسرائيل ، ووقفت فى المطار تنتظر الامر بالطيران الى تل أبيب ، ولكن احدى الصحف نشرت صورة لها ، واذا بالامر يشتهر والصفقة تتوقف ، ولم يعرف سفير اسرائيل بتوقف الصفقة الا حين ذهب لحفلة توقيع الصفقة !

وقيل له انه ظهر ان الطائرات المستير لا يمكنها ان تطير من باريس الى تل ابيب دون توقف ، ولكن السبب الحقيقى وفق معلومات المؤلف هو أن امريكا تدخلت لايقاف الصفقة

وعاودت اسرائيل بذل الجهود ..

وذهب وزير فرنسي ـ لايذكر المؤلف اسمه ـ الى ادجار فور رئيس الوزارة وقال له : هل ترضى ان تضع طياريك فى طائرات اقل من « ميستير ٤ » ليواجهوا طائرات الميج التى حصل عليها عبد الناصر ؟

وقال ادجار فور : بالطبع لا !

وتمت الصفقة ، فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٥

كانت هذه نقطة تحول بالنسبة لاسرائيل ، ونقطة تحول فى علاقات اسرائيل مع فرنسا

ان « اخوة السلاح » تنمو بين البلدين

ولكن ادجار فور قرر الاستقالة فجأة ، واجراء انتخابات عامة ..

وارتبكت خطط اسرائيل : فمن القادم يا ترى بعد الانتخابات ؟...

يروى الكتاب ان شمعون بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، والرجل المسئول عن هذه الصفقات كلها ، عاش فى فرنسا شهرا كاملا مع عشرات من معاونيه : اقتحم المعركة الانتخابية فى فرنسا كما اقتحمها المرشحون . طاف بكل زعماء الاحزاب والمرشحين البارزين يشرح لهم الموقف ، ويحصل منهم على الوعود ، ويشرح لهم كيف ان الطريقة الوحيدة لضرب ثورة الجزائر هى التخلص من عبد الناصر ، والقاعدة الوحيدة للتخلص من عبد الناصر هى اسرائيل

يروى المؤلف ان اجتماعات بيريز مع المرشحين كانت تتم احيانا فى سيارة اللورى المكللة بلافتات الدعاية التى يتخذها المرشح مقرا متنقلا له ..

وعندما ذهب بيريز الى جى موليه فى دائرته الانتخابية ، وعده موليه بالمساعدة .. ويروى المؤلف أن بيريز قال لموليه : ارجو الا تكون مثل اشتراكى اخر هو ايرنست بيفن ، كان معنا وهو مرشح فلما تولى الحكم اصبح ضدنا .. يشير بذلك الى وزير خارجية بريطانيا السابق فى حكومة العمال

فرد عليه جى موليه قائلا : كلا ! سوف اثبت لك اننى لست مثل بيفن !

ومن اغرب ما حدث خلال تلك الفترة ، ان الحكومة الفرنسية اعطت بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، مكتبا ومقرا دائما لمدة شهر فى مقر رئاسة الوزارة الفرنسية بحجة احتياجه اليه لتنفيذ صفقة الاسلحة ومن هذا المقر الرسمى كان بيريز يتصل بشبكات عملاء

اسرائيل المنتشرين فى انحاء فرنسا ويدير « المعـــركة الانتخابية » الخاصة ، مستخدما مكاتب الدولة وتليفوناتها وتسهيلاتها

ونجح جى موليه فى الانتخابات ..

يقول المؤلف : ان وصول جى موليه الى السلطة كان نقطة تحول فى علاقة فرنســا باسرائيل .. وفى التمهيد للحرب

***

ذهب مئات آلاف المصريين الى الميدان فى الاسكندرية يستمعون الى الحل الذى وعدهم به عبد الناصر لتمويل السد العالى وفى ضحكة قصيرة ، أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس

وبينما كان الجنود المصريون يحيطون مكاتب الشركة فى الاسماعيلية والسويس وبورسعيد . كان سكرتير انطونى ايدن يقتحم عليه مائدة العشاء التى اقامها تكريما لفيصل ملك العراق ونورى السعيد . كان الامر مفاجاة كاملة له . أما فى فرنسا فيقول المؤلف ان المخابرات الفرنسية كانت تشك فى الامر منذ اسبوعين

وفى نفس الليلة اجتمع الوزراء البريطانيون الكبار مع قادة اركان الحرب ، مع سفيرى امريكا وفرنسا ، وفى يوم ٢٩ وصل « كريستيان بينو » الى لندن . وفى نفس اليوم وصل « روبرت مورفى » مبعوث ايزنهاور الخاص ، اذ كان دالاس متغيبا فى بيرو . وطلب سلوين لويد وكريستيان بينو من مبعوث ايزنهاور ان تشترك امريكا مع الدولتين فى عمل حربى سريع للاستيلاء على القناة . وبدون انتظار أجلت فرنسا رعاياها عن مصر ، ثم تبعتها انجلترا بعـد قليل ..

وبعد يومين كان قد تجمع فى ميناء « طولون » اسطول مبدئى للغزو : بارجتان وحاملتا طائرات و ٢١ مدمرة ، وست غواصات . وفى لندن كان يوجد « الاميرال نومى » قائد الاسطول الفرنسى ، لينسق العمليات الحربية بين الدولتين . وكان فى حساب الدولتين حتى هذه اللحظة ان امريكا سوف تشترك معهما . ان الوقت ثمين . والدولتان تضغطان من اجل السرعة . ان الاستيلاء على قناة السويس فى رأيهما سوف يؤدى الى اسقاط عبد الناصر . وفى نفس اليوم الذى كانت انجلترا فيه تستدعى الاحتياطى ، كان « الكولونيل بريور » يهبط فى لندن ومعه كشف كامل بكل القوات الفرنسية التى سوف تشترك فى المعركة

قال ضابط فرنسى للمؤلف « .. لمدة ثمانية ايام كانت القيادة الفرنسية والانجليزية تعمل فى نشاط هائل لبدء الهجوم .. ولكن فى اليوم الثامن جاءت مذكرة اجلت فكرة التدخل فورا ، وبعدها اخذ التعاون الانجليزى الفرنسى شكل التمرينات العسكرية « فحسب »

***

وهناك تفسير لهذا الذى حدث ..

ففى اول اغسطس ، اجتمع فى لندن ايدن وجى موليه وجون فوستر دالاس . وقال دالاس لاول مرة بشكل نهائى حاسم ان امريكا لن تشترك فى اى عمل مسلح ضد مصر . وعلى الفور قال القادة الانجليز : ان القوة التى استعدت للغزو كان فى حسابها اشتراك قوة امريكية معها . اما بعد هذا الموقف الجديد ، فهى غير كافية للغزو . ولذلك لابد من التاجيل ، للاستعداد من جديد ، على اساس عدم وجود قوات امريكية

وقد روى انطونى ايدن بعد ذلك فى مذكراته ، ان فكرة التدخل المسلح فورا تأجلت لسببين : الاول عدم امكان تجميع قوة ضاربة كافية فى وقت قصير ، والثانى هو الامل فى الوصول الى حل سلمى

قال دالاس فى هذا الاجتماع : ان الحكومة الامريكية لا يمكن ان تدخل فى عمل عسكرى بدون موافقة سابقة من الكونجرس ، ثم اطلع الحاضرين على رسالة من ايزنهاور يطلب فيها المفاوضة أولا قبل البحث فى أى اسلوب آخر . والغريب ان المؤلف يقول أن سلوين لويد انضم اخيرا الى رأى دالاس بينما ظل بينو يلح فى التدخل الفورى

واخيرا قبل الجميع فكرة دالاس فى اقامة مؤتمر دولى لبحث مشكلة قناة السويس ، على ان ينعقد المؤتمر فى ١٦ اغسطس

كان هذا فى رأى المؤلف هو اول انتصار لدالاس . فمنذ تلك اللحظة ، وطوال شهرين بعد ذلك ، ظل يعارض أى محاولة للقيام بغزو مسلح ضد مصر

انعقد المؤتمر فى ١٦ اغسطس وانفض يوم ٢٢ ، بعد ان تبنى اقتراح دالاس بايجاد جهاز دولى يدير القناة . وفى يوم ٣ سبتمبر سافر منزيس الى القاهرة حاملا هذا الاقتراح الذى قبلته ١٨ دولة من ٢٢ . ولكن عبد الناصر رفض الاقتراح ..

ولم يذعن دالاس لضغط انجلترا وفرنسا فخرج باقتراح جديد هو تكوين ما يسمى بجمعية المنتفعين بالقناة ، وقبل ايدن ومولية مرة اخرى الذهاب الى مؤتمر لندن الجديد الذى عقد فى ١٦ سبتمبر . ولكن لما كان دالاس قد رفض مبدأ استخدام القوة فى تمرير سفن الدولة المنتفعة ، فلم يبق لدى المؤتمر فى حقيقة الامر أى

شيء يقوم به . فلم يكد دالاس يترك العاصمة البريطانية الى جزر برمودا لقضاء بضعة أيام من الراحة ، حتى كانت انجلترا وفرنسا قد قررتا الذهاب الى مجلس الامن

ولم تكن انجلترا وفرنسا تشكان فى أن الفيتو الروسى سيقف فى وجهيهما فى مجلس الامن • ولكن ، كان هذا الاجراء مقصودا به فتح الباب لاستخدام القوة بعد ذلك ، ولهذا كان دالاس يعـــارض حتى فى الذهاب الى الامم المتحدة ••

وقبل ترك هذه المرحلة ، اذكر ان الكاتب هرمان فيز قال ان ايدن اقترح على دالاس ان يسافر هو على رأس البعثة الى مصر لمقابلة عبد الناصر بدلا من منزيس . اراد بذلك أن يرى دالاس بنفسه « تعسف » عبد الناصر ، وان يعود ـ اذا رفض عبد الناصر ـ ثائرا لكرامته . ولكن دالاس اعتذر بحجة أن لديه اعمالا كثيرة فى واشنطون .. ووقع الاختيار على منزيس

فى خلال هذا كله ، كانت الاستعدادات الحربية قائمة على قدم وساق ، فطوال هذه المباحثات والمفاوضات لم يغير الانجليز والفرنسيون رأيهم لحظة واحدة فى ضرورة التدخل المسلح . غاية مافى الامر ، انهم بعد أن تأكدوا من ان أمريكا لن تشترك ، اعادوا الخطة القديمة الى القيادة العليا لتضع خطة جديدة ، تقوم بها الدولتان بمفردهما

وفى « البدروم » المحفـــور عميقا تحت ارض وزارة الحرب البريطانية ، حيث توجد قيادة العمليات الحربية ، ممتدة الى ما تحت ارض نهر التيمز ، عكف الجنرالات الانجليز والفرنسيون بغير انقطاع على وضع الخطـــة الجديدة

واطلق على القيادة المشتركة اسم سرى هو **Terrapin**

وكان أعلى المسئولين يجهلون الامر كله ، باستثناء رئيسى وزارتي الدولتين وعدد قليل جدا من الوزراء . كانت هذه القيادة السرية ساهرة تضع الخطة تلو الخطة ، وعلى بعد امتار منها مؤتمرات ومفاوضات ومباحثات وساسة لا يعرفون شيئا

ومنذ البداية ، قال الجنرالات انه يلزمهم ستة أسابيع على الاقل لاعداد الحملة العسكرية ووضعها فى وضع الاستعداد للحركة ، وعلى ذلك فالغزو يمكن ان يبدأ فى منتصف سبتمبر

كانت الخطة الاولى التى اقيمت على اساس اشتراك امريكا فيها قد اطلق عليها اسم Hamilcar أما هذه الخطة الثانية فقد أطلق عليها اسم موسكتير وتم وضعها فى وقت سريع جدا : آخر اغسطس

***

وكانت خطة موسكتير تقضى بالنزول فى الاسكندرية ، ثم شق الطريق راسا الى القاهرة ، على اساس ان اسقاط عبد الناصر هو الهدف الاساسى . وفى دوسيهات ال Terrapin الى الان المشروع الكامل للحكومة المصرية التى كانت ستحل محل عبد الناصر . وقد قام بعض عملاء فرنسا وانجلترا المجهولين باتصالات ببعض العرب المقيمين فى القاهرة . وتم طبع منشورات باللغة العربية لتلقى على مصر ، وتم فى فرنسا طبع بنكنوت مصرى لتستخدمه قوات الاحتلال ، وتم تخزين كل هذا فى مخازن سرية جدا . .

قصة غريبة تعيد الى الاذهان نفس خطة الانجليز القديمة ضد ثورة عرابى

ولكن خطة الموسكتير لم يقدر لها ايضا ان تعيش طويلا ،

ففي سبتمبر بدأ اعداد خطة أخرى هى : الموسكتير المنقحة . ذلك ان الساسة حكموا على الخطة الاولى بأنه سيصعب تبريرها امام الرأى العام ، اذ ستجرى العمليات الحربية فيها بعيدا جدا عن القناة ، التى هى ذريعة التدخل العسكرى . أما الخطة الجديدة فكانت تقضى بالنزول فى بورسعيد ، ثم الزحف على طول القناة الى السويس ، مع اندفاع قوة اخرى من القناة الى القاهرة لاسقاط عبد الناصر

وتبريرا للحملة ، كان المفروض ان تسافر قافلة من السفن الى القناة ، ثم ترفض دفع الرسوم للادارة الجديدة . وهنا سوف يمنعها المصريون من العبور ، فينفجر الخلاف ويبدأ الغزو . وللتاكد من ان المصريين سوف يمنعون القافلة ، رئى أن تكون من بين سفن القافلة سفينة اسرائيلية . وان المصريين حتما سوف يمنعون أى سفينة اسرائيلية من العبور • وفى تلك الاثناء كانت قوات الغزو تتجمع فى صمت فى قبرص ، ومالطة ، وبعض موانى شمال افريقيا .. والغريب ، انه رغم كل الجهود البريطانية والفرنسية فى حشد « أرمادا » بحرية ، وتجميع اعداد ضخمة من الجنود وفرق الباراشوت والطائرات وسفن النقل حتى اصبحت قبرص كلها ترسانة مسلحة .. رغم هذا كله فقد كانت القوات دائما غير مستعدة تماما للقتال لماذا .. ؟

المؤلف يرجع السبب مرة اخرى الى امريكا . فجون فوستر دالاس ــ كما قال كريستيان بينو بعد ذلك ــ كان يريد أى شىء الا ان يقع غزو مسلح فرنسى انجليزى قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية فى امريكا . وكان هذا يفت فى عضد الحشد العسكرى ، اذ يضطره الى انواع من السرية تعطله

وكانت انجلترا بالذات هى التى بدأت يداها ترتعشان ، كلما فكرت فى موقف امريكا . الامر الذى غاظ فرنسا ، التى مضت فى حشدها بنفس النشـــاط واخذت تلوم الجانب البريطاني على تأخره فى تنفيذ خطة الحشـــد العسكرية والتعلل بهذا السبب أو ذاك ..

***

اذن ، فما الحل ؟

قال الفرنسيون : « اذا كان يبدو ان الانجليز يترددون فلنجرب اسرائيل ! »

ولكن - متى ذكر اسم اسرائيل لاول مرة ، فى هـــذه العملية كلها ؟..

فى غرفة العمليات الحربية ، بعيدا فى أعماق الارض ، تحت مبنى وزارة الحـــرب البريطـانية ، وبينما دخان السجاير منعقد ومختلط بالمناقشات . ثارت مشكلة ان عملية الغزو كلها ، ليس لها « قاعدة » قريبة من مصر قربا كافيا ..

وقال جنرال فرنسى ، شاء المؤلف ان يحتفظ باسمه سرا « ان اسرائيل هى اقرب ارض الى منطقـــة العمليات المقبلة ، فلماذا لا نجرب الاستفادة منها ؟ .. »

كانت هذه اول مرة ..

وعنـــدما عاد الجنرال الفرنسى الى باريس ، وراجع رؤساءه فى الامر ، دهش حين وجدهم يوافقونه على المضى فى الأقتراح !..

وقد لامه بعض زملائه بعد ذلك بزمن ، اذ قالوا له لاشك انه كان يعرف ان اسرائيل فى العملية من قبل .. وان اقتراحه لم يكن بريئا !

والواقع ، كما يقـــول المؤلف الاسرائيلي ، انها كانت موجودة . .

ففي اول اغسطس عقد اجتماع بالغ السرية بين بعض الاسرائيليين وبعض كبار رجال وزارة الدفاع الفرنسية . وفى يوم ٧ اغسطس اجتمع هؤلاء الاسرائيليون مع هيئة اركان حرب الجيش الفرنسى ، بحضور آبل توماس ، مدير مكتب بورجيس مانورى . وفى هذا الاجتماع تمت صفقة اسلحة ضخمة بالغة الاهمية . وتلك كانت الخطوة الاولى الاكيدة ..

فقد كانت فكرة التعاون بين فرنســـا واسرائيل فى « موضوع السويس » بصـــــفة عامة تنمو بسرعة فى اجتماعات القادة الفرنسيين والاسرائيليين . بل ان فكرة شن هجوم على مصر ، اثيرت مرة فى اجتمـــاع تم بين بورجيس مانورى وزير الداخلية وشيمون بيريز فى يونيو السابق .. ثم ترددت الفكرة اكثر من مرة ، ولكن دون ان تتبلور فى صورة « عملية » محددة

فبعد ان ابرمت صفقة الاسلحة الروسية التى قلبت ميزان القوى ، بدأت اسرائيل تفكر فى « حرب وقائية » سريعة . ولكن حتى بعد أن تسلمت اسرائيل الاسلحة الفرنسية الحديثة ، لم يكن فى مقدورها أن تضمن نجاح مثل هذه الحرب . كانت اسرائيل توازن التفوق المصرى فى العدد بتفوقها فى النـوع . فلمـا حصلت مصر على الاسلحة الحديثة ، أصبحت متفوقة على اسرائيل كمـا وكيفا ...

لهذا أصبحت اسرائيل تنظر الى فكرة الحرب الوقائية على انها ضرورة حتمية . وكلما سافر شاريت اوبيريز الى أوروبا لشراء أسلحة ، خلال ســنة ١٩٥٥ ، كان كل منهما يمر بفرنســا ليسأل حكامهــا : ماذا يكون موقفهم

بالضبط ، فى حالة قيام اسرائيل بحرب مسلحة ضد مصر ؟ ..

ولم يكن الفرنسيون يربطون أنفسهم بشيء ، ولكنهم كانوا يشجعون الفكرة . فالجنرال جيوم شجع الجنرال ديان . وجي موليه ، عشية الانتخابات العامة ، وعد بيريز بكل مساعدة ، وبورجيس مانورى وكل رجاله كانوا مع اسرائيل مائة فى المائة : اليمين الفرنسي كان يشجع اسرائيل بسبب دور عبد الناصر فى الجزائر ، واليسار كان يشجع اسرائيل على أساس أن عبد الناصر هو هتلر آخر ، ولا يجب أن تقع ميونيخ أخرى ، هكذا قال جي موليه بالضبط . كذلك قال « اننى أساعد اسرائيل لانها دولة اشتراكية توشك على الزوال كما زالت أسبانيا الاشتراكية فى وجه فرانكو . سنة ١٩٣٦ لم نكن أقوياء ولهذا زالت اسبانيا ، أما سنة ١٩٥٦ ، فاننا أقوياء ، ولهذا لن تزول اسرائيل »

هكذا كان حكام الجمهورية الفرنسية الرابعة يشجعون اسرائيل : وبعضهم شجعها الى أبعد من هذا ، الى حد الاشتراك معها فى أى خطة ضد مصر ..

ولكن امريكا كانت ، كما سبق ، تعرقل تسليم الاسلحة الى اسرائيل ..

كذلك كان موسى شاريت — فى رأى المؤلف — ضد أى محاولة غزو عسكرى . صحيح انه طرق كل الابواب لشراء الاسلحة . وانه اقتحم مؤتمر جنيف لفتح ملف اسرائيل أمام مولوتوف وايدن وماكميلان وبيناى وادجار فور .. للدفاع عن اسرائيل التى تعرضت للهجوم : فشاريت كان يعتقد دائما أن الامم المتحدة والقانون الدولى والرأى العام العالمى تشكل كلها عقبة خطيرة فى وجه مثل هذا العمل . وان الدول الاسيوية الافريقية بالذات سوف

يكون رد فعلها غاية فى السوء . وشاريت يعتقد دائما ان العالم الاسيوى الافريقى يمكن أن يكون عالما صديقا لاسرائيل « مسالمة » لا محاربة ، وانه يمكن ان يسهم فى تحويل علاقة اسرائيل بالعرب

ولكن شاريت كان الاضعف . فكان عليه ان يرضخ لبن جوريون أو يرحل . وقد آثر أن يرحل ، فاستقال يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦

قال بن جوريون يومها : ان المخاطر الجديدة توجب خلق انسجام كامل بين وزارتى الخارجية والدفاع . ان وزارة الخارجية فى حاجة الى قيادة جديدة تماما . ولهذا يجب على شاريت ان يستقيل

وبهذا بدأت اسرائيل تستعد جديا لشن الحرب : حرب وقائية صغيرة اما أن تفرض بها الصلح على العرب واما أن تضمن لها الهدوء بضع سنوات أخرى

وفى هذه الظروف جاءت أزمة السويس

يؤكد المؤلف هنا : أن الازمة لم تغير موقف اسرائيل . فاسرائيل كانت ستشن هجومها المسلح على مصر على أى حال . ولكن ازمة السويس سهلت لها أصعب مهمة وهى الحصول على الاسلحة بكميات وفيرة ..

***

ليلة ٢٦ يوليو .. نفس الليلة العجيبة التى اعلن فيها عبد الناصر تاميم شركة قناة السويس كان شيمون بيريز فى باريس ..

وفى اليوم التالى ، واسم مصر يملأ كل الصحف ، ذهب بيريز الى وزارة الخارجية الفرنسية وفى ذهنه سؤال واحد : هل يغير هذا الحادث ، أخيرا ، برود وزارة الخارجية الفرنسية تجاه اسرائيل ، ورغبتها المستمرة

فى التفاهم مع العرب ؟

ولكنه خرج بلا نتيجة ..

ومن يومها ، لم يطرق بيريز باب وزارة الخارجية . بل ان اتصالات اسرائيل كلها برئيس الوزارة ووزير الحربية والقيادة الفرنسية جرت فى سرية تامة عن وزارة الخارجية .. من يومها لم تعرف وزارة الخارجية الفرنسية شيئا

قال كريستيان بينو « كانت الكاى دورسيه تعارض السويس . ان أحدا فيها لم يعرف السر أبدا . بل اننى كنت أذهب الى الاجتماعات الخاصة بهذا الموضوع بمفردى ، وأنا أقود سيارتى بنفسى ، وأنظر خلفى حتى أتأكد من ان أحدا لا يتبعنى »

فاذا اجتمع بينو بأحد فى بيته .. اجتمع به فى الشقة الخاصة .. وفى حجرة نومه بالذات .. حتى لا يثير الشبهات !

ولكن، حتى ذلك الوقت لم تكن فكرة التعاون العسكرى فى عملية حربية قد طرحت . صحيح أن خطوات خطيرة كانت قد اتخذت ، ولكن عدا هذه الخطوة

من هذه الخطوات الخطيرة : انشاء « قيادة عسكرية سرية » تختص بموضوع العلاقات الفرنسية الاسرائيلية!

ولكن فرنسا ، طوال هذا الوقت ، كانت ماضية فى السر فى تخطيطها المشترك مع انجلترا ، محتفظة باسرائيل فى يدها الاخرى . لربما تحتاج اليها اذا فشل تخطيطها مع انجلترا لسبب أو لاخر . واسرائيل نفسها لم تكن تفكر فى عمل عسكرى مشترك : انها تريد فقط الاسلحة لتتابع حربها الخاصة بها

كل ما كان يعرفه بينو هو : ان اسرائيل تريد الاسلحة

لتقوم بحرب منفردة ضد مصر . عندما يصل انشغال امريكا بانتخابات الرئاسة الى اقصاه

وهكذا تمت الصفقة الكبرى للاسلحة فى ذلك الاجتماع السرى ، يوم ٧ اغسطس ..

وعرف أن انجلترا تؤيد هذه السياسة ..

وبعيدا عن اى اجهزة اخرى فى الدولة كان جى موليه وبينو ، وبورجيس مانورى ، والقيادة العسكرية .. يفاوضون الاسرائيليين راسا ، ويعطونهم كل ما يشاءون من سلاح . « وأصبح هذا الامر روتينا عاديا . انفرنسا واسرائيل لهما الان هدف موحد تماما ، هو : « قهر مصر » . فلم تعد هناك أى عقبة على الاطلاق ، تعرقل تسليم الاسلحة الى اسرائيل

وفى سبيل تسهيل تسليم الاسلحة الى اسرائيل ، لجأت الحكومة الى اساليب لا سابق لها ولا مثيل فى تاريخ الدول ..

فاذا كان الاتفاق الاول ينص على تسليم ٢٤ طائر مستير .. فتزوير بسيط فى الاذن ، يتحول الرقم الى عشرات ومئات ..

أو يستخدم نفس الاذن ، اكثر من مرة ، وفى كل مرة تسلم مصانع « مارسيل داسو » ـ الرجل الذى خطفت احدى العصابات زوجته فى باريس منذ مدة ـ ما تحتوى عليه الاذون المزورة . بناء على تعليمات صريحة من الحكومة الفرنسية ..

وكانت الطائرات تهبط فى شمال افريقيا ، أو فى برنديزى فى ايطاليا . بعد أن اغمضت حكومة ايطاليا عيونها على « هجرة هذه الطيور النفاثة الى اسرائيل » على حد تعبير المؤلف .. !

يروى السفير الفرنسى فى اسرائيل « جلبير العنيد » أنه كان يقف فى مطارات اسرائيل مع بيريز ، ومع ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل الحالى ووزير المالية فى ذلك الوقت ، يرقصون طربا لمشهد وصول الطائرات « المستير ٤ » .. وكلما هبطت طائرة . صاح بيريز فى وزير المالية : وهذه ربع مليون دولار أخرى وفرتها عليك ! » ..

وعلى أمواج البحر ، تأتى سفن حربية فرنسية لتعزيز السلاح البحرى الاسرائيلى ، ثم يرتدى بحارتها الفرنسيون ثيابا مدنية ويتركونها فى تل أبيب ، ويعودون من طريق استانبول ، الى فرنسا ...

وخلال ليال طويلة ، تشحن الناقلات الضخمة الرابضة فى موانىء فرنسا بالدبابات ، والمدافع ، وصناديق قطع الغيار ، ثم تبحر تحت جنح الليل الى اسرائيل ..

أما على شواطىء اسرائيل • فكانت السرية تتم بطريقة أخرى ..

كانت احدى فرق دبابات الجيش الاسرائيلى تأتى الى منطقة معزولة على الشاطىء وتعسكر فيها . وتقوم طول النهار بمناورات حامية ، حتى اذا جاء الليل ، اقتربت من الشاطىء تلك السفن الفرنسية المشحونة بالدبابات والمدافع . وتتم عملية التفريغ طول الليل ، وتبحر السفن . وتتحرك الاسلحة الجديدة الى النقب . دون ان يعرف اهالى القرى الفرق بين اسلحة المناورات والاسلحة الجديدة ..

ومن أهم الاسلحة التى نقلت بكميات ضخمة ، مدافع S.S. — 10 الصاروخية المضادة للدبابات ، التى أراد الغرب أن يجربها فى الدبابات السوفييتية خلال معركة سيناء ..

وقد بلغ من سرعة نقل الاسلحة ، وكثرة كمياتها ، ان فرنسا لم تسئل اسرائيل عن الرقم الحقيقى للاسلحةالتى وردها اليها . الا بعد انتهاء حرب السويس كلها بشهور!

ولم تكن فرنسا حتى ذلك الوقت تفكر فى تحالف طويل المدى مع اسرائيل : ففي حالة ما اذا تقرر القيام بهجوم مع بريطانيا من قاعدة قبرص ، فساعتها كانت فرنسا سوف تشرح الامر لحلفائها البريطانيين — اى انها كانت تفضل أن يتم الامر بدون اسرائيل . وهذا ما كان يقلق اسرائيل جدا ، التى كانت تريد ان تشترك فى الحرب ، لحساب نفسها

ولما يضيق صدر فرنسا باعتراضات دالاس ، وبتردد انجلترا ، كانت تميل بشدة الى فكرة القيام بحرب منفردة مع اسرائيل

كانت الاحتمالات هى : هجوم فرنسى اسرائيلى على حدود مصر من النقب . وهجوم اسرائيلى منفرد على الاردن لايقاف الانتخابات التى كانت على وشك الاجراء والتى كانت ستقرب ما بين الاردن ومصر . وارسال سفن الى القناة ، لتعترض مصر على مرورها ، وتكون الحرب الشاملة

كانت الخطط تتبلور فى بطء ، وفى ارتباك أحيانا ..

وفى ٢٠ سبتمبر هبط فى مطار تل ابيب وفد فرنسى رسمى ، من بين أعضائه بالتأكيد آبل توماس والكولونيل مانجان ومع الوفد خطة عامة : أن تقوم اسرائيل بهجوم مباشر على مصر . أما مساعدة فرنسا فلن تقف عند حد الاسلحة ، والتأييد الدبلوماسى فقط ، بل ان سلاح الطيران الفرنسى والاسطول الفرنسى يمكنهما المشاركة فى تأييد الجيش الاسرائيلى وحماية اسرائيل من رد الاسلحة

المصرية وقاذفات ناصر . ثم يصحب هذا التدخل مباشرة تدخل انجليزى فرنسى على أرض مصر ، مع انزال قوات مشتركة . أما الموعد التقريبى المحدد ، فهو أول نوفمبر»

وتكونت فى فرنسا « حكومة داخلية » لهذه الحرب من : جى موليه رئيس الوزراء ، بورجيس مانورى وزير الحربية ، كريستيان بينو وزير الخارجية ، لاكوست حاكم عام الجزائر « ! » وشابان دالماس رئيس مجلس النواب . وفى رواية أخرى أن دالماس كان يجرى اخطاره بالخطوط العامة فقط ، بسبب علاقته بديجول ، حتى يكون الجنرال على معرفة بالامر

كانت «حكومة الحرب» هذه قد اقتنعت بعد فشل مهمة بعثة منزيس وفكرة جمعية المنتفعين بالقناة أن التدخل المسلح بحجة القناة أصبح صعبا ، فلم تبق حجة لهذا التدخل الا قيام حرب بين مصر واسرائيل ..

وتأكيدا للخطة ، قام جسر جوى بين باريس وتل ابيب : اسفار يومية يقوم بها الجنرالات الفرنسيون والاسرائيليون لدراسة الخطة واستكمالها . أبرز هؤلاء كانوا الجنرال شال وجوهر من فرنسا نفس الجنرالين اللذين قادا العصيان المسلح فى الجزائر ضد ديجول ، ثم حكم عليهما بالسجن بعد ذلك وموشى ديان وبيريز وبن ناثان من اسرائيل

وفى مبنى وزارة الدفاع الفرنسية ، شارع سان دومنيك ، اقيمت محطة ارسال تكون على صلة دائمة بتل أبيب

وفى يوم ١٠ اكتوبر ، تم الاتفاق على كل التفاصيل : بما فى ذلك نقل ورشة فرنسية كاملة لاصلاح الطائرات من « ريمش » الى اسرائيل ..

كل هـذا وفرنســا واسرائيل يؤرقهما شيء هام هو : موقف انجلترا ..

ان عدم اشتراك انجلترا فى الهجوم معهما يعطيها حرية تصرف تسمح لها بعرقلة كل شيء ، لو ارادت

ثم ان اسرائيل كانت تضع فى مقدمة شروطها للهجوم على مصر : تدمير كلّ المطارات المصرية من أول يوم ، منعا لحركة طائرات عبد الناصر . وفرنسا ليس لديها قنابل حديثة ، فى حين أن بريطانيـا تملك قاذفات « كانبيرا » الشهيرة ..

وكانت انجلترا تعرف بأن ثمة مفاوضات بين اسرائيل وفرنسا . ولم تكن تعترض . ولكن بقى أن تلتقى أطراف المثلث الثلاثة وجها لوجه انجلترا وفرنسا واسرائيل

وانطلق كريستيان بينو يعمل !

كانت هناك اذن عمليتان منفصلتان ، كل منهما تستعد لغزو مصر . عملية اسرائيلية ـ فرنسية وعملية فرنسية ـ انجليزية وقـد حاول الانجليز أن تنفـذ العمليتـــان منفصلتين ، حتى لا تتهم بالتآمر مع اسرائيل ، بينمـــا صممت اسرائيـــل على أن يلتقى الثـلاثة وجهـا لوجه ، ويعملون معاً .. وهذه هى القصة ..

***

فى نهاية سبتمبر ، وصل الى اسرائيل ضابط انجليزى يهودى اسمه الكولونيل روبرت هنريك . وعلى الفــور ذهب الى لقاء بن جوريون

كان يحمل رسالة سرية جـدا من الحكومة الانجليزية تقول : ان انجلترا تحـذر اسرائيل من اى هجــوم على الاردن . وهى تبلغ اسرائيل انه لا مانع لديهـا ، فى حالة

هجوم انجلترا على مصر ، أن تبادر اسرائيل بدورها بالهجوم . فى هذه الحالة سوف يكون على انجلترا ان تستنكر - علنا - هجوم اسرائيل على مصر ، وتستنكره بكل شدة .. ولكنها ساعة ابرام الصلح تتعهد بأن تحصل على احسن شروط ملائمة لـ « اسرائيل !! »

استمع بن جوريون الى هذه الرسالة وسكت

ان انجلترا تعرف نصف الحقيقة . تعرف أن هناك تحالفا مسلحا بين فرنسا واسرائيل ، ولكنها لا تعرف أكثر من ذلك .. لا تعرف أن التحالف يشمل « القيام بعمل عسكرى مشترك » .. فقد كان الجانب الفرنسي يخاف أن تفضل انجلترا فى اللحظة الاخيرة عدم المغامرة بمصالحها فى البلاد العربية فتعدل عن الحرب ، لهذا آثر أن يبيتها فى الظلام

***

وقد صدق ظن الفرنسيين ..

فبعد فشل شكوى انجلترا وفرنسا ضد مصر فى مجلس الامن ، طار ايدن وسلويد لويد الى باريس يوم ٢٦ . كان يبدو أنهما تراجعا عن فكرة الحرب وأخذا يبحثان عن مخرج كريم من الازمة كلها

وكان لدى ايدن اقتراح محدد :

ان هناك انتخابات على وشك أن تجرى فى الاردن . وكل التقارير تدل على أن أصدقاء عبد الناصر سوف يكتسحونها . والحل هو أن تدخل القوات العراقية ، قوات نورى السعيد الاردن ، وتمنع الانتخابات وتخلق ظروفا جديدة تسمح بضم الاردن الى حلف بغداد ، ان هذا سيكون ضربة قاصمة لعبد الناصر ذهب ايدن الى

حد القول بانها قد تسقطه فى مصر . أو على الاقل تنتقم من تأميم شركة القناة . وفى ظل هذا يمكن التفاوض معه بشأن القناة ..

ولكن هذه الخطة تحتـــاج الى مساعدة فرنســا .. كيف ؟ .. ان فرنسا عليهـا أن تقنع اسرائيل بعــدم الاعتراض على دخول القوات العراقية الى الاردن

ولكن جى موليه رد على طلبات ايدن ردا عنيفا ..

قال له : ان هذا كله حل لا تجنى فرنسا أو اسرائيل من ورائه شيئا . ولو ضغطت فرنسا على اسرائيل على هذا النحو فلن تقبل اسرائيل أن تشترك مع فرنسا مرة اخرى فى عمل ضد عبد الناصر . ثم ان القيام بانقلاب فى الاردن لا يؤدى الى اسقاط عبد الناصر ، واسقاط عبد الناصر هو الهدف الرئيسى للسياسة الفرنسية الان

وبعد مناقشات دامت عشر ساعات ، لم يصل الطرفان الى شيء . ولكن هذا الحوار كان له اثر واحد : هو اندفاع فرنسا أكثر وأكثر فى طريق الاعتماد على اسرائيل ، حتى وصلت الى اتفاق ١٠ اكتوبر سنة ١٩٥٦ .. الذى سبق ان اشرت اليه

أما اسرائيل ، فمضت في تحرشاتها على طول الحدود الاردنية : لقد اكتشفت أن هذا يساعد على تحويل الانظار عن ترتيباتها لغزو مصر . وفى منتصف أكتوبر ، سكتت انجلترا بدورها على هــذه التحرشات ، اذ كانت قــد انضمت الى فرنسا واسرائيل ، واكتمل المثلث

وطار بينو ومعه الجنرال شال الى لندن يحاولان اقناع انجلترا مرة أخرى . ولكن الذى اقنع انجلترا نهـائيا فى راى المؤلف هو تأكدها ان اسرائيل مصممة نهـائيا على الهجــوم على مصر . ففى يوم ١٥ أكتــوبر ، وفى وسط

اتجاه الانظار الى الاصطدامات على حدود الاردن ، قال بن جوريون : « لا يجب أن ننسى أن العدو الاول لنا هو مصر » . وبعد ساعات من هذا التصريح ، كان ايدن يتصل تليفونيا بموليه ويخطره انه آت الى باريس فى اليوم التالى

وفى غرفة مغلقة ، اجتمع ايدن ولويد وموليه وبينو . وبعد انتهاء الاجتماع طارت الى بن جوريون برقية سرية تقول له « تستطيع أن تثق تماما من موقف بريطانيا »

لقد نشر فى الصحف صبيحة هذا الاجتماع ، ان موضوعه كان أزمة الحدود بين الاردن واسرائيل . وهذا غير صحيح . ففى هذا الاجتماع اتخذ قرار خطير : الهجوم على السويس !

ففى هذا الاجتماع ، أخطر الفرنسيون ايدن ولويد عن نية اسرائيل الحاسمة للهجوم . وبعد تردد طويل ، ورفض من جانب لويد ، قبل ايدن الاشتراك فى الغزو . .

أما حجة الغزو ، وهى ارسال سفينة اسرائيلية الى القناة تقوم مصر بمنعها من المرور ، فقد رفضها الانجليز بتاتا . ثم قبلوا أن تكون ذريعة التدخل هى « حماية القناة من القتال بين مصر واسرائيل »

واتفق الطرفان على ان يتم فى هذه الحالة تنفيذ الهجوم طبقا لخطة « موسكتين المعدلة » وقد أشرت اليها أيضا فى الأسبوع الماضى

واشترط الانجليز ، الا يقوم أى تنسيق بينهم وبين اسرائيل ، انما تنفرد فرنسا فى التآمر مع اسرائيل ، وتظل انجلترا بعيدة تماما عن المؤامرة ، انما تشترك مع فرنسا فقط فى القسم الثانى وهو : التدخل فى القناة لحمايتها من القتال !

كان هم الانجليز : الا يتورطوا فى اى عمل يقيم الدليل على تآمرهم مع اسرائيل ، خشية ان يعصف هذا بمصالحهم فى العالم العربى

ولكن مع تقدم الخطة ، وضرورات التنسيق ، لم يكن هناك مفر من انغماس انجلترا مع اسرائيل فى المؤامرة ذاتها ..

صاح وزير فرنسى فى المؤلف « الانجليز لايعرفون عن اتفاقنا مع اسرائيل ؟ .. كيف ؟ .. اننا لم ننفرد باسرائيل بعد ذلك فى أى اجتماع الا نادرا ! »

قال بول جونسون مؤلف كتاب « حرب السويس » : ان البرقيات الفرنسية الاسرائيلية التى التقطتها المخابرات الامريكية تؤكد علم انجلترا بكل التفاصيل » ..

منذ ١٦ اكتوبر ١٩٥٦ ، بدات أداة الحرب المثلثة تدور بسرعة .. فى مقر القيادة البريطانية ، يعاد النظر فى خطة « موسكتير » لتلائم المنظر الجديد : منظر التدخل « للفصل » بين قوات مصر واسرائيل . اجراءات أمن هائلة . برقيات الشرق الاوسط تنقل من الخارجية وتصبح فى يد السكرتارية الخاصة لرئيس الوزراء بمفرده . دبلوماسيون كثيرون انجليز تنقطع عنهم كل المعلومات عن الشرق الاوسط . خبير فى الوزارة فى الشئون العربية يمنح اجازة طويلة .. عدد آخر من الرسميين تاتيهم دعوات مفاجئة للسفر الى الخارج وترك العاصمة البريطانية حتى لا يعرفوا ويعارضوا . سير والتر مونكتون وزير الدفاع يستقيل يوم ١٨ اكتوبر لانه عارض فى الغزو ، فيحل محله انطونى هيد المتحمس للقتال ..

وفى يوم ١٧ اكتوبر تستدعى اسرائيل سفراءها من

لندن وباريس وموسكو وواشنطن . ويقوم حاجز من الكتمان حول سفراء أمريكا وملحقيها العسكريين فى لندن وباريس وتل أبيب .. الملحق العسكرى الامريكى فى تل أبيب يكتب الى حكومته ملاحظا ان الملحقين الانجليزى والفرنسى قد انقطعا عن رؤيته وبدءا يتشاوران ويسافران بمفردهما . بعد ان كان الثلاثة على اتصال دائم .. المخابرات الامريكية فى روما تلاحظ زيادة غير عادية فى البرقيات الشفرية المتبادلة بين باريس وتل أبيب ..

***

من واشنطن ، يصف المؤلف الآخر ، هيرمان فينر نفس اللحظة فى العاصمة الامريكية : دالاس غاضب ثائر على توقف انجلترا وفرنسا عن تداول معلوماتهما مع أمريكا كالعادة . لا تقارير قط تأتى من سفرائه فى لندن وباريس .. وهو لا ينقطع عن أبداء شكوكه فى الامر

وفى نفس الوقت بدأت تحركات كبرى لتركيز القوات الفرنسية الانجليزية فى قبرص ومالطة : فى وضع استعداد حاسم أمام بور سعيد ..

ويسأل الضباط الانجليز : ما هو موعد الغزو ؟ فيقول لهم الساسة : سنخطركم قبله بأسبوعين !

والواقع ان الموعد ظل يتأرجح زمنا طويلا . كان الموعد المفضل هو يوم ٦ أو ٧ نوفمبر ، أى يوم انتخابات الرئاسة فى أمريكا بالضبط . ولكن تحديد الموعد فى النهاية تم بطريقة درامية مثيرة ..

فى احدى الليالى هبطت فى مطار اسرائيل الطائرة الضخمة «DC 4» التى كان الرئيس ترومان قد

أهداها للجنرال ديجول . ونزل منها الكولونيل مانجان . وبعد ساعات كانت الطائرة تعود الى فرنسا وتهبط فى مطار « فيلا كوبلاى » الحربى بالقرب من باريس ، وينزل منها ثلاثة اسرائيليين ..

وصاح جى موليه الواقف عند سلم الطائرة : كيف لا يعرف الناس بن جوريون بشعره المنكوش الابيض وموشى ديان بالعصابة السوداء على عينيه !

وكان معهما أيضا سيمون بيريز ، وعلى الفور ، توجه الجميع الى بيت قريب منعزل ، تحت كتمان مطلق وحراسة مشددة ..

***

لماذا جاء بن جوريون الى باريس فى هذا الوقت ، وبهذه الطريقة التى دمغت المؤامرة كلها امام التاريخ ؟ .. لماذا وقد أصبح كل شيء معدا للعمل ؟ ..

قال جى موليه بعد ذلك مرة : « لم يكن ممكنا أن أقدم على هذا العمل الخطير دون أن أرى بن جوريون وجها لوجه »

وقال مرة أخرى : « لقد جاء بن جوريون يقول لى ان عبد الناصر لديه ١٢٠ طائرة ميج و٨٠ طائرة اليوشين ومعنى هذا ان اسرائيل ستضيع ! لقد انقذت اسرائيل فى سنة ١٩٥٦ » !

ولكن ألم ترسل فرنسا طائرات الميستير الى اسرائيل بكميات وفيرة من قبل ؟ ..

الواقع ان بن جوريون قد وجد فى اللحظة الاخيرة ان هذا كله ليس كافيا ! ان مصر تملك قاذفات قنابل مخيفة

أسرع من الصوت . فى دقائق تستطيع ان تكون فوق تل أبيب وحيفا وبئر سبع وتدمرها دون ان يكون لدى اسرائيل أى دفاع ضدها ..

وقرر بن جوريون ألا يتحرك قبل أن يضمن « مظلة جوية » تحميه . ان انجلترا وفرنسا ستتدخلان حقا بعد ان يشتبك هو مع القوات المصرية بقليل ولكن ماذا عن الساعات الاولى ، التى ستكون فيها اسرائيل بمفردها ضد مصر ؟ . ماذا عن « الصدمة الاولى » للقتال مع مصر ، واسرائيل وحدها ؟ ...

ثم .. الانجليز ؟ هلّ يضمنهم بن جوريون حقا ؟ .. أو أنهم يمكن ان يتخلوا عنه فى اللحظة الاخيرة ؟ ..

وبسرعة تأكد بن جوريون من جى موليه واطمأن : ستزوده فرنسا بمظلة جوية وبحزام بحرى

ومع ذلك لم يطمئن . بل طلب طلبا آخر : طلب تدمير كل المطارات المصرية فى الساعات الاولى للقتال ..

ولكن فرنسا ليس لديها طائرات من قاذفات القنابل البعيدة المدى • لا بد من الحصول على طائرات « كانبيرا » الانجليزية . فهل يرضى الانجليز ؟ ..

بعد ساعة ونصف ، وصلت المؤامرة الى قمتها ، فقد انطلقت السيارات بالفرنسيين والاسرائيليين الى بيت قريب فى منطقة « سيفر » فى ضواحى باريس ، حيث التقى الكل بسلوين لويد وعدد من أقرب مساعديه ..

فى أول أكتوبر تم اتفاق فرنسا واسرائيل

فى نصف أكتوبر تم اتفاق فرنسا وانجلترا

الآن ، يتم لقاء الثلاثة معا ، فى مكان واحد ..

أخيرا ، التقى الانجليز ، أساتذة فن المراوغة ، وجهـا

لوجـه مع بن جوريون ، الامر الذى كانوا لا يريدونه قط ..

كان ذلك يوم ٢٣ أكتوبر . وبعد اللقاء مباشرة طـار سـلوين لويد الى انجلترا وترك مسـاعديه . وبقى بن جوريون فى فرنسـا يومين ، حتى جاء رد لويد الى مساعديه ..

لقـد تم الاتفـاق فعلا على تدمير المطارات المصرية فى الساعات الاولى حتى تتوفر الحماية لاسرائيل .. وتم الاتفاق على صيغة الانذار الفرنسى البريطانى الذى سيوجه الى مصر واسرائيل . وعلى موقف الدولتـين فى الامم المتحدة . واتفق أيضا على تقديم موعد الغزو : فروسـيا مشـلولة بحكم أحـداث المجر وأمريكا مشـلولة بحـكم انتخابات الرئاسة . وعلى هذا تقرر انتهاز الفرصة وأن يكون الموعد هو ٢٩ أكتوبر ..

تم الاتفاق من ٣ نسخ . ولا شك ان انجلترا وفرنسا قد أحرقتا الآن نسختيهما اللتين تدلان على اغرب مؤامرة فى التـاريخ الحـديث

ولكن المؤكد أن بن جوريون يحتفظ بنسخته الثمينة ، عليها توقيع سلوين لويد ، فى مكتبه !

وفى اليـوم التـالى عاد بن جوريون الى تل أبيب ، واعلنت اسرائيـل التعبئة العـامة ، وأخطرت القيـادة الفرنسية البريطانية بموعد الغزو . وتحركت فعلا عجلة الحـرب ..

وقفة قصيرة ، قبل استئناف القصة مع المؤلف عنـد هذه اللحظة التاريخية الرهيبة . اللحظة التى تورط فيها المتآمرون حتى قمة رءوسهم ..

يتساءل المؤلف :

ـ ما هى الاهداف التى يريد الغزاة تحقيقها بهذه الحرب التى يستعدون لها ؟ ما الذى دفعهم الى هذا الموقف البالغ الخطورة ؟

يجيب المؤلف :

ـ بالنسبة لاسرائيل الهدف بسيط وواضح :

ضرب قوة الجيش المصرى . وتدمير الاسلحة الروسية المكدسة . والقضاء على مواقع « الفدائيين » الذين يتسللون منها الى اسرائيل ، وقتل القيادة العسكرية المشتركة « المصرية السورية الاردنية » وهى فى المهد ، تلك القيادة التى كان يجب ان تصبح قائمة ابتداء من يوم ٢٨ اكتوبر الى قبل الغزو بيوم واحد . كذلك كانت اسرائيل تريد كهدف بعيد المدى : اسقاط حكم عبد الناصر واقامة حكم أكثر اعتدالا ..

ويزعم المؤلف ان اسرائيل ، لهذه الاسباب ، لم تكن مرتاحة الى اشتراك انجلترا وفرنسا معها فى الحرب . فهذا سوف يوسع المسألة . ويسلب اسرائيل ميزة احراز النصر بمفردها . فضلا عن ان هذا يربطها بقضية الدول الاستعمارية . انها كانت تفضل أن تخوض الحرب بمفردها ، وانجلترا وفرنسا تساعدانها عسكريا وسياسيا من وراء ستار فحسب . ومع ذلك ، فهى ازاء المزايا الكبرى التى كانت تعود عليها من الغزو الثلاثى ، مستحيل ان ترفض هذه الشركة ..

وقد بقى أمر الحرب سرا ، الا بالنسبة لعدد قليل من وزراء حزبى « ماباى » و « احدوت أفودا » . أما الباقون فلم يعرفوا الا يوم ٢٨ أكتوبر ، أى ليلة الغزو . وزارة

الخارجية باستثناء جولدا مايير لم تكن تعرف . السفير الاسرائيلى فى باريس كان يعرف عن أمر التسليح لا غير

يروى المؤلف ان بن جوريون عقد اجتماعا لسفراء اسرائيل فى انجلترا وفرنسا وامريكا يوم ١٧ اكتوبر . وفى اثناء المناقشة سألهم بن جوريون عرضا : « وماذا تظنون يكون رد فعل الدول الكبرى لو اضطرت اسرائيل الى مهاجمة مصر ؟ »

ورد السفراء جميعا قائلين ان هذا سوف يكون كارثة ! وسوف تعترض كل الدول الكبرى على موقف اسرائيل

وكتب بن جوريون على ورقة أمامه « هل نقول لهم ؟ » وأعطى الورقة لجولدا مايير الجالسة معهم ، فردتها اليه بتعليق يقول « قطعا لا » .. فلم يقل لهم شيئا ..

أما موسى شاريت ، رئيس الوزراء السابق ، فلم يعرف الا من نهرو ، اذ كان مجتمعا معه فى نيودلهى ساعة جاءت اول أنباء الغزو !

هذا عن اسرائيل ، فلماذا ذهبت فرنسا الى الحرب ؟ ..

يعدد المؤلف الاسباب بترتيب أهميتها كالآتى :

أولا ـ الجزائر . فقد ظن الفرنسيون ان اسقاط عبد الناصر هو الطريقة الوحيدة لاخماد ثورة الجزائر

ثانيا ـ ان التأميم كان انتصارا « عربيا » ..

والعروبة فى رأى بعض الفرنسيين هى الخصم الاول لفرنسا فى العالم الاسلامى

ثالثا ـ شركة قناة السويس ومساهموها الاقوياء والصغار على السواء ، وقدرتهم على الضغط على الحكومة

رابعا — حاجة فرنسا النفسية الى نصر عسكرى بأى شكل بعد هزائمها الطويلة فى ساحات القتال من الهند الصينية شرقا الى المغرب العربى غربا

ان ايدن فى رأى المؤلف لم يكن متحمسا أول الامر . وحين اندفع فى المغامرة تشققت من حوله الجبهات : فى داخل الوزارة ، كان يؤيده دنكان ســـانديز وماكميلان وانطونى هيد ، بينما كان يعارضه ناتنج ، ويعارضه بشدة ريتشارد بتلر « ولى العهد » داخل حزب المحافظين فى ذلك الوقت ، فى حين ظل سلوين لويد مترددا

وفى الجيش البريطانى أيضا كله ثمة أكثر من رأى • فريق يتزعمه لورد مونتباتن ويعـــارض الغزو أصــلا . وفريق يتزعمه الجنرال تمبلر يؤيد فكرة الحرب ولكن يعــارض فى الذهاب الى الحــرب جنبــا الى جنب مع اسرائيل ••

فماذا كانت العلاقة بين « الحلفاء الثلاثة » ؟

يقــول المؤلف ان التحــالف والتفــاهم بين فرنســا واسرائيل كان قويا للغاية . أما انجلترا فكانت هى العنصر القلق فى الحلف الثلاثى • كانت تشعر أن بين فرنســـا واسرائيل روابط لا تعرفها كلها • وكان هذا يقلقها • وفى نفس الوقت كانت لا تريد أن تدفع ثمن المعــرفة ، وهو الاشتراك الكامل ، لانها ظلت مهتمة بأن تتحاشى أى شىء ينم عن تآمرها مع اسرائيل مقدما خشية رد الفعل لدى العالم العربى

لهذا التقى الساسة الانجليز والاسرائيليون واتفقوا . ولكن العسكريين لم يلتقوا قط • فكان هناك حربان : حرب فرنسية انجليزية فى بور سعيد • وحرب اسرائيلية فى سيناء والانجليز مرتبطون بالاثنين •• ولكنهـــــم

يحاولون ألا ينم أى شيء عن هذه الرابطة ..

ثم يقف المؤلف عند نقطة بالغة الاهمية : هل كانت امريكا تعرف انثمة هجوما على سبيل اليقين ، وبالتالى كان فى امكانها ايقافه ، أم انها لم تكن تعرف ؟

يروى المؤلف ان وزيرا فرنسيا قال له :

ــ ان دالاس كان يعرف بالتأكيد : لقد حرصنا على ان نجعل الامريكان يعرفون .. بشرط الا يعرفوا بشكل رسمى ، حتى لا تكون لديهم ذريعة رسمية لتعطيل الهجوم : لقد كان الن دالاس ، أخوه ، يعرف بأن هناك ترتيبات ضخمة تتخذ للحرب ، هل معقول انه لم يقل له ؟ ..

اذن ، هل يكون ايزنهاور هو الذى قلب الامور على الحلفاء ؟ ..

ازاء هذه الاسئلة ، أعود مرة أخرى الى الكتاب الاول « دالاس والسويس » ، الذى يروى القصة من الجانب الآخر للمحيط ، من الولايات المتحدة الامريكية ..

يقول المؤلف « هيرمان فينر » ، ان أنباء الاستعدادات العسكرية المريبة كانت تتسرب بالفعل الى امريكا ..

ففى باريس ، أسر وزير فرنسى بالانباء الى دوجلاس ديلون وزير مالية أمريكا حاليا ، وسفيرها فى باريس فى ذلك الوقت ..

كما ان اشاعات الحرب ترددت ليلة فى ردهات البرلمان الفرنسى ، فأسرع نواب من « أصدقاء » السفارة الامريكية الى التليفونات ، يخطرونها بالامر

كما أن بعض ضباط المخابرات الفرنسية عملوا على « تسرب » السر الى زملاء لهم فى المخابرات الامريكية .. وفى نفس الوقت ، لاحظت المخابرات الامريكية فى ايطاليا

زيادة هائلة فى برقيات الشـفرة المتبـادلة عبر البحـر الابيض بين باريس وتل أبيب !

فكيف لم يتصرف دالاس فى الوقت المناسب ، لايقاف العملية ؟ ..

هناك رأى يقول ان دالاس كان يعتقد ان المحاولة لن تتم الا بعـد ٦ نوفمبر ، اى بعـد انتخـابات الرئاسـة الامريكية . وبالتالى فمن مصلحة الحكومة الامريكية أن يبدو كل شىء هادئا سلميا حتى يوم الانتخابات ، خشية التورط فى مشاكل عاتية قبلها ، بما قد يتركه هذا من أثر على نتيجتها ...

ولكن دالاس ، ابتداء من يوم ١٦ أكتوبر ، بدأ الفـأر يلعب فى عبـه . فقـد انقطعت فجـأة التقـارير السرية الانجليزية والفرنسية المعتادة . وأحس السفراء الامريكان انهم فى ظلام دامس وان المسئولين فى باريس ولندن وتل أبيب يتهربون منهم ..

ثم توالت الاحداث بسرعة مذهلة ..

ففى يوم ١٩ أكتوبر جاءت أخبار أزمة بولنـــدا مع روسيا . وجاءت تقارير تشير الى بوادر اضطرابات فى المعسكر الشرقى

هذا هو اليوم الذى كان دالاس يحلم به ، ويعمل له ، ويتنبأ به ! انه هو صاحب الرأى القـائل : ان المعسـكر الشرقى سينهار من الداخل ، وها هى نبوءته توشك ان تتحقق ..

ثم جاءت أنباء ضبط الاسطول الفرنسى لباخرة يونانية اسمها « آثوس » كانت تنقل أســلحة مصرية الى ثوار الجزائر ! وباسم مراقبـة شواطىء مصر ، ابحر الاسطول الفرنسى الى شرق البحر الابيض ، والواقع انه اتخذ الامر

ذريعة لكي ينفذ احد شروط الحرب المقبلة : حماية شواطىء اسرائيل !

وفى يوم ٢٢ اكتوبر ، نجحت فرنسا فى خطف احمد بن بيللا ورفاقه من قادة الثورة الجزائرية ، فى حادث الطائرة الشهير ، وطار الفرنسيون فرحا : انه فال حسن لحربهم المقبلة فى مصر ..

وبينما كان الفرنسيون ينقلون بن بيللا الى السجن ، يوم ٢٣ ، كان بن جوريون يصل الى باريس سرا ، فى رحلته التى سبقت الاشارة اليها ، ليلتقى بموليه وسلوين لويد ويوقع اتفاقية « سيفر » السرية

وفى ٢٣ انفجرت الاضطرابات فى المجر ! ونشب القتال المسلح فى بودابست نفسها !

هذا أسعد يوم حقا فى حياة جون فوستر دالاس ! ان وزارة الخارجية كما يقول المؤلف تفيض بالغبطة والحبور! يا لها من أيام مثيرة !

واغتبط أيضا المتآمرون .. فهذه الاحداث سوف تشل يد روسيا كما أن الانتخابات تشل يد أمريكا ! لم يكن ممكنا ان تشن حرب ضد مصر وعبد الناصر فى ظروف أحسن من هذه !

وبقدر ما اغتبطت لندن وباريس ، اكفهر الجو فى وزارة الخارجية الامريكية !

فقد جاءت رسالة من السفير الامريكى فى اسرائيل تقول ان التعبئة العامة قد أعلنت سرا هناك !

هذا آخر علامة كانت منتظرة !

واستدعى دالاس سفير اسرائيل ابا ايبان وسأله عن الامر فقال له هذا : لابد أنها عملية دفاعية !

واستدعى الدريتش السفير الانجليزى وســـأله عن التعبئة العامة الاسرائيلية ، فقال له انه لا يعلم . وكل ما يعرفه ان حكومته حذرت اسرائيل من أى عمل ضـد الاردن . فسأله دالاس : ومصر ؟ .. فقال الســفير . لا أعرف عنها شيئا !

وارسل ايزنهاور رســـائل سريعة الى بن جوريون يحذره من اى عمل مسلح ..

ولكن بعد مضي ساعات ، من آخر رسالة كتبهـــا أيزنهاور ، عبرت قوات اسرائيل حدود سيناء

***

لقد بدأت الحرب !

فماذا نفذ من تفاصـيل الاتفاق السرى .. وماذا لم ينفذ ؟

يقول « ميشيل بار زرهار » مؤلف كتاب « السويس : سرى جدا » ان التفاصيل التى اتفق عليهـــا فى باريس ولندن وسيفر للهجوم على مصر ، تم تنفيذها حرفيا ، بما فى ذلك الانذار الذى وجه من انجلترا وفرنسا يوم ٣٠ اكتوبر الى مصر والى اسرائيل ! ذلك الانذار الذى اشترك فى كتابته : جى موليه وسلوين لويد .. وبن جوريون !

وكما سبق : كان فى مقدمة هذه التفاصيل : حماية اسرائيل حماية مطلقة من بطش القوات المسلحة المصرية !

فقبل بدء الهجوم الاسرائيلى على مصر بأيام ٤ وصلت الى المطارات المجاورة لتل ابيب قوة من طائرات الميستير وطائرات ســابر ف ــ ٨٦ ، الفرنسية .. بطياريهـــا

الفرنسيين وجنودها .. بل وبعدد كبير من الميكانيكيين ، وكمية هائلة من قطع الغيار ...

جزء من هذه القوة لم يشترك فى الهجـوم على مصر ، انما كانت مهمته فقط حماية مدن اسرائيل من الطائرات المصرية : وفى كل مرة اطلقت فيها صفارات الانذار ، كانت هذه الطائرات تسرع محلقة فى الجو ..

فلما دخلت انجلترا وفرنسا الحرب رسميا بعد الانذار المزيف ، واتسع نطاق هجمات الطيران البريطـــانى على المطارات المصرية ، استطاعت هذه القوة الفرنســـية ان تتحرر من مجرد الدفاع عن المدن الاسرائيلية ، وتشـــترك اشتراكا ايجابيا الى جانب قوات اسرائيل ضـــد الجيش المصرى فى سيناء

وكانت مهمة الطيران الفرنسى الاساسية ضرب خطوط الامداد المصرية الى سيناء

***

وفجأة ، تلقى الطيران الفرنسى فى اسرائيل برقيةعاجلة من القيادة الفرنسية فى قبرص تقول « اضربوا الاقصر ! »

فقد علم الغزاة أن المدينة التاريخية فيها ممرات جوية حديثة للطائرات الاسرع من الصوت ، وأن الطـــائرات « اليوشين ٢٨ » المصرية رابضة هناك

وصرخت اسرائيل تطلب تدمير مطـــار الاقصر ووقعت مشادة عنيفة بين انجلترا وفرنسا .. لماذا ؟

السبب هو انه كان قد تم قبل العدوان تقسيم دقيق لاختصاص كل دولة فى المناطق التى تضربها بقنابلهـــا ، فلما طلبت فرنسا السماح لها بضرب الاقصر ، اعترضت

انجلترا ، وأخيرا ، سمحت انجلترا للطيران الفرنسى بأن يخترق « مجال اختصاصها لمدة يوم واحد ، يقوم خلالها بضرب الاقصر !

ولم يكن هذا هو كل ماتلقته اسرائيل من عـــون من الطيران الفرنسى فى حربها ضد مصر ، فقبل القتال وبعده كانت طائرت النقل الفرنسية تقيم جسرا جويا لنقــل الاسلحة الى اسرائيل .. كذلك فأن الطائرات التى انزلت فرق الباراشوت الاسرائيلية فى قلب سيناء كانت طائرات فرنسية . ثم جاءت طائرات فرنسية اخرى من قبرص راسا لتسقط لهم معداتهم فى وسط سيناء

هكذا كانت القوات الاسرائيلية تقاتل فى ســيناء والامدادات الفرنسية تهبط عليها من الســماء بما فى ذلك الماء والبترول وقطع الغيار والسيارات الجيب المصفحة . وقد رأى راندولف تشرشل ، الذى طــار الى اسرائيل بمجرد بدء القتال ، بنات تل ابيب يرفهن علنا عن ضباط الطيران الفرنسيين الذين يشتركون فى القتال .. كما يقول المؤلف ..

وبنفس الطريقة ، يصف الكتاب كيف ان الســفن الحربية الفرنسية الثلاث « كيرســانت » و « بوثيه » و « سيركوف » تصدت للمدمرة المصرية ابراهيم الاول وضربتها امام شاطىء اسرائيل ..

كما ان السفينة الحربية «كير سانت» مع سفينة اخرى حربية فرنسية اسمها « جورج ليجى » قامتا بضرب رفح وشاطىء سيناء من البحر لتمهيد الطريق امام الهجــوم الاسرائيلى . وكان هذا يتم ليلا ، حتى لا يعرف احد اى سفن تقوم بالضرب

وتفاصيل هذه القصص غريبة ...

ففى يوم ٢٩اكتوبر ، عصرا ، اتصل الكولونيل «نيشرى» الملحق العسكرى الاسرائيلى فى باريس بالاميرال الفرنسى بارجو قائد الاسطول الفرنسى الرابض فى شرق البحر الابيض ، وطلب منه ضرب رفح والعريش

وكان هناك فى ذلك الوقت اسطولان فرنسيان متصلان فى المنطقة : اسطول مرتبط باسرائيل رأسا ، ومهمته حمايتها من البحرية المصرية ومساعدة حملتها ضد مصر .. وأسطول مرتبط بالانجليز ويكون جزءا من القوة التى تستعد للنزول فى بور سعيد بالاشتراك مع القوات الانجليزية ..

ورد الاميرال بارجو قائلا ان سفن الاسطول الاول ليس لديها الا مدافع ١٣٧ ملليمترا وهى لا تكفى لضرب رفح والعريش ، فلابد من ضم البارجة « جورج ليجى » المزودة بمدافع عيار ١٥٢ ملليمترا حتى يتسنى القيام بالضرب

ولكن البارجة « جورج ليجى » كانت جزءا من القوة التى تستعد لغزو بورسعيد مع الانجليز يوم ٦ نوفمبر ! لهذا كان لابد من استئذان الجنرال كيتلى الانجليزى ، القائد العام للقوات الفرنسية الانجليزية التى ستغزو مصر ورد كيتلى قائلا : « لا مانع . بشرط الا اعرف هذا رسميا فكأنكم لم تطلبوا منى شيئا ، وكأننى لم أسمح لكم بشىء ! »

ومن اطرف اللحظات التى مرت بها المؤامرة ، ما حدث يوم ٤ نوفمبر

ففى ذلك اليوم ، لم تكن القوات الفرنسية والانجليزية قد بدأت بعد فى النزول فى بورسعيد ، ويومها اراد ابايبان

ان يوهم الامم المتحدة ان اسرائيل قد قضت على المقاومة المصرية فقال : لقد توقف القتال فعلا فى سيناء !

وذعرت لندن وباريس !

انهما ستغزوان مصر بحجة وجود القتال ! فماذا يريد ابا ايبان ؟ هل غدرت اسرائيل بهما ، وتلقت مساعداتهما حتى تحتل سيناء ، ثم تقول ان القتال قد انتهى ؟ .. وكيف تتدخل الدولتان الان ؟

واهتزت اسلاك التليفون بين لندن وباريس تبحث عن بن جوريون شخصيا وتسأله تفسير هذا الموضـــوع .. حتى هدأ بن جوريون من روعهم وقال انه لم يقصد بذلك الى قبول قرار وقف اطلاق النار وبالتالى ايقاف الغزو

فالغزو اذن يستطيع أن يستمر .

***

يعتقد المؤلف ان من اكبر أخطاء الغزو تردد الانجليز ، وعدم جرائهم فى « التآمر » مع اسرائيل بنفس الصراحة التى تآمر بها جي موليه معهم

كان الانجليز يستعدون للقتال وفرائصهم ترتعد من احتمال واحد : أن ينكشف تآمرهم المسبق مع اسرائيل !

ولكن المعركة كانت تقتضى مزيدا من التعاون وجها لوجه بين العسكريين الانجليز والاسرائيليين ، اذ لم يكن وقت المعركة يسمح بتوسط الفرنسيين بين الاثنين فى كل عملية حتى يظل الانجليز يزعمون أنهم غير مشتركين معاسرائيل!!

ومن اخطر اللحظات التى ترتبت على هذا الجو ، قصة غريبة يرويها المؤلف ...

فقد كان المفروض ان يبدأ انزال قوات فرنسا وانجلترا فى بورسعيد يوم ٦ نوفمبر ، ولكن ازاء تفاقم الجو الدولى خطر لفرنسا واسرائيل تقديم موعـــــد الغزو الانجليزى الفرنسي من ٦ الى ٣ نوفمبر ، كسبا للوقت .. كمـــا اقترحوا أن يتم الغزو بانزال قوات براشوت على طـــول القناة فى نفس الوقت ، لا فى بورسعيد وحدها ، ثم التقدم الى الداخل كما تقضى الخطة الاصلية : لان هذا اصـــبح تخطيطا بطيئا جدا ازاء سرعة الاحداث وتطورات المعركة

وسأل الانجليز : ولكن من الذى يمون هذه القوات ،التى ستنزل دفعة واحدة على طول القناة ؟

وكان الرد : اسرائيل .. من سيناء

وعرض الامر على القيادة البريطانية العليا فى لندن

كان معنى هذا انكشاف التآمر علنا وفى عز المعركة ...

وانقسم الانجليز ..

ولكن ضابطا معينا فى القيادة ، رأى ان هذا معنـــــاه الذهاب بعيدا فى المغامرة ، والتورط فى عمل جديد سوف يجعل انكشاف التامر محققا .. هذا الضابط هو اللورد مونتباتن

انه ليس ضابطا عاديا .. انه قائد عام الأسطول ، وقريب الملكة ، وحاكم الهند السابق ، واكبر اســـــم عسكرى فى القيادة البريطانية

ولم يضيع مونتباتن لحظة واحدة . فقد خـــــرج من القيادة العامة رأسا الى القصر الملكى حيث طلب أن يقابل الملكة فورا

وفى لهجة دراماتيكية احاط الملكة بالامر : وقال لهـا ان انجلترا على وشك ان تكشف اوراقها فى اخطـــر مغامرة اقدمت عليها ، وان نتيجة انكشاف المؤامرة مع اسرائيـــل هى : انهيار كل مصالح انجلترا فى الشرق العربى بضربة واحدة

وازاء هذا التحذير ، اتصلت الملكة اليزابيث تليفونيـا بانطونى ايدن وطلبت منه الحضور فورا الى القصر ..

وعندما وصل ايدن الى القصر ، قالت له الملكة : انهـا قــد احيطت علمــا بكل ما يدور وخصـــوصا بالخطـــوة الجديدة التى توشك الحــكومة أن تقدم عليهــا . ونظرا لخطورة هذه الخطوة الجديدة على مصالح الدولة ، فهى تطلب من انطونى ايدن أن يستشير مقدما زعيم المعارضة، هيو جيتسكيل !

وأدرك ايدن أن هذا الكلام معناه مطالبته بالتراجع عن المغامرة الجديدة داخل المغامرة الجارية بالفعل ! ذلك أن جيتسكيل كان على رأس حزب العمــال يعارض العملية كلها علنا ويشن عليها حربا شعواء ...

هكذا طلب ايدن العــدول عن الفكـــرة الفرنســـية الاسرائيلية ، والالتزام بالخطة القديمة : خطة الغزو يوم ٦ نوفمبر ، فى بور سعيد ، حتى لا ينكشف تآمر انجلترا مع اسرائيل !!

الى هذا الحد كان حرص انجلترا على أن يبقى تآمرها المسبق مع اسرائيـــل سرا لا ينكشف ! الى هـــذا الحــد كانت تعتقد أنه من السهل خداع العالم !

ان تقديم قصة الحرب ذاتها ليست مهمة بقدر أهمية قصــة الترتيبات التى سبقت الحرب : فهذه المؤامرات والترتيبات هي التى تكشف أعماق المصالح الاستعمارية، وابعاد التآمر الســياسى ، تكشف الكراهية الاستعمارية العميقة لظهور اى قوة مستقلة فى المنطقة العربية.

قصة عمرها مئات السنين ، ولكنها تتبدى فى حجمها الحقيقى من خلال قصة الشهور التى سبقت بدء العدوان المشترك على مصر ، بهدف واحــد هو ضرب الثــورة فى مصر ... وبأمل واحد هو أن يؤدى ضرب الثورة فى مصر الى انهيار كل الحركات الثورية التحررية فى كل أنحــاء العالم العربى ...

***

قال ميشيل بارزوهار ، المؤلف الاسرائيلى ، فى ختام الكتاب :

« لقد ولد الغزو ميتا ! أما الانتصار الحقيقى فقد كان انتصار عبد الناصر ، الذى خرج من المعــركة وهو بطل العالم الثالث ، أى عالم اسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ان كل عملية السويس ، التى أرادت أن تقضى عليه ، قد كللته فى النهاية بأكاليل الغار ! »

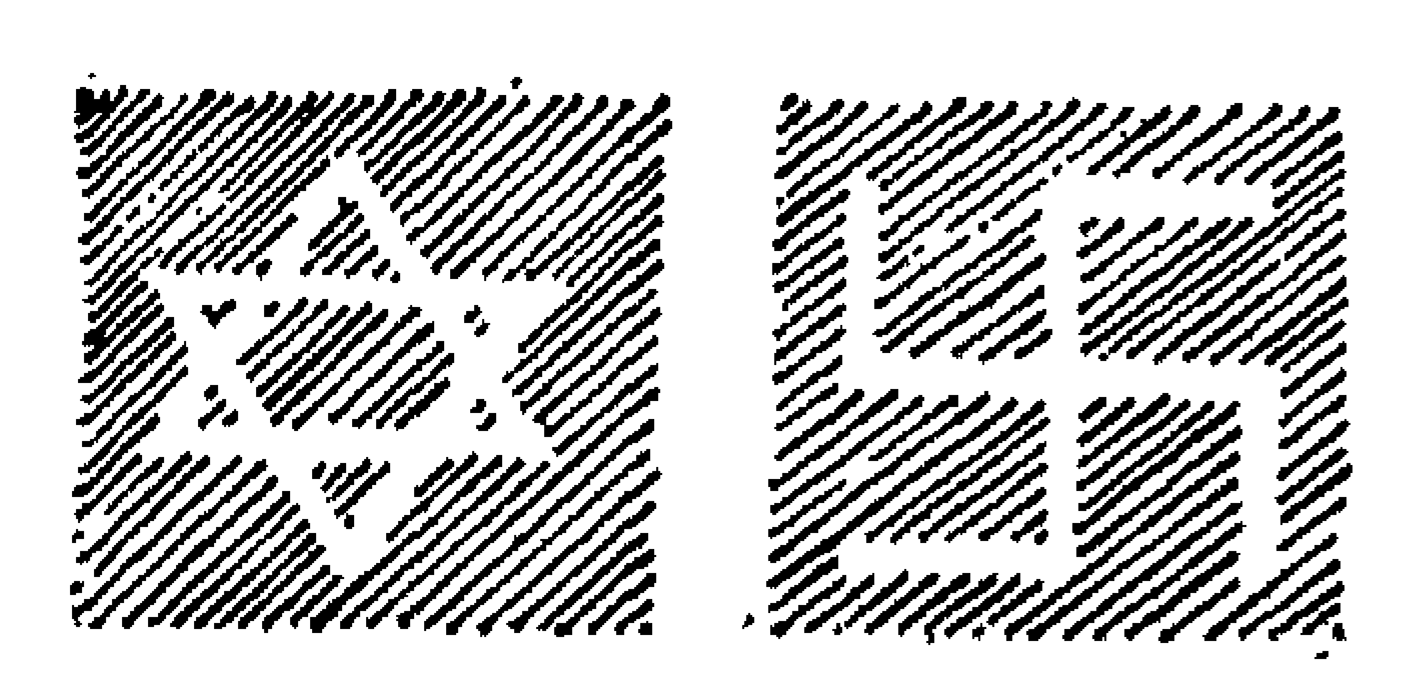
الفصل
الثامن

الصهيونية .. والنازية

إن أشد الذين يزعمون أنهم شعب مختار لهم اليهود.

إن الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما في الحضارة الغربية.

أرنولد توينبي



« ان أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود . فالحركات الصهيونية النازية سواء فى ادعاء هذه الصفة العنصرية غير الصحيحة

« ان الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما فى الحضارة الغربية: القومية العمياء، والاستعمار ! فان استيلاء الحركة الصهيونية على بيوت واراضى وأملاك ٩٠٠ ألف عربى فى فلسطين ، هم الان لاجئون ، ليس ارقى من الناحية الاخلاقية من ابشع الجرائم التى ارتكبت خلال الخمسة قرون الاخيرة بواسطة الغزاة والمستعمرين . وهذا هو حكمى الاخير على تاريخ الصهيونية فى فلسطين ..

« ان اليهود من بين كل شعوب العالم ، لهم أطول تاريخ فى التعرض للاضطهاد . وقيام اليهود بتحميل طرف ثالث مسئولية الاضطهاد الذى لاقوه على يد الغرب يشكك المرء فى الطبيعة الانسانية كلها »

ارنولد توينبى

***

قبض البوليس فى نيويورك مرة على شاب يرسم شارة الصليب المعقوف واذا به طالب يهودى ! وقد كشف هذا عن رغبة الصهيونية فى ايهام العالم بأن بذور النازية مازالت باقية تهدد اليهود .. لكى تستفيد من ذلك !

ان كراهية اليهود ، فى العالم المسيحى قديمة . فى حين لم تكن هناك كراهية قديمة بين اليهود والمسلمين ، ولا بين اليهود والعرب

وسبب كراهية العالم المسيحى الغربى لليهود ..

يرجع الى الدين • فاليهود هم الذين قاوموا المسـيح واضطهدوه وتآمروا عليه • وفى التاريخ المسـيحى أن اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه ! وهذه قصة يقرأها كل تلميذ مسيحى فى كل مكان من العالم ، خصوصا اذاكان كاثوليكيا وتستطيع ان تحس هذا بوضوح فى روما بلد البابا •• وعاصمة الكاثوليكية ! وتستطيع ان تحسه بوضوح أكثر اذا علمت بالجهود الجبارة التى تبذلهـا اسرائيل لكى تجعل الفاتيكان يعترف بها !

والمؤرخ اليهودى الفرنسى « جول ايزاك » يقول : انه من المألوف اذا طلب طفل يهودى فى المدرسة من طفـل مسيحى ان يلعب معه « ان يرد عليه الطفـل المسيحى قائلا : كلا • لانكم قتلتم المسيح !

وقد روى لى شاب ايطالى أنه كان يسكن وهو طفـل مع أهله فى عمارة كبيرة فى روما •• وفى الدور الاول من العمارة كانت تسـكن أسرة يهودية •• فكان أهله يقولون له : « اياك أن تعرف سكان الدور الاول اليهود أو تدخـل شقتهم •• والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح ! » وانه عاش سنوات يسرع فى صعود السلم عندما يعبر الدور الذى تسكنه الاسرة اليهودية !

وبصرف النظر عن الاسباب التاريخية أو الاجتماعية • فمن المؤكد ان اليهود ، على مر الزمن ، أصبحوا مجتمعا مغلقا على نفسه يقف موقف العزلة ، واحيانا العداء ، مع شعور بالتفوق ، ازاء سائر اجناس الارض وشعوبها ••

وهذه النزعة العنصرية ، تبلورت فى شكل سياسى عنصرى سافر بظهور الحركة الصهيونيه ••

ان الحركة الصهيونية لا تؤمن بأن الناس كلهم سواء،

وبأن كل انسان ينتمى الى الشعب الذى ولد فيه ويعيش فيه . انما تؤمن بأن هنـــاك صفات خاصة تجمع بين اليهود كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصـــل واحد وان الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة الوطن أو أى رابطة أخـــرى .. ولذلك فهى تدعو الى اقامة وطن قومى يكون ســـكانه يهودا وشعبه يهودا وجنســـيته اسرائيلية ! .. ومعنى هذا أيضا أن اليهودى فى المانيا او فرنسا أو امريكا يجب ان يشعر أن ولاءه الاول لدولة اسرائيل وليس لالمانيا أو فرنسا أو أمريكا !

ولا يجب أن ننسى ان الحركة الصهيونية ولدت فى أوروبا ولم تولد فى البلاد العربيـــة . انها وجدت فى أوروبا بالولادة .. ولكنها وجدت فى الوطن العربى بالغزو الخارجى والهجرة . والسبب هو أن كراهية اليهود لم تكن موجودة بين العرب ، فلم تنجم عندنا حركة صهيونيـة متعصبة ، كما نجمت فى أوروبا .. ولكنها جاءت بالهجرة والغزو مع اليهود الذين عاشوا فى أوروبا وتربت عندهم عقدة العداء والكراهيـــة والتعصب العنصرى هناك .. وبن جوريون وموشى ديان وكل أقطاب اسرائيل ليسوا من أبناء فلسطين ولكنهم مهاجرون من روسيا وبولندا والمانيا وغيرها ! انما ولدت كراهية الصهيونية عندنا من حضورها الى بلادنا واغتصابها فلسطين لاقامتها وطنـــا عنصريا على أشلاء شعب عربى ! ..

ومن الاشـــياء الطبيعية والمنطقية ان ظهور حركة عنصرية لابد ان يؤدى الى اصطدامها بحركات عنصرية أخرى . فاذا كان هناك شعب يزعم أنه أرقى الشعوب وأنقاها .. فمن البديهى أن يصطدم مع أى شعب آخر يقول أنه أرقى الشعوب وأنقاها !!

ومن هنا .. كان اصطدام الصهيونية بالحركة العنصرية الالمانية ، اى النازية أمرا طبيعيا بل وحتميا ! ..

أن النازية كانت تقوم على أســـاس ان الالمان عنصر ممتاز خلق لكى يسود ويقود سائر الشعوب والاجناس والالمانى بناء على هذه الفكرة يجب أن يكون من ســـلالة المانيـــة طاهرة لم تلوث بأى عنصر آخر . ولذلك كان على عضو فرق الشباب الهتلرى مثلا .. اذا أراد أن يتزوج ان يحصل على موافقة الحزب على زواجه . وكان الحزب يتحرى عن الزوجة ويتعقب أجدادها وسلالتها لكى يتأكد من انها سلالة المانية سليمة قبل ان يوافق على أن تتزوج احد أعضاء فرق الشباب الهتلرى !

واليوم .. نرى اسرائيل تقرر أن الاسرائيلى يجب أن تكون أمه اسرائيلية .. وأم أمه اسرائيلية .. لكى يثبت أن دمه يهودى خالص !

نشرت جريدة النيويورك تايمز الامريكية ، المشهورة بعطفها القوى اسرائيل ، رسالة لمراسلها فى اسرائيل ، فى عدد ١٩ يناير ١٩٦٥ تقول :

« تحت المظهر اللامع لهذه الدولة » تختفى معتقـــدات شديدة التعصب

« وقد تجلت هذه الحقيقة اخيرا فى قضية السيدة «رينا عيتانى » التى تقطن فى الناصرية . فبعد ان عاشت هذه السيدة كل حياتها على أنها يهودية ، فوجئت بهم هنـــا يقولون لها انها ليست كذلك ..

« لقد كان ابوها يهوديا . وشبت فى المانيا كيهودية وقد اضطهدها النازيون لانها يهودية . واعتقلها الانجليز

فى قبرص لانها يهودية • وجاءت الى اسرائيل كيهودية ، فمن الذين تسللوا اليها بالهجرة غير الشرعية • وعاشت رينا فى احد المعسكرات اليهودية ، وساهمت فى بنــــــاء اسرائيل بيديها ..

« وتزوجت رينا يهوديا فى اسرائيل ، وعاشت تمارس الشعائر اليهودية • ولكن فجأة ، منذ بضعة اسابيع ، اعلنت وزارة الداخلية ـ بناء على بلاغ سرى قدم لها ـ ان هذه السيدة ليست يهودية ، لان الوزارة علمت ان امها لم تكن يهودية

« والقوانين اليهودية تعتبر السلالة من ناحية الام هى السلالة التى تعتمد بها فى نقاء الدم اليهودى . وهــــكذا وجدت رينا ان القانون يعتبرها « غير نظيفة » طبقــــا لنصوص العهد القديم ..

وقد فجرت هذه القضية مناقشة حادة اختلفت فيهــا الآراء حول تعريف : من هو اليهودى

يقول المراسل « لا احد يسأل هذا السؤال اكثر من يهود اسرائيل نفسها .. ولا توجد بعد اجابة ترد على كل جوانب هذا السؤال بما فيها الاجابة العامة التى تقول : ان اليهودى هو الذى يقبل اعتراف اليهودى ويعيش طبقا له • فهم يعتقدون ان انواع التراث قد اختلطت بحيث اصبح التراث لا يكفى لهذه التفرقة

وتمتد مظاهر التعصب هذه الى ابسط الاشياء • فاذا كان هناك زوجان يهوديان يسكنان غرفة واحدة فى فندق فلا يستطيعا أن يطلب احدهما « ساندوتش » دجاج والآخر ساندويتش جبن فى نفس الوقت « لانه يجوز وضع اللحوم والألبان فى مطبخ واحد !

هذه هى الصهيونية .. وهذه هى النازية !

دعوتان تقومان على نفس الاساس .. ولذلك فهمـــا تتصارعان وتتبادلان أبشع العداء !

والتاريخ يقول : ان الصهيونيـــة ظهرت قبل ظهور النازية ! واذا كان النـــازيون قد ذبحوا اليهود وليس اليهود هم الذين ذبحوا النازيين .. فهذا لا يرجع الى أن الصهيونيين طيبون والنازيين رديئون .. ولكن يرجع الى ان النازيين الألمان كانوا أقوى وأكثر من اليهود ، ولو تصورنا ان وضع القوة كان عكسيا لقـــام الصهيونيون بنفس المذابح ضد النازيين

هل هذا دفاع عن النازية ؟

كلا بالطبع . فالنازية صفحة سوداء فى تاريخ الفكـــر العالمى والحضارات العالمية . ولكن الصهيونية أيضـــا صفحة سوداء . وكل منهمـــا تستند الى نفس المنطـق والفلسفة العنصرية المقيتة التى يجب محوها من الارض . وهذه نقطة هامة جدا ، علينا أن نوضحها لانفســـنا وللعالم جيدا .. حتى لا تحاول اسرائيل الاستفادة من سخط العالم على النازية وعدائه لها ! وحتى لا تبـــدو أمام العالم كأنها نقيض النازية وعكسها .. والواقع أنها تقاتلها لانها شبيهتها ومنافستها !!

وليس معنى هـــذا أن النازية ظهرت نتيجة لظهور الصهيونية والتعصب اليهودى العنصرى . ولكن النازية عندما وجدت وظهرت .. كان طبيعيا أن تصطدم باليهود .. للاسباب التى سلف ذكرها ..

ولكن ظهور النازية يرجع الى أسباب كثيرة ، بعضها خاص بألمانيا نفسها ، وبعضها الاخر خاص بتطـــورات المجتمع العالمى بوجه عام ..

فالالمان – باستثناء روسيا التى ظلت آوروبا تعتبرها دولة أسيوية الى عهد قريب – وجدوا أنهم أكبر شعب فى القارة الاوروبية كلها ·· وهو شعب غنى نشيط منتج قوى ميال للانتظام ·· ومع ذلك فقد تأخرت نهضـــة المانيا السياسية زمنا طويلا ، بحكم تمزقها الى ولايات كثيرة ، وبحكم تحالف سائر دول اوروبا على منع وحدة المانيا خوفا منها . فبريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا تحالفت طويلا لمنع وحدة الدويلات الالمانيــــة فى دولة واحدة · وكل هذا من شأنه أن يخلق حركة قوميـــة متعصبة كرد فعل ، وقد حققت ألمانيا وحدتها فعــــلا بالحرب على يد « بسمارك » · حاربت امبراطورية النمسا ثم امبراطورية فرنسا قبل أن تحقق وحدتها كشعب ، فظلت هذه الروح كامنة فى نفوس كل هذه الاطراف زمنا طويلا

يضاف الى ذلك أن الثورة الصناعية عندما اكتملت فى ألمانيا وأصبحت قوة هائلة ·· وجدت أن بــــلادا أخرى قد سبقتها فى مجال التطور الطبيعى للرأسمالية فى ذلك العصر ، وهو الاستعمار .. فبينما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا تمرح فى مستعمرات شاسعة ، كانت ألمانيا محرومة الا من القليل ، فلهـــذا تفاقم العداء بينها وبين هذه الدول وانفجر هذا العـــداء فى الحرب العالمية الاولى

والاذلال الذى أنزله الحلفاء بألمانيا بعد الحــــرب الاولى ، هو الذى أعطى شهادة الميـــلاد لحركة عنصرية أقوى وأعتى ، اذ ظهر هتلر على مسرح السياسة الالمانية برسالة أساسية هى استعادة الاراضى المفقودة من ألمانيا ·· ثم ما تلى ذلك من نشر دعوة التفوق الالمانى ونقـاء

العنصر الالمانى والدكتاتورية السوداء التى ذبحت من الالمان أنفسهم مثلما ذبحت من سائر بلاد أوروبا !

لقد قال المؤرخون عن « بسمارك » الذى حقق وحدة المانيا : انه جعل المانيا كبيرة .. والالمان صغارا !

وبنفس المنطق يمكن أن نقول عن هتلر والنازية : انه جعل المانيا مخيفة .. ولكنه جعل الالمان خائفين !!

وقد اندثر هتلر ..

فما الذى بعث النازية اليوم ؟ ..

كنت فى فرانكفورت يوما فلاحظت أن المكتبات وأكشاك الصحف مليئة بالكتب التى تهاجم النازية والهتلرية وتصور فظائعها وجرائمها ! لا توجد واجهة مكتبة أو كشك صحف تخلو واجهته من كتاب عليه رسم جماجم وخرائب ونيران وفوقها عنوان عن النازية أو الهتلرية !

ومع ذلك فالمراقبون الاجانب يقولون ان النازية تبعث فى المانيا الغربية اليوم ..

ان المانيا الغربية تنتشر فيها جمعيات ومنظمات للشباب وللطلبة .. منظمات تظهر عليها بوادر النازية.. فاعضاؤها يلبسون الاحذية الطويلة وقمصانا عسكرية وأحيانا خناجر كخناجر الكشافة ! والالمانى يقبل بطبيعته على من ينظمه فى طوابير واستعراضات وفرق ترفع الريات وتلبس الخوذات وبعض هذه الجمعيات تنظم مواكب بالمشاعل على الطريقة النازية ! وفى حانات البيرة ظهر من يسكر فيصيح : عاش هتلر ! ولو حكم عليه بالحبس سنة ! ..

وبعض هذه المنظمات يحمل أسماء قادة الحرب الاخيرة من الجانب الالمانى مثل « جودريان » و « دونيتز » ..

ومنذ بضعة شهور فوجيء الناس برجال وشباب يملأون بعض الحانات يغنون ويشربون ويتبادلون التحية ٠٠ ثم ظهر أن اليوم هو ٢٠ ابريل ٠٠ عيد ميلاد هتلر !! ٠٠

وبعض زعماء هذه المنظمات بدأوا يصبحون فى مصاف الزعماء البارزين الذين لهم أتباع وعابدون ! كل واحد يرشح نفسه لان يكون هتلر آخر ٠٠ ولان يكون نجما عالميا خلال سنوات قليلة ٠٠ مثل : جنتر هيسلر ٠٠ والفريد زيتزمان ٠٠ وبيتر برناو وكل منهم كان من أعضاء فرق العاصفة الهتلرية القديمة ! ٠٠

وفى نفس الوقت تقول التقارير الالمانية أن بين كل عشرة مدرسين يوجد ثلاثة على الاقل يؤمنون بالنازيةلانهم من تلاميذها القدامى ٠٠ ودروسهم للصبيان والشبان مشحونة بالدعاية الظاهرة والخفية للنازية وهتلر ٠٠

فكيف يعتنق عدد كبير من شباب ألمانيا مثل هذه الفكرة النازية العنصرية المتعفنة ، رغم الدعاية المركزة ضدها ؟

ربما بسبب هذه الدعاية المركزة ذاتها ! ٠٠

فبعد الحرب الاخيرة ، وقف كل الحلفاء من الشعب الالمانى موقف الاساتذة الذين يريدون تأديب الشعب الالمانى وتهذيبه ٠ وكان هناك اتجاهان : اتجاه يحاول تصوير المأساة كلها لالمانيا على أنها جريمة حزب معين وزعيم معين هو الذى جر شعب ألمانيا الى هذا الموقف ٠٠ واتجاه آخر يحاول أن يجعل الجريمة جريمة الشعب الالمانى كله

ولا يوجد شعب على وجه الارض يمكن أن يقبل فكرة دمغه ـ كشعب ـ بالاجرام ، ولو فترة قصيرة جدا من حياته ! ٠٠ وهذا الاسلوب لا يؤدى الا الى الاستفزاز ،

واستثارة كوامن الكبرياء خصوصا فى شعب متقــــدم ممتاز فخور كالشعب الالمانى ٠٠ لا يمكن أن يقبل طويلا أن يقف بين الاخرين موقف المذنب الخاطىء الذى يجب أن يؤكد توبته كل يوم !

وفى هذه الاسابيع بالذات ، نجد أن صحافة بريطانيـا عادت تتجه هذا الاتجاه ، أى اتجاه ادانة الشعب الالمانى كله ، لان بريطانيا مختلفة مع ألمانيا اختلافا شديدا فى الاتجاه السياسى والاتجاه الاقتصادى فى أوروبا ٠٠فسياسة ألمانيا تحول دون الغاء خطر الحرب بالتفاهم مع روســيا فى أوروبا ، وألمانيا هى حجر الاساس فى السوق الاوروبية المشتركة التى تهدد بطرد الاقتصاد الانجليزى من القارة الاوروبية !

وقد أشارت الصحف الانجليزية من جديد الى قصــــة معهد الوثائق الامريكى الذى يشغل بيتا فى ضواحى برلين ان هذا القصر فيه كل أوراق وأرشيف الحزب النازى ، وقد سقطت فى يد الجيش الامريكى قبل أن تحرق ٠٠ وهذه الوثائق تضم أسماء عشرة الملايين ألمانى وألمانية الذين كانوا أعضاء فى الحزب النازى ٠ وتضـــــم كل أوراق المحاكمات الجائرة التى أعدم فيها ٦٤ ألف مواطن خلال حكم هتلر ! وهذه الوثائق توضع عليها حراسة مسلحة قوية ، ولا يسمح لاى مخلوق بالاطلاع عليها الا باذن من حكومة أمريكا أو من حكومة ألمانيا !

ان الصحف الانجليزية تطالب بنبش هذه الوثائق ٠٠ وبكشف كل رجل أو امرأة أو شاب او فتاة كان عضوا فى حزب هتلر ٠٠ وكل قاض حكم فى قضية من قضايا هتلر السياسية ٠٠ الى آخره ! ومعنى هذا ادانة الشعب الالمانى كله ! لان الشعب كله كان خاضعا بطريقــــة أو

باخرى لحكم هتلر ، وكان مضطرا أن يعيش فى موكبه شيبا وشبانا وجنودا وضباطا وقضاة ومحامين !

ثم ان الشعب الالمانى يرى أن هؤلاء الحلفاء الذين يهاجمونه ويدمغونه بالجريمة ، ليسوا ملائكة ، ان أيديهم جميعا ملوثة بدماء شعوب المستعمرات ! انهم يحمون الحرب الاستعمارية فى الجزائر والتفرقة العنصرية فى أفريقيا ! ثم انه اذا كان الالمان قد دمروا وقتلوا فى البلاد التى احتلوها ، فان الحلفاء قد دمروا ألمانيا تدميرا وشردوا أهلها تشريدا . وهذا كاف لكى ينتهى الحساب ! والقاء كل المسئولية فى الحرب على ألمانيا فيه تجاهل للحقيقة الانسانية وهى أن الحرب كانت حربا استعمارية الى حد ما من الطرفين .. حرب نظامين رأسماليين يتنافسان على سيادة العالم ! فما كان يخطر ببال انجلترا وفرنسا ، أن تنتهى الحرب بتشديد قبضتهما على المستعمرات واحتكارهما للاسواق

ولا شك فى أنه يضاف الى هذه الاسباب النفسية سبب آخر أساسى .. هو أن تقسيم ألمانيا يشعر الشعب الالمانى بهوان عميق ! فبرغم كل النجاح الذى احرزته ألمانيا بعد الحرب من جديد ، فان استمرار تقسيمها وتوزيعها وتبعيتها يجعل الالمانى يشعر انه ما زال يعيش فى مستوى أقل من أى مواطن من أى وطن آخر !

وهو نفس الموقف الالمانى فى الفترة التى ظهر فيها هتلر ! لان هذه الظروف كلها تؤدى الى رد فعل حتمى فى صورة نزعات قومية متطرفة تقوم على العدوان ومقابلة الاحتقار بالاحتقار والاستعلاء بالاستعلاء !

كل هذه الاسباب .. النفسية والسياسية .. توجد تربة خصبة لكى تزدهر فيها بعض بذور النازية فى نفوس

الشباب الالماني ! ان شباب أى شعب يحب مجد بلاده ويأبى اذلالها ! واذا اتجه حب المجد وجهة خاطئـــة ٠٠ كانت الكارثة !

والحل العميق لهذه المشاكل ليس فى تطهير المدارس من المدرسين ولا فى اعتقال هؤلاء الشبان

وانما الحل هو الحل السياسى الكبير ، هو انهـــاء وضع ألمانيا الشاذ والعمل على توحيدها ، ونشر منطق من السلام على أوروبا ٠٠ يجعل أى نزعة عدوانية غير ذات موضوع ٠٠ !

وانه لمن المهم ـ استكمالا للصورة ـ ان نذكر ان هذه النزعات النازية ، اليمينية ، قد تكون اشتدت فى المانيا نتيجة أيضا لظهورها فى بلد مجاور ملاصق ، هو فرنسا ! فالعصابات السرية الارهابية فى فرنسا ٠٠ والجمعيـات الفرنسية التى تتعقب الجزائريين وتقتلهم فى ألمانيـــا نفسها ٠٠ وخطر استيلاء فرق الباراشوت على الحكم ٠٠ وظهور نعرة عظمة فرنسا وقيادتها لاوروبا ورســـالتها الخالدة .. كل هذه أشياء حركت ولا شك عوامل المنافسة التقليدية بين البلدين ٠ وان كان القادة الرسميون مثل ديجول وأديناور على وفاق ! ٠٠

***

ونعود الى اليهودية والصهيونية !

ان اليهودية فى ألمانيا بالذات لم تعد مشكلة !

ففى أيام هتلر كان اليهود فى ألمانيا يحسبون بالملايين٠٠

أما اليوم فان عدد اليهود فى ألمانيا الغربية هو ٤٣ الفا فقط فى شعب تعداده أكثر من خمسين مليونا !

وعلى العكس ٠٠ فقد زاد عدد اليهود زيادة كبيرة فى

أماكن أخرى .. ففي الولايات المتحدة خمسة ملايين وفي الاتحاد السوفييتي ثلاثة ملايين وفي بريطانيا نصف مليون وفي فرنسا ٣٣٠ الفا وفي رومانيا ١٨٠ الفا وفي المجر ٨٠ ألفا وفي استراليا ٤٣ ألفا !

فعدد اليهود في ألمانيا الغربية اليوم أقل عددا وأقـــل نسبة الى عدد السكان ! ومركز الثقل اليهودي لم يعد في المانيـــا ..

ولكن الصهيونية العالمية .. اقتنصت هذه البـــادرة الصغيرة في ألمانيا .. بادرة ظهور بعض منظمات نازية الطابع .. لكي تعيد استثمار القصة القديمة . فانطلقت القوى الصهيونية في البلاد الاخرى تثير الخواطر ، وتزيف العلاقات كمحاولات لاستعادة عطف الرأي العام العالمي .. وهذا يفيدها في خلق نوع من الالتفاف العاطفي والمعنوي حول اسرائيل من جهة ورفع سيل التبرعات والمساعدات لها من جهة أخرى

وليس أعجب ، في هذا المجال ، من قصة ايخمان مـــع اسرائيل ..

وقد أذاع القصة مستشار بن جوريون الخاص لشئون العلاقات العامة .. « موشى بيرلمان » الذي نشرها كاملة في كتاب أصدره بعنوان « خطف ايخمان »

تقول القصة : ان يوم ٢١ مارس هو أول أيام الربيع . ولكنه كان يوما مشئوما بالنسبة لايخمان . ففي يوم ٢١ مارس سنة ١٩٣٥ تزوج ايخمان .. ويـــوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ ، كان اليوم الحاسم في مصيره ، اليوم الذي تقرر فيه اختطافه نهائيا !

لقد كان ايخمان — بعد فراره من أوروبا — يعيش في ضاحية « سان فرناندو » القريبة من مدينـــة بوينس

ايريس عاصمة الارجنتين . كان يسكن هو وزوجته وأولاده الثلاثة فيلا متواضعة منعزلة . وكان يعمل فى مصانع مرسيدس بنز فى الطرف الاخر للمدينة .. فكان عليه أن يسير كل يوم حوالى ٣٠٠ متر الى محطة الاوتوبيس الواقعة على الطريق الزراعى المهجور ، ليركب الاوتوبيس الذى يوصله الى محل عمله

ولم يكن أحد يعرف أن هذا هو ايخمان. كان المعروف فقط أن السيدة ربة البيت هى « أرملة ايخمان » . وان ايخمان نفسه مات . أما الرجل الذى يعيش معها فهو زوجها الثانى ويدعى « ريتشارد كليمنت » . هذه هى القصة التى كان الناس يعرفونها . والتى عاشت هذه الاسرة بها ثمانى سنوات كاملة ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٠ ، دون أن يقلقها أحد !

ولكن فى تلك الشهور الاولى من سنة ١٩٦٠ ، كان هناك من يراقب ايخمان ، دون أن يشعر ...

لقد استأجرت مخابرات اسرائيل بيتا يقع على بعد ٢٠٠ متر تقريبا من بيت ايخمان . لا تفصله عنه الا الحقول . وخلف نافذة مفتوحة لا تنسدل عليها الا الستائر المعدنية ، كان يوجد « تليسكوب » قوى جدا، يستطيع أن يرى كل شىء فى بيت ايخمان .. ويستطيع الناظر فيه أن يسجل كل حركة يقوم بها ايخمان من لحظة أن يستيقظ من النوم صباحا الى ان يركب الاوتوبيس الذى يحمله الى المصنع صباحا .. ومن لحظة نزوله من الاوتوبيس عصرا ، الى ان ياوى الى فراشه ! ..

كان الذى يجلس وراء هذا التليسكوب يدعى «جاد»، وهو ليس اسمه الحقيقى طبعا ، ولكنه اسمه المستعار.

فاذا انطلق الاوتوبيس حاملا « ايخمان » الى المصنع . ترك « جاد » التليسكوب . ليدق التليفون لرجل آخر من مخابرات اسرائيل اسمه « دوف » ليقول له كلمة واحدة هى « كاراجيل » وهى كلمة عبرية معناها « كالعادة ! » اما « دوف » هذا الذى يتلقى هذا التليفون فهو يقيم فى شقة اخرى استأجرتها مخابرات اسرائيل أمام المصنع الذى يعمل فيه ايخمان، ومعنى ذلك أن يبدأ فى مراقبته من لحظة نزوله من الاوتوبيس امام المصنع الى أن يدخل فيه .. ثم فى أثناء خروجه منه آخر النهار !

ولم يكن دوف يراقبه من تليسكوب .. انما كان يأخذ فى يده حقيبة أوراق عادية وينزل الى الشارع ، ويقف على محطة الاوتوبيس التى سينزل عندها ايخمان . وعندما ينزل ايخمان يحاول دوف أن يتبعه دون أن يثير شكوكه . ان فى حقيبة اليد التى يحملها دوف توجد كاميرا حساسة جدا. عدسة الكاميرا هى زرار الحقيبة. وبينما دوف يسير فى براءة ، يضغط دوف بأصبعه على زرارين فى يد الحقيبة ، فتلتقط صورا متوالية لايخمان من جميع الزوايا !

ولكن .. لماذا كانوا يحاولون التقاط صوره كل يوم .. ويرسلون هذه الصور الى تل أبيب ؟

السبب هو انهم لم يكونوا متأكدين مائة فى المائة ان هذا الرجل هو ايخمان بالفعل !

فمنذ سنة ١٩٥٢ ، عندما اختفت زوجته وأولاده من النمسا فجأة، انقطع خيط المطاردة الاسرائيلية لايخمان. كانوا لا يصدقون أن الرجل قد مات . ولكنهم لا يعثرون له على اثر ..

ويقول المؤلف : ان اهم عناصر المطاردة فى هذه المسائل هم افراد الجاليات اليهودية فى شتى بلاد العالم .. ومعنى ذلك أن كثيرا من افراد الجاليات اليهودية فى كل بلاد العالم يتجسسون مباشرة لحساب اسرائيل ، ولو على البلاد التى ينتمون اليها • وفى سنة ١٩٥٩ كان هناك تاجر يهودى استطاع ان يدخل المجتمع الارجنتينى دون ان يعرف احد انه يهودى • وعلى هذا الاساس اختلط بمجتمع الالمان الذين يعيشون فى بوينس ايريس • وعلى اساس هذه الثقة سمع يوما ان أرملة ايخمان تعيش فى أطراف المدينة مع زوج جديد اسمه ريتشارد كليمنت •

ارسل اليهودى الارجنتينى المتنكر برقية سريعة بذلك الى مخابرات تل أبيب .. فبدأت المطاردة من جديد لمعرفة هل هذا الزوج حقا اسمه كليمنت ، أم أنه ايخمان نفسه ؟ ..

ان ايخمان برغم خطورة مركزه أيام هتلر ، فان صوره قليلة • الذين يعرفونه شخصيا قليلون جدا . فقد كان حريصا دائما على ان يبقى فى الظل ، ومن هنا كانوا يلتقطون له سرا ، عشرات الصور من كل الزوايا ويرسلونها الى تل ابيب ، حيث يجرى عرضها على كل من عرفه او رآه او لديه صور له

وقد كان المرجح أنه هو ايخمان .. ولكن الدليل القاطع لم يكن متوافرا

ومضت مراقبة ايخمان فى دقائق حياته يوما بعد يوم واسبوعا بعد اسبوع ، لتسجيل كل حركة له . كان منتظما فى حياته جدا . لاشىء يتغير ابدا . وفى يوم من الايام .. حدث تغير بسيط .. لقد اشترى ايخمان عند عودته من المصنع باقة فاخرة من الورد ، حملها

معه .. وعندما وصل الى البيت فتحت له زوجته .. واعطاها باقة الورد فى اعزاز كبير !

واخذ الذين يراقبـــونه يفكرون فى السبب . ما هى المناسبة التى تجعله يشترى هذا الورد اليوم ؟. واخذوا يراجعون ما لديهم من أوراق تضم كل المعلومات عن حياة ايخمان .. واكتشفوا السر !

ان اليوم هو يوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ ! ..

وقد تزوج ايخمان من زوجته يوم ٢١ مارس ســنة ١٩٣٥ !

اذن فلابد أن هذا الرجل هو ايخمان نفســـه . من المستحيل ـ اذا كان زوجا ثانيا لارملة ايخمان أن يحضر لها باقة ورد فى ذكرى زواجها الاول ! ومن المستحيل أن يكون شراء الورد يوم ٢١ مارس بالذات ، بعد ٢٥ ســنة على الزواج ، مجرد مصادفة

لقد ارسلوا تلك الليلة برقية الى تل أبيب نصـــها : « الرجل هو الرجل » وعلى الفور بدأ التفكـــــير فى الخطوات التالية ..

كيف يمكن ـ أولا ـ أن يتم خطفه ؟ وأين ـ ثانيا ـ يوضع ايخمان فى بوينس ايريس حتى يتم اخراجه من البلاد ؟

وكيف يمكن ـ ثالثا ـ تهريبه من الارجنتـــين الى اسرائيل ؟ ..

وكان لابد من حل المشكلتين الثانية والثالثة قبـــل تنفيذ عملية الخطف ! ..

أما عن المكان الذى يمكن أن يسجن فيه ايخمان بعد خطفه ولو لبضعة أيام .. فكان هناك اقتراحان : الاول

هو وضعه فى فيلا من الفيلات المنعزلة التى يملكها أحد يهود الارجنتين وهم كثيرون واغنياء . والاقتراح الثانى هو استئجار فيلا تكون ملائمة لهذا الفرض ، حتى لا يورطوا أحدا من أفراد الجالية اليهودية فى مغامرات قد تنكشف ..

ويقول المؤلف انهم اختاروا الحل الثانى واستأجروا بالفعل بيتا معزولا أعدوه لهذا الفرض . وقد لا يكون كلام المؤلف صحيحا . ولعلهم ، وهذا مرجح بسبب السرعة وضيق الوقت ، استخدموا بالفعل بيت أحد يهود الارجنتين ولكن المؤلف، وهو مستشار بن جوريون للشئون العامة ، يريد أن يبعد عن جاليات اليهود فى شتى البلاد شبهة قيامهم باعمال غير مشروعة لحساب دولة اجنبية .. هى اسرائيل !

أما عن وسيلة نقله الى الخارج فهى اما البر أوالبحر أو الجو ..

ان نقله بالبر سهل جدا .. ولكن الى دول أخرى فى امريكا اللاتينية وهذا لا يقترب به من اسرائيل ...

ان أنسب طريقة هى البحر . بشرط أن تكون الباخرة اسرائيلية . لان قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب فى الامر فسوف يطلق سراح ايخمان وينزله فى أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب أن تكون الباخرة الاسرائيلية باخرة بضاعة لا باخرة ركاب . لان باخرة الركاب سيكون فيها ناس كثيرون من جميع الجنسيات وقد يكتشفون الامر ويثورون

ولا شك أن الباخرة أسلم من الطائرة . لان الطائرة لا يمكن أن تطير رأسا الى مطار اللد فى اسرائيل . بل انها ستتوقف فى عدة مطارات . وأحيانا تجرى عمليات

تفتيش الطائرات .. ولكن ميزة الطائرة انها تصـــــل بايخمان بعد ٢٤ ساعة فقط . اما الباخرة فانهـــــا تستغرق أسابيع . وقد يذيع نبأ اختفائه وتحدث ضجة قبل ان يصبح ايخمان في اسرائيل فعلا . ثم ان حراسته خلال هذه الاسابيع فى الباخرة صعبة جدا . فمن الممكن أن يقذف بنفسه الى البحر فى أى لحظة !

وتقرر استخدام الطائرة، رغم كل ما فيها من مخاطر. ولا يمكن طبعا ان تكون طائرة ركاب عادية . لابد أن تكون طائرة خاصة

وتم اعداد كل شيء . تم استئجار طائرة لايكشف المؤلف عن شركة الطيران التى قدمتها لهم .. وتم استئجار بيت واعداد غرفة فيه كرنزانة ليس فيها أى أثاث . وتم رسم خط الطيران . فالطائرة ستطير رأسا الى مطار فى غرب أفريقيا ، لا يكشف المؤلف عن اسمه ومن غـــرب أفريقيا الى اسرائيل . وبقاء ايخمان فى البيت بعد خطفه لا يجب أن يزيد على ثلاثة أيام . لن تذهب زوجتــــه

خلالها الى البوليس والا فمعنى ذلك أنها تعتــرف بأن زوجها هو ايخمان . وهى لن تفعل هذا الا بعد زمن .. أى بعد أن تيأس !

وقصة الخطف نفسها عادية . وقفوا له بســـــيارة بالقرب من محطة الاوتوبيس التى ينزل فيها . وتظاهروا بأن فى السيارة عطل حتى لا يثيروا شبهات العابرين . واختاروا ساعة عودته الى البيت لانها ساعة ما بعـــد الغروب والنور باهت والطريق لا يمر به أحد . وعندما اقترب منهم ايخمان هجموا عليه مرة واحدة ، وقفزوا به الى حفرة على جانب الطريق الزراعى حيث أتمـــوا ضربه وربط يديه دون أن يكونوا عرضة لان تراهم سيارة

عابرة ، ثم صعدوا به الى السيارة .. التى انطلقت بسرعة .. و « اذا تحركت حركة واحدة فسوف تضرب بالرصاص ! » .. وكانوا قد عصبوا عينيه حتى لا يعرف مقر السجن الذاهب اليه ..

وعندما دخلوا به الى البيت .. واغلقوا الابواب .. أضاءوا الانوار القوية ورفعوا العصابة عن عينيه • وساله واحد منهم : من أنت ؟ ..

وكان قد أدرك كل شيء • فقال : أنا أدولف ايخمان

وجعلوه يخلع ملابسه كلها .. ويقف تحت الضوء عاريا تماما .. وفتشوه وفتشوا ثيابه تفتيشا دقيقا .. خشية ان يكون معه أى شيء يمكن أن ينتحر به !

***

وهنا يروى المؤلف قصة مضحكة ساذجة. انه يحاول ايهام العالم أن ايخمان ذهب الى اسرائيل طائعا مختارا .. فهذا ما قالته حكومة اسرائيل فى تبرير عملها الذى هزأ بكل قانون دولى أو قانون خاص • فالمؤلف يقول انهم قالوا له انهم سيأخذونه الى اسرائيل حيث تجرى له محاكمة عادلة فهل لديك اعتراض ، فقال : لا

ثم يقول المؤلف ان ايخمان رحب بالمحاكمة لكى يتخلص من العبء الذى يثقل ضميره !

ومن المضحك طبعا أن نتصور أن ايخمان كان مختارا وان اسرائيل بعد جهود وترتيبات ومغامرات ونفقات سنة كاملة ، كانت مستعدة أن تتركه لو قال انه يرفض المحاكمة !

وبالمثل ـ يحاول المؤلف أن يوهمنا أن الوثيقة التى كتبها ايخمان تبرر ـ قانونا ـ عملية الخطف... وثيقة

قال فيها « انا الموقع أدناه ، أدولف أيخمان أعلن بملء حريتي (!) حيث ان شخصيتي الحقيقية قد عرفت . فلا أجد داعيا لمواصلة تجنب العدالة ، وأعلن رغبتي فى الذهاب الى اسرائيل لاواجه المحاكمة ! واننى اكتب هذه الوثيقة بملء حريتي ، دون تهديد أو ترغيب ، لاننى اريد ان أحصل اخيرا على سلام النفس ! »

وتحت ذلك توقيع ايخمان وتاريخ « بوينس ايرس فى مايو ١٩٦٠ »

وغرض اسرائيل من ذلك واضح ..

ان محاكمة أيخمان فى اساسها غير شرعية لان أسلوب خطفه غير شرعي . ولان القانون الذى يحاكمونه به غير شرعي . انه عمل انتقامي سافر متجرد من كل تبرير شرعي . وقد حاولوا تغطية ذلك بارغام ايخمان طبعا على كتابة هذا الاقرار . ومن المؤكد انه كتبه فى سجون تل أبيب .. ولكنهم ارخوه بتاريخ وجوده فى الارجنتين ليقولوا انه سافر الى اسرائيل بارادته وليس خطفا

ولكن .. اذا كان الامر كذلك ففيم اذن كان كل هذا لمحاولة نقله سرا ؟ ..

وجاء يوم نقله ..

اعطوه فى الليل قهوة فيها مخدر قوى فنام على الفور ثم خلعوا ملابسه والبسوه بيجاما وروب دى شامبر وعلى الباب كانت تنتظره سيارة فارهة .. فقد قالوا انه رجل غني مريض جدا ومسافر الى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمى . وهذا يفسر انه فاقد الوعى . وانه فى ملابس النوم . وانه يستاجر طائرة خاصة ! فى المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة . ونقلوه فى « نقالة » الى الطائرة وهو مخدر تماما وغائب عن الوعى

.. ومعه اثنان من مخابرات اسرائيل فى ثياب الممرضين!
... ومعهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر ، يسقونه منها كلما لاح انه على وشك أن يفيق ! ..

وقال بن جوريون فى البرلمان الاسرائيلى أن ايخمان جاء بملء ارادته

شيء هام يلوح فى كل سطور القصة .. ولا يمكن تصورها بغيره هو : العدد الهائل من العملاء الذين يساعدون مخابرات اسرائيل ويعملون لها .. كلهم يهود مواطنون فى بلاد أخرى .. يظهرون الولاء للبلاد التى تطعمهم وتؤويهم .. ولا يبطنون الا الولاء لاسرائيل !

***

وقد اشار محامى ايخمان الى ان المتهم لديه قصة غريبة قديمة تعرف فى الدوائر السرية باسم قصة اللوريات !

وخلاصة قصة « اللوريات » كما ذكرت الصحف هى : أن ايخمان خلال الحرب عرض على الوسطاء الصهيونيين أن يسلمهم مليون يهودى من معسكرات الاعتقال فى مقابل أن يسلموا المانيا عشرة الاف سيارة لورى عسكرية تساعد الجيش الالمانى فى حربه ضد الاتحاد السوفييتى ! وان الوسطاء الصهيونيين رفضوا هذه الصفقة !

والمفهوم أن ايخمان سوف يروى هذه القصة لكى يوضح أنه لم يكن متعصبا لاعدام اليهود .. وانما كان ينفذ الاوامر فقط .. بدليل أنه اقترح مثل هذا الاقتراح !

وقد رجعت الى أحد الكتب التى أحتفظ بها عن اسرائيل .. ذكرت اننى سبق أن قرات فيه هذه القصة الغريبة ..

الكتاب اسمه « الطرق السرية Secret Road » وهو من تأليف الكاتبين الصهيونيين الانجليـــزيين جون كيمش ودافيد كيمش ..

والكتاب يروى التاريخ السرى للهجرة اليهودية من أوربا الى فلسطين خلال الفترة بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ . وهو مطبوع سنة ١٩٥٤ .. أى قبل أن يتوهم أحد أنه من الممكن القبض على ايخمان أو العثور عليه .. بل كان الراى السائد أن ايخمان قد قتل ..

وليست قصة اللوريات هي السر الوحيـــد الغريب الذى يرويه الكتاب .. بل انه يلقى الضوء على علاقات كثيرة بين ألمانيا النازية وبين قيام دولة اسرائيل !

والقصة التى يرويها الكتاب لقضـــــية اللـوريات تتلخص فى أن ألمانيا كانت تحـــارب فى جبهتين فى وقت واحد .. ضد السوفييت شرقا وضد الحلفاء غربا .. وفى خلال ذلك كانت هناك علاقات قوية بين الجستابو الالمانى وفرق العاصفة النازية من جهـــــة وبين بعض ممثلى الحركة الصهيونية من جهة اخرى ..

وكان ايخمان هوضابط فرق العاصفة المختص بشئون اليهود ، وقد أتخذ مقرا له فى قصر روتشيلد فى فينا . واستدعى ايخمان يوما ممثل الحركة الصهيونية السرية

وطلب منه أن يسافر الى استانبول ليقدم هذا العرض: أن يحرر لهم مليون يهودى مجرى من نزلاء معسكرات الاعتقال ويسلمهم اليهم ليبعثوا بهم الى فلســـــطين فى مقابل أن يقوموا بتسليم المانيا الاتى : ٢٠٠ طن من الشاى ـ ٨٠٠ طن من البن ـ مليونا علبة صابون ـ عشرة آلاف سيارة لورى

وطار المبعوث الى استانبول ، ثم طار الى سويسرا

ليتصل بزعماء الصهيونية هناك . وكان لابد من حمل هذا العرض الى الانجليز ، فوصل المبعوثون الصهيونيون الى القاهرة ، وعرضوا القصة على اللورد موين ، وزير الدولة البريطانى المقيم فى القاهرة خلال الحرب . ولكن لورد موين رفض الدخول فى اية مباحثات مع الالمان ..

وعلى الفور ذهب الدكتور حاييم وايزمان ، الذى أصبح أول رئيس لدولة اسرائيل ، الى لندن وقابل تشرشل وعرض عليه الفكرة . ولكن تشرشل رفض . وقال تشرشل ان الاتحاد السوفييتى يشك فى ان الدول الغربية تحاول عقد صلح منفرد مع المانيا ليتفرغ هتلر لمحاربة الاتحاد السوفييتى ، ولذلك فان اية مفاوضات او تسليم مهمات الى المانيا سوف يؤكد شكوك الاتحاد السوفييتى فى حلفائه الغربيين ..

على ان هذه القصة ليست أهم ولا اغرب ما فى الكتاب ..

ان فى الكتاب صفحات كثيرة تروى قصة التفاهم التام بين النازية الالمانية وبين الحركة الصهيونية على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين .. وتأييد فكرة قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين !

ومن سخرية القدر أن ايخمان نفسه كان فى بعض المراحل من أبطال حركة هجرة اليهود الى فلسطين !

واترك الكتاب لمؤلفيه الصهيونيين يرويان القصة :

فى سنة ١٩٣٨ ، قبيل الحرب العالمية .. كان الكابتن كارل أدولف ايخمان يجلس الى مكتب فى مبنى يحمل لافتة تقول : « المكتب المركزى للهجرة اليهودية » . . وكان يستقبل بانتظام شابا صهيونيا اسمه « بارجيلاد »

ان بار جيلاد صهيونى قادم من فلسطين ، انه يرأس

٤٠٠ صهيوني يسكنون مستعمرة يهودية اسمها « كفار جيلادى » ، بالقرب من الحدود بين سوريا وفلسطين

كان الاثنان يدرسان فكرة هامة ..

الفكرة هى اقامة « معسكرات تدريب » فى ألمانيا ، يتدرب فيها الشبان اليهود لفترة مؤقتة ، تمهيدا لهجرتهم الى فلسطين . ولما كانت الهجرة الى فلسطين ممنوعة ، فسيكون على الحكومة النازية لا مجرد السماح باقامة معسكرات التدريب فقط ، بل تسهيل خروجهم من البلاد سرا بأوراق مزورة ، تسهل لهم الوصول الى فلسطين !

وكان كل ما طلبه ايخمان هو أن يدفع اليهود مبالغ كبيرة للدولة الالمانية نظير ذلك . وفى مقابل ذلك سوف يحطم ايخمان كل روتين خاص بالهجرة .. لكى يسهل لهم ارسال أكبر عدد ممكن الى فلسطين ..

أما عن معسكرات التدريب ، فقد قال ايخمان لمحدثه « بارجيلاد » : ان ألمانيا النازية مستعدة لان تعطيهم بعض المزارع الواسعة لكى يقيموا فيها مراكز تدريب وتجميع الشبان اليهود تمهيدا لتهريبهم الى فلسطين ..

وكانت الحركة الصهيونية لا ترحب بهجرة اليهود المسنين الى فلسطين .. وهم اليهود الذين يملكون نفقات السفر .. وكانت تفضل استقدام الشبان الاقوياء الاصحاء فقط !

ويقول المؤلفان : وقد حافظ ايخمان على كلمته فيما يتعلق بكل التعهدات التى تعهد بها . فقد منحهم المزارع والادوات اللازمة للتدريب الزراعى ، بل انه فى احدى المرات طرد عددا من الراهبات من احد الاديرة ، لكى يوفر لليهود كل وسائل التدريب التى تلزمهم فى احدى المزارع !

ويتساءل المؤلفان : ما هو السر وراء هذه الخطـــة النازية ؟ ..

ثم يقولان ردا على ذلك : ان هتلر نفسه وافق على هذه الهجرة السرية الى فلسطين لاسباب كثيرة ، فهواولا يفضل أن يهاجر اليهود الالمان لا الى البلاد المحيطـــة بالمانيا مثل فرنسا وايطاليا وغيرهما، بل يفضل أن يراهم يبتعدون عن المانيا .. الى مكان مثل فلســـطين .. يضاف الى ذلك أن هجرة اليهود الى فلسطين وقيـــام دولة صهيونية هناك سوف يوقعان الانجليز فى متاعب مع العرب واليهود على السواء .. وكل متاعب تحدث لبريطانيا هى فوائد لالمانيا !

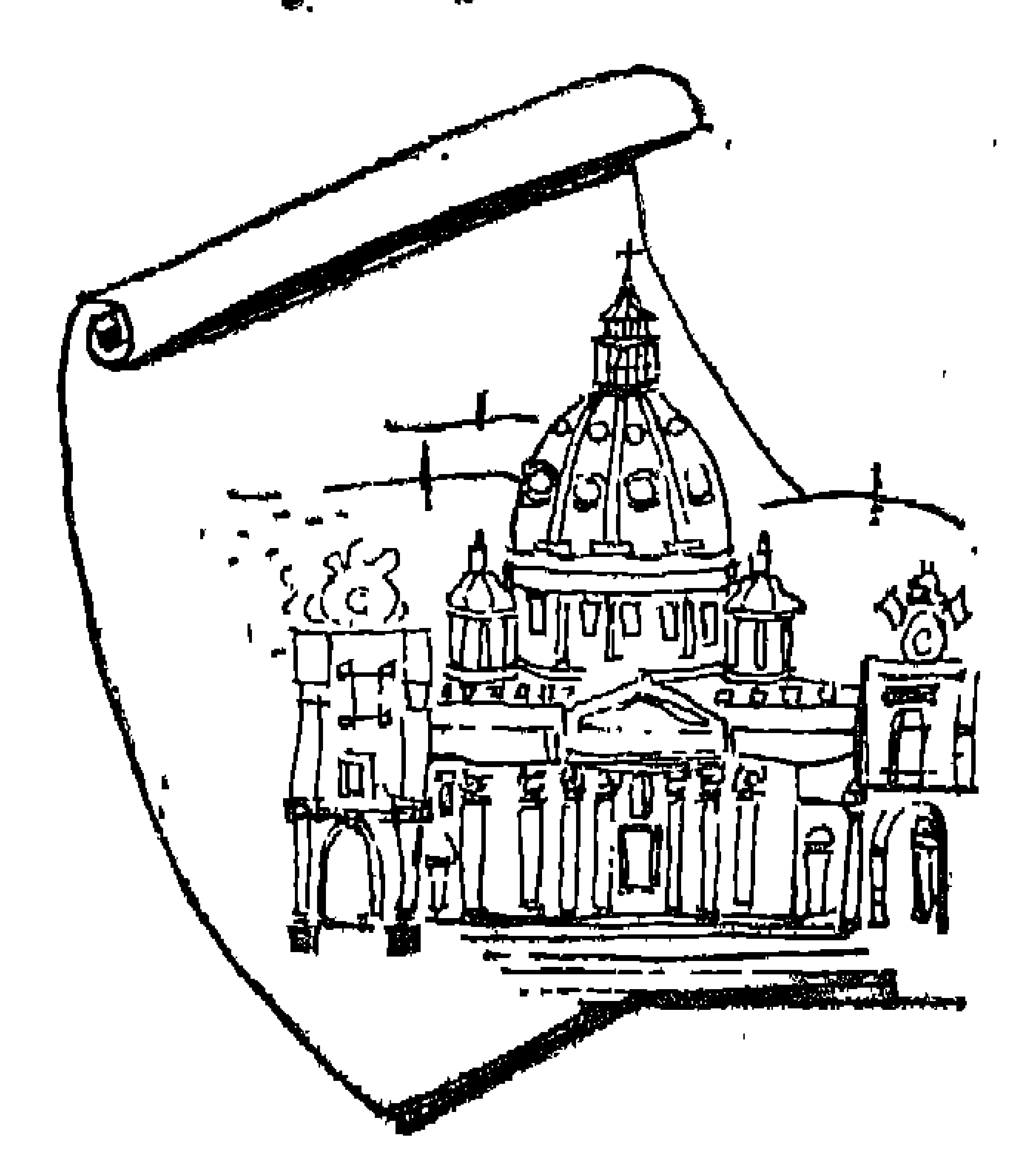
ولهذا فان ايخمان ـ كما يقول المؤلفان ـ اشترك فى وضع حجر الاساس الذى قامت عليـــه بعد ذلك دولة اسرائيل !

وفى مارس سنة ١٩٣٩ سافر من برلين أول فوج من الشبان اليهــود الالمان .. بناء على هـــذه الخطة .. واعطاهم النازيون قطارا خاصا .. وجمعوهم فى القطار الى فينا حيث انضم اليهم فوج اخر تحت اشراف ايخمان شخصيا ! .. ثم يستمر الكتاب فى وصف الرحلة الاولى حتى وصلوا الى شواطىء فلسطين .. وهبطوها سرا .. وتسللوا الى المستعمرات اليهودية المتفرقة !

الفصل التاسع

البابا.. والكنيسة
ووثيقة تبرئة اليهود

- قصة العلاقة بين البابا بيوس الحادي عشر والنازي
- هل هناك لدى إسرائيل ما تضغط به على الفاتيكان ؟



قصة البابا ، والمؤتمر الكاثوليكى العالمى والوثيقة التى أصدرها لتبرئة اليهود الحاليين من دم المسيح ، وما يشاع عن وجود ضغط صهيونى على الكنيسة الكاثوليكية ..
كل هذه خيوط تتجمع منها قصـــة من أعجب القصص السياسية فى هذا العصر !

ولعل الكتابة التحليلية الواقعية فى هذا الموضـــوع تكون بالغة الحرج ، لانها تصدم كثيرا من المشاعر فى كثير من الجبهات

هل هى قصة دينية تدور حول صلب المسيح ؟

هل هى قصة عنصرية تتصارع فيها النزعات السامية والمعادية للسامية والصهيونية وغيرها ؟

هل هى قصة سياسية تحتدم فيها مواقف الشيوعية والنازية والرأسمالية وما اليها ؟ ..

انها كل هذا !

ولست أظن أن من مهمة هذا الكتاب أن يتصدى لهذا الجانب او يتعمق فيه . ان المسيحية تقول ان اليهـــود هم الذين صلبوا المســـيح ثم قالوا ان دمه عليهم وعلى ابنائهم من بعدهم فهم مسئولون عن هذا الجرم حتى اليوم، والتعديل الذى أراد الفاتيكان ان يدخله هو ان يهود اليوم، بعد ما يقرب من الفى سنة ليسوا مسئولين ولا ملعونين على هذا الجرم . أما الدين الاسلامى فهو يعلن ان الجريمة

ذاتها لم تقع قط ، وبالتالى فلا مسـئولية هناك ولا مسئولين !

الموضوع الدينى اذن قديم . والجدل فيه قديم . ولو كان ما استجد من راى الفاتيكان مسألة دينية فحسب ، لما أثار هذا الضجيج كله

ولكن اول امتداد لهذه القضية هو : الامتداد العنصرى

إن الاضطهاد العنصرى ظاهرة قديمة ، عرفتها أوروبا بالذات عبر القرون الوسطى وحتى العصر الحديث .. كما جاء فى الفصل السابق

والحروب الدينية والعنصرية ، والمذابح الدينيـة والعنصرية ، تشغل جانبا باهظا من تاريخ القارة الاوروبية كلها ..

ومن بين المظاهر العنصرية القـديمة فى أوروبا : نزعة معاداة السامية التى كانت تجد التعبير عنها فى اضطهاد اليهود ، جيلا بعد جيل ، على يد النظم الاوروبيـة الدينية والدنيوية ..

فما انزله هتلر باليهـود ، لم يكن أول ما انزل بهم فى ظل الحضارة الاوروبية بشتى تقلباتها ..

هذه العنصرية ، والنزعة المعادية للسامية ، لم تعرفها المنطقة العربية قط . أولا لان العرب ساميون . وثانيا لان الدين الاسلامى لم يقل بنظرية صلب المسيح . وان كان العرب قد أصبحوا فجأة وفى القرن العشرين ضحايا لعدوان صهيونى يهودى متعصب ، يتمثل فى احتـلال فلسطين وتشريد العرب واقامة دولة أسرائيل ..

وكأن العرب المتسامحين يدفعون بذلك ثمن قرون من التعصب العنصرى الاوروبى ، كانت قمتها هى ما ارتكبه هتلر فى منتصف القرن العشرين !

وعندما كان الباحثون والمؤرخون ينقبون عن أسباب اضطهاد اليهود المستمر فى أوروبا ، كانوا يصطدمون دائما بسبب كبير بين الاسباب هو : ما يسجله التاريخ عن جريمة اليهود فى صلب المسيح !

ودائما .. كان هناك حلان متصارعان للمشكلة اليهودية ..

حل يقول بتجميعهم فى دولة واحدة ، تكون وطنا قوميا لهم . وهذا الحل كان يتفق عليه المتعصبون ضد اليهود ، أولئك الذين يريدون لهم أن يختفوا من حياة بلادهم ، والمتعصبون من اليهود ، اولئك الذين تكونت منهم الحركة الصهيونية ، التى وصلت الى اقامة دولة اسرائيل على اشلاء شعب عربى !

وحل ثان يقول بأن انتشار روح التحرر والتسامح والمساواة ، واختفاء نزعات التعصب الدينى والعنصرى، سوف تؤدى الى ذوبان اليهودى فى البلاد التى يعيش فيها حين يحس أن له ما لابنائها من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات . وهو الحق الذى يسمى بال Assimilation وقد سبق الحديث عنه فى فصل سابق .

والخلاف ، فى العالم اليهودى نفسه ، ما زال حتى الان حادا بين الاتجاهين ، حتى بعد قيام دولة اسرائيل.. فبصرف النظر عن أن كل يهودى ـ بالتأكيد ـ يتمنى ان تظل وتزدهر دولة اسرائيل ، وهذا أمر طبيعى ، فان هذا الخلاف يتمثل فى قضايا اخرى ، كقضية الهجرة الى اسرائيل ..

وكلنا نذكر الانفجار العنيف الذى حدث منذ سنتين تقريبا ، حين ندد بن جوريون بكل يهودى يعيش خارج اسرائيل ويرفض الهجرة اليها ، ذاهبا الى حد اتهامه

فى يهوديته ذاتها .. فتصدى له يهود انجليز وفرنسيون وامريكان ، ممن لا يريدون بالطبع التضحية بحياتهم فى تلك البلاد والهجرة الى اسرائيل . فيومها أيضـــا كان راى اصـــحاب بن جوريون ان ما يراه اليهود اليوم من موجة تسامح فى الغرب أمر عارض ويمكن ان يتحطم فى اى مناســـبة . وبالتالى فليس لليهودى الا دولته . فى حين كان من رأى خصومه ان الاتجاه الى الاندماج وال Assimilation قوى ونهائى . والتطور الانســـانى لا يسمح برجعة الى الوراء فى مجال التمييز العنصرى والدينى ..

المهم هو : أن مصلحتنا الواقعية والســـياسية تكمن بالتأكيد فى الاتجاه الثانى الذى يهدف الى اندماج اليهود فى بلادهم المختلفة ، وليس فى الاتجـــاه الذى يرمى الى التمييز ضدهم وبالتالى الى تجميعهم فى دولة اسرائيل ، وتدعيمها بالملايين فوق الملايين عن هذا الطريق ..

وحين نجد اسرائيل والحركةالصهيونية العالمية تعملان من اجل تحويل موقفنا نحن العرب من اسرائيـــل ، من موقفسياسى وطنى الى موقف عنصرى تاريخى ، يجب ان ننتبه ، وان نكشف هذه المحاولات فى مهدها

اولا ، لان النزعة المعادية للسامية غريبة ـ تاريخيا ـ عنا وهى نزعة أوروبية فى الدرجة الاولى

وثانيا ، لان مصلحتنا السياسية هى فى انتشار موجة التحرر الاوروبية ، التى تجعل اليهود يجـــدون مكانهم الطبيعى فى مختلفبلاد العالم ، لا فىدولة اسرائيل القائمة غصبا على أرض عربية هى فلسطين !

ووثيقة الفاتيكان الاخيرة ، من هذه الزاوية غير الدينية يمكن ان تخدم دعاة هذا الاتجاه الثانى ..

ولكن هل المسألة بهذه البساطة ؟ ..

هل المسألة كل المسألة هى ان هذا الاتجاه الى التحرر والقضاء على الحزازات العنصرية اتجاه سليم ويناسب فى منطقة تاريخنا ومصلحتنا .. وخلاص ؟ ...

ان السياسة ــ مع الاسف ــ لا تعرف هذه المثاليات. ولذلك فعلينا ان ننقب عما وراء هذا من ظلال . وهذا ينقلنا الى الجانب الثالث من جوانب القضية الغريبة ..

ان الحركة الصهيونية ــ بفروعها المتشعبة ــ تعمل فى الواقع على مستوى عدة جبهات واتجاهات ..

حيث تستطيع تحريك الشكوك القديمة ، والتلويح باحتمالات عودة الاضطهاد ، لتدفع مزيدا من اليهود الى الهجرة الى اسرائيل .. تتحرك ..

وحيث لا تستطيع ، ان تعمد الى استغلال الاتجاه المتحرر الداعى الى ازالة كل أسباب التمييز : بأن تربط هذا التحرر لا بقضية اضطهاد اليهود الاوروبية القديمة، ولكن بقضية اسرائيل والدولة الصهيونية الجديدة . حتى انها ، بنشاطها فى مجال الفكر بالذات ، تنجح أحيانا فى ان تجعل تأييد اسرائيل والصهيونية ،علامة من علامات الفكر والتمدن ..

وحيث لا يسعفها التعصب ولا يسعفها التحرر ، تعمد الى سلاح عجيب خطير ، هو سلاح عقدة الذنب ، وابتزاز هذه العقدة ..

كيف ؟

أمامنا نموذج شهير فى اسلوبها تجاه المانيا الغربية : فالنظام الهتلرى قد اباد من السوفييت الملحدين والبولنديين الكاثوليك والبلقانيين الارثوذكس أكثر مما أباد من اليهود . ولكن حسابات كل هذه المذابح ختمت واغلقت ، وبقى حساب اليهود مفتوحا .. لان هناك من يحرك عملية استغلاله باستمرار ، وتحويله الى عقدة يكفر

عنها بالتعويضات والاعانات

فهل هناك « عقدة » تبتز بها الصهيونية الفاتيكان ؟
نعم .. !

وهذا ما كشفت عنه الوثائق الخطيرة التي نشرت أخيرا ..

فقد ازيح الستار لاول مرة عن جزء جديد من ارشيفات الاوراق الخاصة بالدولة النازية الهتلرية ، وكان الجزء الجديد خاصا بالعلاقة بين المانيا النازية والبابا الاسبق بيوس الثاني عشر ..

ان « النازية » هي احدى الخطايا الكبرى للحضارة في القرن العشرين . خطيئة يتنصل منها الان كل فرد وكل مؤسسة ، كما يتهرب السليم من الاجرب ..

فهل يمكن ان يكون البابا نفسه ، بمركزه الروحي الهائل ، قد انزلق ، أيام المد النازي الرهيب ، الى تأييده ؟ ..

لعلنا نذكر مسرحية « المندوب » التي اثارت ضجة كبرى في العالم سنة ١٩٦٤ ، والتي دارت حول البابا بيوس الثاني عشر ، وسكوته خلال الحرب العالمية الثانية ، بينما جنود هتلر يجمعون اليهود من الشوارع المحيطة بالفاتيكان ذاتها ، الى حيث كانوا يبادون في غرف الغاز .. سكوته رغم معارضة بعض رجال الكنيسه له ، سكوته رغم ان الامور وصلت في أوروبا الى درجة لا تسمح لاحد بالسكوت أو الحياد السلبي ..

وكانت الطريقة التي استغلت بها المسرحية تنم عن ابتزاز واضح للكنيسة الكاثوليكية وتهديد لها بكشف هذه الصفحة ..

وقد جاءت الوثائق الرسمية التي أذيعت اخيرا ــ

ولعل اذاعتها ايضا ليست مصادفة ـ لتؤكد ان ما ذهبت اليه المسرحية ، فى أساسه صحيح ..

ولكن ماهو « المنزلق » الذى انزلق منه البابا بيوس الثانى عشر الى تأييد هتلر او السكوت عنه ؟ ..

ان البابا بيوس الثانى عشر ، قضى سبعة عشر عاما من حياته فى الكنيسة ، يعمل فى المانيا ، قبل ان ينتخب للبابوية . وشهد هناك فترة العشرينات والثلاثينات حين كادت الحركة الشيوعية تستولى على الحكم فى المانيا ثم لم يقهرها الا لجوء الراسمالية الى دكتاتورية هتلر لتدميرها ..

والذى يبدو لى ، من قراءة الوثائق المنشورة ، انه منذ ذلك الوقت تكون لديه اقتناع مبسط : ان الشيوعية بوصفها دعوة الحادية ، هى الخصم الاعظم للكنيسة ، والنازية هى الاسلوب الوحيد الذى نجح فى وقف الشيوعية . وبالتالى فعلى الكنيسة ان تقف من النازية موقفا مؤيدا .. او موقفا غير معاد على الاقل

هذا التفسير ، يؤكده تصرف البابا بعد ذلك خلال الحرب العالمية الثانية . فمن بين الوثائق المنشورة ، على سبيل المثال :

فى يوم ٢ مارس ١٩٣٩ ، انتخب بيوس الثانى عشر بابا على الكنيسة الكاثوليكية . وفى يوم ٦ مارس ارسل خطابا الى هتلر ، ينبئه بهذا الامر

والخطاب نفسه اجراء روتينى ، يرسله اى بابا جديد الى رؤساء الدول المختلفة لدى انتخابه .. ولكن الباحثين فى أرشيف الدولة الهتلرية وفى أرشيف الفاتيكان نفسه لاحظوا أمرين : الاول ان الخطاب المرسل الى هتلر هو اطول الخطابات المرسلة الى رؤساء الدول واكثرها حرارة، والثانى ان البابا قد وقع بيده ، لا على الخطاب الاصلى

المكتوب باللغة اللاتينية كالعادة ، ولكن أيضا على الترجمة المرفقة بالخطاب

وبعد ارسال الخطاب بأسبوع تقريبا ، ارسل «بيرجن» السفير الالماني في الفاتيكان رسالة الى وزير خارجيته في برلين « فون ريبنتروب » يقول فيها ان البابا تعمد أن يشعره بأن أول خطاب أرسله الى رئيس دولة كان خطابه الى هتلر

ولم تكد تمضى أسابيع على انتخاب البابا ، حتى كانت الازمة التي ساقت الى الحرب العالمية الثانية قد انفجرت، وهى أزمة مطالبة هتلر بضم اجزاء من بولندا الى بلاده.

ماذا كان رد فعل البابا خلال هذه الازمة ، مع ملاحظة ان بولندا حتى ذلك الوقت كانت أكثر دول أوروبا كاثوليكية تقريبا ؟

ارسل الى « بيك » رئيس بولندا يقترح عليه اعطاء الاقليات الالمانية مزايا جديدة . ثم أرسل اليه مرة أخرى يقول له « ان اعطاء دانتزيج ويويلنيا الى المانيا قد ينقذ السلام » ويومها ثار « بيك » ورد عليه قائلا : ان نشر رسائل البابا سوف يصدم الرأى العام البولندى الكاثوليكى

واشتعلت الحرب ، اذ اجتاح هتلر بولندا كما هو معروف في سبتمبر ١٩٣٩ ، أى بعد ستة أشهر فقط من انتخاب البابا السيىء الحظ !

وبتاريخ أول يناير ١٩٤٠ ، أى بعد نشوب الحرب واجتياح بولندا وتحطيمها بأربعة أشهر ، أرسل القائم بأعمال سفارة المانيا في الفاتيكان رسالة يسجل فيها مقابلته الاخيرة للبابا ، ويروى فيها ان البابا أبقاه لديه أكثر من الوقت الرسمى المحدد للزيارة ، وانه قال له خلال المقابلة أن ما يشاع عن نفور البابا من النظم الشيوعية « الدكتاتورية » غير صحيح . بدليل ملاقاته

الطيبة مع النظام الايطالى القائم » وهو نظام موسوليني الفاشستى »

وقد كان البابا يصدر بيانات يعرب فيها عن أسفه ، بوجه عام ، على الدم المراق ، عندما هاجمت المانيا بولندا ، وبعد ذلك هولندا ، وبلجيكا ، وفرنسا . ولكن لوحظ انه لم يصدر حتى مجرد بيان عام عندما هاجم هتلر النرويج والدانيمارك . ولوحظ ان جريدة « أوسرفاتورى رومانو » الناطقة باسان البابا ، كتبت فى اليوم التالى لهذا الهجوم الاخير تقول : « انه لا يوجد فى النرويج سوى ٢٠٠٠ كاثوليكى فقط . واذا كان البابا له رايه فى الموقف من الناحية الاخلاقية ، الا انه ، من الناحية العملية ، يجب ان يفكر فى مصير ٣٥ مليون كاثوليكى يعيشون فى المانيا »

وفى ارشيف المانيا الهتلرية ، ان المندوب البابوى فى المانيا كان يقابل مدير ادارة البروتوكول فى وزارة الخارجية الالمانية يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ ، خلال اجتياح القوات الالمانية لفرنسا ، فقال له انه مسرور للغاية من الانتصارات العسكرية الالمانية ، وانه يتمنى الا تتأخر ايطاليا فى دخول الحرب الى جانب هتلر ، وكان هذا الحديث قبل دخول ايطاليا الحرب بساعات !

الوثائق التى نشرت أخيرا حافلة بهذا النوع من التقارير . لا اظن ، بعد تقديمها كنماذج ، انه من المهم سرد الكثير منها . ولكن من المهم القفز الى الوثائق الخاصة بسنوات الحرب الاخيرة ، عندما بدأت المانيا النازية تنهار ، وبدأت القوات السوفييتية تزحف من اطراف آسيا الى قلب أوروبا ..

ففى سنة ١٩٤٣ ، توجد خطابات ــ نشرت ــ كتبها السفراء الالمان لدى الفاتيكان ، خلاصتها : ان البابا يقول

ان هناك أرضا مشتركة بين الكنيسة والمانيا هى محاربة الشيوعية . وانه لذلك لا يمكن العمل من اجل اعلان هدنة بين الحلفاء الغربيين وهتلر ، تسمح له بتركيز كل قوته ضد الاتحاد السوفييتي بل يجب أن يقوم بين هتلر والحلفاء الغربيين تحالف ايجابى ضد الاتحاد السوفييتى

وعندما أخذ الحلفاء موقفا ، عدم التفاهم مع المانيا الا بعد التسليم بدون قيد ولا شرط .. نقلت التقارير المنشورة ان البابا كان معترضا على هذا الموقف من هتلر

وفى تلك الاوقات بالذات ، اشتدت حركة النازية ضد اليهود ، وتمت واقعة القبض على يهود روما بالذات

ولم يتحرك البابا : لانه كانلا يريد أنيسهم فى اضعاف موقف المانيا ، التى ظل يعتقد انها الحاجز الوحيد ضد غزو الشيوعية لاوروبا

ومن يقرأ الوثائق المنشورة سوف يلاحظ ان هذا « التفاهم المتبادل » بين البابا وهتلر ، ليس معناه ان العلاقات بينهما كانت « سمنا على عسل » . فقد كانت تمر بفترات بالغة الصعوبة والتوتر ، ولكن هذا كله كان يقف عند حد معين لا يتعداه : محافظة على اقتناع البابا بفكرة ان المانيا الهتلرية هى الحاجز الوحيد ضد الشيوعية ..

والذى زاد وضع البابا صعوبة ، ان رايه هذا لم يكن يوافقه فيه كل رجال الكنيسة الكاثوليكية ، خصوصا الذين تعرضوا لمحنة الاحتلال النازى فى فرنسا وبولندا وغيرها . وهنا أيضا تنم الوثائق عن انه كان هناك صراع حاد داخل الكنيسة الكاثوليكية حول الموقف من النازية بوصفها عدوانا على كل الشعوب والاجناس

وحين نعود الى أسماء أقطاب الكنيسة الكاثوليكية التى ظهرت علىالسطح فى مؤتمر الفاتيكانالاخير ، والتى

اشتد بينها الجدل حول وثيقة تبرئة اليهود وغيرها من الوثائق ، نجد انها نفس الاسماء تقريبا ، التى اختلفت حول قضـــية الموقف من اننازية ، منذ خمس وعشرين سنة . وكلهم كرادلة فوق السبعين من العمر !

وهذا كله بالطبع غير خاف على اسرائيـــل ولا على الصهيونية العالمية ، ومن هذه الثغرة تستطيع بالتأكيد أن تمارس داخـــل الفاتيكان ارهابا من نوع الارهاب الذى تمارسه علنا فى المانيا الغربية : بتهديد كل سياسى وكل موظف كبير بكشف علاقته القديمة مع انازي للتشـــهير به وتدمير مستقبله .. فى الوقت الذى تمارس فيـــه جهدها على مستوى آخر ، للربط بين قضية « التحرر » بوجه عام وقضية « اسرائيل » الـــدولة ، والصهيونية الحركة ، لا اليهودية كدين فحسب ..

تلك هى طبيعة الارض التى نواجهها فى هذه المشكلة ، بتعقيداتها المختلفة وأبعادها الواقعيـــة : وتصرفنا ـ خصوصا الدعائى ـ ازاءها يجب أن يكون شيئا آخـر غير مجرد رد الفعل الصارخ العصبى ، تصرفنا يجب ان يؤكد على عدة معان هامة لتطورنا القومى والاجتماعى كله

ـ ان مبادىء التحرر والتسامح والبعد عن العنصرية هى مبادئنا ، وان اسرائيـــل هى مظهر حركة عنصرية رجعية هى الصهيونية ، وهى تركة اضطهادات أوروبية غير عربية ، وان الفهم الحقيقى لقضايا التحرر والمساواة هو الى جانب العرب لا ضدهم ، وعلى العرب اخذ زمام المبادرة فى هذا المجال ..

ـ اننا مستعدون دائما لنكشف كل محاولة اسرائيلية لاستغلال الدين والهيئات الدينية فى قضايا سياســـية فنحن لن نقبل أن تســـوى أوروبا تركتهـا العنصرية والسياسية الثقيلة .. على حسابنا !

الفصل
العاشر

أبا إيبان والقومية العربية

أبا إيبان ، اليهودي الفلسطيني ، الذي يجيد اللغة العربية ، ويتعمق في دراسة التاريخ العربي والتراث العربي ، ويترجم مؤلفات توفيق الحكيم إلى اللغة العبرية يشرح رأيه في القومية العربية .. والوحدة العربية



الكتاب الذى اقدمه فى هذا الفصل يوضح لنا نقطــــة الارتــكاز التى يقف عليها التفكـــير الاسرائيلى والدعوة الاسرائيلية فيما يتعلق بنا . انه كتاب يتحدث عنا نحن العرب وعن حركة القومية العربية ، كتاب يحـــاول ان يفلسف الماضي والحاضر والمستقبل . أما مؤلفه فهو من أبرز الاسماء السياسية والفكرية فى اسرائيل

ان المؤلف هو « أبا ايبان » اليهودى الفلسطينى الذى يجيد اللغة العربية ، ويتعمق فى دراسة التاريخ العربى والتراث العربى والذى شغل منذ سنوات منصب مندوب اسرائيل فى الامم المتحدة ثم سفيرها فى أمريكا

كان ابا ايبان قبل الحرب العالمية الثانية يقوم بتدريس اللغة العربية والادب العربى فى جامعة كامبريدج ، ويومها نشرت صحفنا اسمه لاول مرة عندما ترجم رواية توفيق الحكيم الشهيرة (يوميات نائب فى الارياف) . ولما قامت الحرب العالمية ، عملت المنظمات الصهيونية على تعيينه ضابط اتصال لدى قيادة القوات البريطانية فى القدس لينظم علاقتها بالمتطوعين الصهيونيين . واشترك ابا ايبان بعد ذلك فى كل الاحداث التى ادت الى ظهور اسرائيل . ثم ارسلته اسرائيل ليكون اول ممثل لها فى الامم المتحدة ثم ليكون سفيرا لها فى واشنطون ...

والكتاب اسمه « موجة القومية »

فى البدء ، يدافع أبا ايبان عن فكرة القومية بوجه عام . فيقول ان البلاد التى تتهم الحركات القومية بالتعصب وضيق الافق هي البلاد التى اكتملت حركتها القومية . فكل بلد كان دائما يتحمس لقوميته ، وكنه يتهم قومية الاخرين بالتعصب ! ثم يقول أن محاولة احلال (العالمية) محل القوميةخطأ . لان القوميةوالعالمية ليستا شيئين متعارضين . فالعالمية هى مجموع من الوحدات القومية . وتعدد اللغات والثقافات وتنوع التراث الفنى ، وغير ذلك من مميزات القوميات المختلفة، كلها أشياء تساهم فى اثراء العالم وتنويعه . ان وجودها فى العالم يشبه احتواء العالم على سهول وبحار وانهار وغابات ووديان ، مما يجعل العالم أكثر جمالا واكثر ثراء ..

ثم يقول المؤلف : ان مركز الحركات القومية التى تشغل العالم الان قد انتقل من أوربا الى اسيا وافريقيا . وبعد ان يذكر عددا من هذه الحركات يقول : ان أكثرها سطوعا وبزوغا كان ولا شك تحرر الامة العربية وتقدمها فى الطريق نحو هذه الحرية (فقد حقق العرب استقلالهم فى ظل اكثر من ١٠ دول عربية مستقلة عدد سكانها اكثر من ٨٠ مليونا ومساحتها اربعة ملايين ميل مربع ، تز ثروات طبيعية هائلة ، وتضم مراكز الحضارة العربيةالتى وصل فيها العقل العربى الى أقصى درجات الاشعاع ، مثل القاهرة ودمشق وبغداد والمدن المقدسة فى شبه الجزيرة العربية . ثم يقول : انه لم يحدث فى تاريخ العرب ان كانت لديهم الفرص الهائلة ، سياسيا واقتصاديا ، التى تتوافر امامهم الان .. فرص ضخمة تزيدها ذكريات المجد ثراء » ..

وبعد سطور اخرى من التقريظ والاعجاب يضع ابا ايبان أول نصل حاد تحت هذا الحرير فيقول : (.. ولكن القومية العربية ، رغم كل هذه النتائج الباهرة ، لا تواجه العالم بوجه سعيد بالنصر ، بل تواجهه بمرارة عنيفة)

هذه الفقرة العابرة ، تتفرع منها فى أنحاء الكتاب خيوط كثيرة رقيقة ، تحاول ان تنسج لدى القارىء احساسا بأن العرب يجب ان يكونوا راضين قانعين سعداء بما حققوه ، وانه ليس هناك ما يستحق مرارتهم ابدا . ويكمل هذا ان المؤلف لا يشير فى كل الكتاب بكلمة واحدة الى الطريقة التى ولدت بها اسرائيل . ولا يشير بكلمة واحدة الى أن هناك شيئا اسمه مليون لاجىء ، فهو يعرف انه يخفى أسبابا قوية للمرارة

ونعود الى منطق ابا ايبان .. فنجد انه يقول ان هذه المرارة ترجع الى ثلاث حلقات من التوتر ، يسجلها بهذا الترتيب :

الاولى ـ توتر علاقات العرب ببعضهم البعض

الثانية ـ توتر علاقتهم بالغرب .

الثالثة والاخيرة ـ توتر علاقتهم باسرائيل

وتفسير ابا ايبان لما يسميه توتر العلاقات بين العرب انفسهم يرجع فى رأيه الى وجود تياران : تيار يحاول جذب البلاد العربية فى اتجاه الوحدة والمركزية ، وتيار يحاول أن يدافع عن تنوع الاقطار العربية وتعددها واختلاف ظروفها وضرورة تحقيق اللامركزية فيها . وصراع هذين التيارين فى رأى ابا ايبان هو السبب الاكبر فى كل توتر فى العلاقات العربية ، وبالتالى فى المنطقة بوجه عام ..

وفى صراحة كاملة ، وحماسة بالغة ، ينضم ابا ايبان الى (التيار الثانى) الذى يعارض الاتجـــاه العربى الى مزيد من الوحدة ، ويشــغل صــفحات كثيرة من كتابه فى سرد الشواهد السياسيةوالتاريخية والفكريةوالاقتصادية التى تبرر وجهة نظره ..

وهذه عينة من هذه الادلة :

البلاد العربية ، تاريخيـــا ، تعودت ان تعيش دولا متفرقة .. وفى الفترات القصيرة التى اتحدت فيها ، كان توحيدها بالغزو العسكرى لا بالرضى والاختيار ..

طبيعة العرب هى ان يعيشوا منفصلين لا ان يعيشوا متحدين . وقد عاشوا منفصلين حتى فى فترات استقلالهم . فليس صحيحا ان تفرق العرب وانفصالهم يرجعان الى تآمر الدول الاجنبية الكبري او تدخلها ..

صحيح ان الثقافة العربية واحـــدة والتراث العربى واحد واللغة العربية واحدة . وصحيح أيضا ان التكوين النفسى والدوافع العاطفية للعرب واحدة . وصحيح ان هناك طريقة فى التفكير والكلام ، فى الحزن والفـرح ، فى الحب والكراهية ، خاصة بالعرب وحدهم . ولكن هـذا كله لا يؤدى حتما الى الوحدة السياسية . فدول امريكا اللاتينية مثلا بينها هذا التشابه دون ان تخطر الوحـدة ببالها ، فلا تصـــدقوا ان هذه العوامل المشتركة تؤدى حتما الى تدمير الحدود السياســية الحالية بين الدول العربية والى خلق دولة عربية واحدة ..

فى صفحات كثيرة ، يدق ابا ايبان بشدة على هـــذه الحجج .. يريد أن يحفر فى الاذهان فكرة واحدة : هى ان القومية العربية والتحرر العربى لا علاقة لهما بالدعوة

الى الوحدة .. ومن يقرأ الكتاب يجد ان أبا ايبان يحس احساسا قويا أن هناك شعورا عارما بحتمية هذه الوحدة. وهو يعرف أن هذا الشعور فى حد ذاته خطوة هامة فى طريق الوحدة . فهو يحاول ان يزعزع هذه الحتمية ..

ومن الممكن طبعا تعقب كل هذه الحجج واحدة بعد الاخرى . ولكنه قد يكون من الاسهل هنا ان نريح السيد أبا ايبان .. ونقول له : ثم ماذا .. بعد هذه الحجج كلها ؟ .. لنفرض ان العرب لم يتحدوا حقا منذ الف سنة . هل تشك حقا فى أنهم (يريدون) اليوم ان يكونوا متحدين ؟ وانهم يرون مصلحتهم فى هذا الاتحاد ؟ ..

ثم .. هل كان اليهود دولة واحدة منذ آلاف السنين بل .. هل عاشوا معا منذ آلاف السنين ؟..هل تشترك فى عمليات احضار اليهود من كل انحاء الارض .. من اليمن الى روسيا الى امريكا الى المانيا .. ناس لم يلتقوا قط ، ولم تتصل الارض بينهم قط ، ولم يكونوا قومية واحدة قط ... هل تقوم بهذا كله ، وتبرره ، ثم تريدنا ان نصدق ان العرب .. بكل هذه الظروف التى تجمع بينهم ، لا يصلحون لان يتحدوا ؟ !

ان هذا الثوب العلمى لا يخفى الدعوة السياسية السافرة . اسرائيل تريد ان تبقى الدول العربية ممزقة لان هذه هي مصلحتها الاساسية ..

وأبا ايبان بعد كل هذا المجهود يحس انه ما زال يقف ضد التيار .. وان حججه واهية كسدود الطين التى يجرفها النهر ، فيلجأ الى الدفاع قائلا : ان هناك نغمة شائعة الان في كل مكان من العالم تقول : يجب ان نتفاهم مع القومية العربية ! يجب ان نعترف بالقومية العربية ! واذا كان هذا معناه ان تبقى البلاد العربية

متمتعة بحق الانفصال فليس على هذا أى غبار ، اما اذا كان معنى هذا « الاعتراف بحق احدى الدول العربية فى ان تضم اليها الدول العربيه الاخرى بوسائل مختلفة .. فهنا الخطأ والخـــطر » ..

وأبا ايبان يعرف طبعا ان مسألة « ضم » احدى الدول العربية بالقوة غير واردة . وهو يعرف جيدا ان مصر وسوريا مثلا حين اختارتا الوحدة ، كان اختيارهما حرا حرية كاملة . ولكنه هنا فى الواقع ، انما يحـــارب متقهقرا . انه يشعر انه خسر نصف المعركة ، اذ ان العالم قد اعترف فعلا بأن هناك شيئا اسمه القومية العربية . ولو ان ابا ايبان كتب كتابه هذا منذ عشر سنوات مثلا لقال انه لا يوجد شيء اسمه القومية العربية . ولكنه الان ، وقد اصبح عاجزا عن محو فكرة القومية العربية ، يحاول الا يخسر نصف المعركة الآخر .. يحـــاول ان يوقفها فى اذهان الناس عند هذا الحد .. يحاول ان يحول بينها وبين ان تتطور الى فكرة الوحدة

القومية العربية شيء .. وأى وحدة عربية شيء آخر ، هذه هى الفكرة التى يدور حولها بألف وسيلة ووسيلة !

وبعد ان يشن أبا ايبان حملة على عبد الناصر ، يقول ان هناك فى العالم من ينتصرون لعبد الناصر فى خلافه مع بعض خصومه فى البلاد العربية بسبب ان خصومه رجعيون . ثم يستطرد قائلا : ان القوانين الدولية ومواثيق الامم المتحدة تحمى كل الحكومات ، سواء أكانت رجعية أم غير رجعية !

طبعا القوانين الدولية تحمى كل حكومة سواء أكانت رجعية أم غير رجعية ، ولكنه بقوله هذا انما يستند الى حجة واهية جديدة ..

الخلاف هنا ايضا يرجع الى ان ابا ايبان لا يريد ان يعترف بوحدة الامة العربية التى نؤمن بهـــــا نحن • وايماننا بوحدة الامة العربية معناه اننى هنا فى القاهرة مثلا اشعر اننى انتمى الى نفس الشعب الذى يسكن فى اى قطر عربى • الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن الخرطوم مثلا او بغداد او عمان ، لا يختلف عن الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن طنطا او الاســـكندرية . الحظ ينتظـــرنا واحد والمســـتقبل الذى نصنعه واحد • وبقاء الرجعية او الاستعمار فى قطر عربى معناه بالتالى ان الرجعية او الاســـتعمار ما زالا موجودين فى « الوطن » العربى وما زال يقاسى منهمـــا « الشعب » العربى !

وانه لمن الغريب حقا ان يصدر هذا الكلام عن اسرائيل بالذات • اسرائيل التى لديها قانون يبيح لها ان تحاكم كل من اساء الى يهودى فى اى بقعة من العالم ! فاسرائيل تعلن انها وكيلة كل من يعتنق الديانة اليهودية ســـواء أكان انجليزيا ام امريكيا ام يابانيا !!

ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ان ابا ايبان يبنى كتابه طبعا على اساس ان اليهودية قومية • وهو افتراض خاطىء تماما ، وافتراض رجعى الى اقصى الحدود • فما كان الدين ابدا قومية • فالاديان تتجه الى جميع القوميات • وكل قومية تشتمل على اكثر من دين • وافتراض اسرائيل ان اليهودية قومية معناه اعتراف منها بان مئات الالوف من العرب الذين يعيشون فى فلسطين لا يمكن ان يحملوا نفس قومية دولة اسرائيل ، لانهم مسلمون ومسيحيون • وهو بالتالى اعتراف بان الدولة التى يقيمونها تنطوى على تفرقة عنصرية صريحة وصارخة !

وان برنامجها بالتالى ينطوى ولابد على واحد من أمرين اما طرد العرب من بلادهم مرة اخرى ، واما ابقاءهم على اساس وجود درجتين من المواطنين ..

الى هنا ينتهى كلام أبا ايبان عن اول اسباب التوتر فى رأيه ، وهو « التوتر داخل العلاقات العربية »

***

السبب الثانى من اسباب التوتر فى راى أبا ايبان هو : توتر العلاقات بين العرب وبين الدول الغربية ..

وهنا ايضا ، يريد أبا ايبان ان يقول شيئا هاما : يقول ان هناك فكرة بدأت تشيع فى دوائر الغرب تقول ان اسرائيل هى السبب الوحيد لسوء العلاقات بين العرب والدول الغربية .. وأن علاقات العرب بالدول الغربية يمكن ان تتحسن كثيرا .. لولا اسرائيل !

ويحاول أبا ايبان أن يعمل على تقويض هذه الفكرة بكل ما يملك من قوة . لانه لا يريد ابدا ان تفكر الدول الغربية لحظة واحدة فى ان تختار بين اسرائيل والامة العربية التى تزداد قوة وأهمية ! وهو من أجل هذا يدخل فى بحث تاريخى ليثبت ان علاقات العرب بالدول الغربية سيئة من الاصل ، وان اسرائيل ليست السبب فى هذا أبدا !

فهو يقول أن نظرة العرب الى الغرب مرت بثلاث مراحل : فى المرحلة الاولى كان العرب ينظرون الى أوربا نظرة ازدراء واستهزاء ، وذلك ايام تفوق الحضارة العربية ، فى حين كانت اوربا غارقة فى الظلام . ويقول أبا ايبان ان العرب معهم حق فى هذه النظرة .. وهو ينقل فقرة من كتاب « المسعودى » المؤرخ العربى القديم

يقول فيها عن الاوروبيين ما معناه : « ان دمهم بارد ، اجسادهم ضخمة ، أجلاف ، عاداتهم خشنة ، فهمهم غبى، والسنتهم ثقيلة ! » ، والمرحلة الثانية كانت بالعكس ، مرحلة خضوع العرب لاوربا واعترافهم بسيطرتها وتفوقها خلال فترة انهيارهم • ثم المرحلة الثالثة التى نعيشها الان •• ويقول عنها ابا ايبان : ان العرب فيها لايشعرون نحوها بالخضوع . ولكن المشكلة ان البعض منهم يصر على أن النفوذ الاستعمارى لم يندثر بعد • ان هؤلاء البعض من العرب لا يكتفون بأنهم حققوا المساواة مع الغرب ، بل يصممون على « تسوية الحساب » والانتقام من اخطاء الماضي • المهم فى هذه النقطة هو ما ينطلق ابا ايبان الى محاولة تاكيده حين يقول : ان الازمة بين العرب وبين اسرائيل ازمة سطحية عابرة بسيطة اذا قيست بالازمة الاصيلة العميقة بين العرب والدول الغربية ، فلا تصدقى ايتها الدول الغربية ان اسرائيل هى سبب غضب العرب عليك •• بدليل ان علاقات الدول الغربية سيئة مع عدد كبير من الدول الافريقية والاسيوية ، لاسباب لا علاقة لها باسرائيل !

ولا شك ان اسباب خلافاتنا مع الغرب كثيرة ، ولكن من الواضح طبعا ان اسرائيل سبب رئيسى • وهو بعد ان ادعى انه لم يعد هناك اى استعمار ، ذكر بنفسه اندونيسيا حيث كان الاستعمار ساعة صدور كتابه يحتل اجزاء من البلاد ، وذكر الجزائر حينما كان الاستعمار يذبح المواطنيين العرب ويشردهم ويريد سلخ هذا القطر من الوجود العربى (كأن ابا ايبان أيضا لا يعترف بأن الجزائر عربية . فهو بذلك قد رد بنفسه على ادعائه ان الاستعمار قد انتهى ولم يبق منه الا حساب الماضى فحسب . ولكن كلامه عن الغرب والعرب يكشف

لنا جانبا رئيسيا فى تكتيك اسرائيل السياسى ، وما تبذله من مجهود لاقناع العرب بان اسرائيل لا علاقة لها بمشاكل الغرب معنا !

بقى السبب الثالث للتوتر وهو : العلاقة بين القومية العربية واسرائيل !

ومرة اخرى يحاول ابا ايبان ان ينفى ما يقال من ان اسرائيل هى سبب المرارة التى يحملها العرب نحو البلاد المسئولة فى نظر العرب عن وجود اسرائيل . وهو يقول انه لا اعتراض لديه على القومية العربية ما دامت لا تغير من الوضع القديم ، وهو تعدد الحكومات العربية وتنوعها « طبعا » .. وان عيب القومية العربية الثانى فى نظره « بعد عيب السعى الى الوحدة » هو انها لا تريد لغيرها ما تريده لنفسها .. فهى لا تريد للقومية الاسرائيلية ما تريده لنفسها !

وقد شرحت فيما سبق لماذا لا يوجد شىء اسمه قومية يهودية ..

وحتى اذا افترضنا جدلا ان هذه القومية موجودة فان الاعتراف الذى يريده ابا ايبان معناه ان اى قومية اخرى تستطيع ان تأتى من اى مكان فى العالم ، ثم تذبح مئات الالوف من ابناء قوميتى ، وتطرد مليونا منهم ، وتحتل أرضهم بالقوة .. لانها تريد أن يكون لها قطعة ارض فى هذا المكان بالذات !

ان أبا ايبان يختم كلامه بالحديث عن ميثاق الامم المتحدة ، وكيف ان كل التصرفات يجب ان تكون بناء عليه ، وفى مقدمتها احترام الشعوب والحكومات المستقلة ..

ونحن نوافقه طبعا على احترام ميثاق الامم المتحــدة وضرورة السير على أحكامه ..

ولكن من اى تاريخ يبدأ هذا الاحترام ؟

هل يبدأ من لحظة وضع هذا الميثاق ؟ .. اذن فان ايجاد اسرائيل فى حد ذاته كان أكبر عدوان على ميثاق الامم المتحدة الى الان . .

أم ان أبا ايبان يريد ان يبدأ احترام ميثـــاق الامم المتحدة من لحظة وجود اسرائيل ، أى من لحظـــة فوز المعتدى بنتيجة عدوانه ؟

الفصل
الحادي عشر

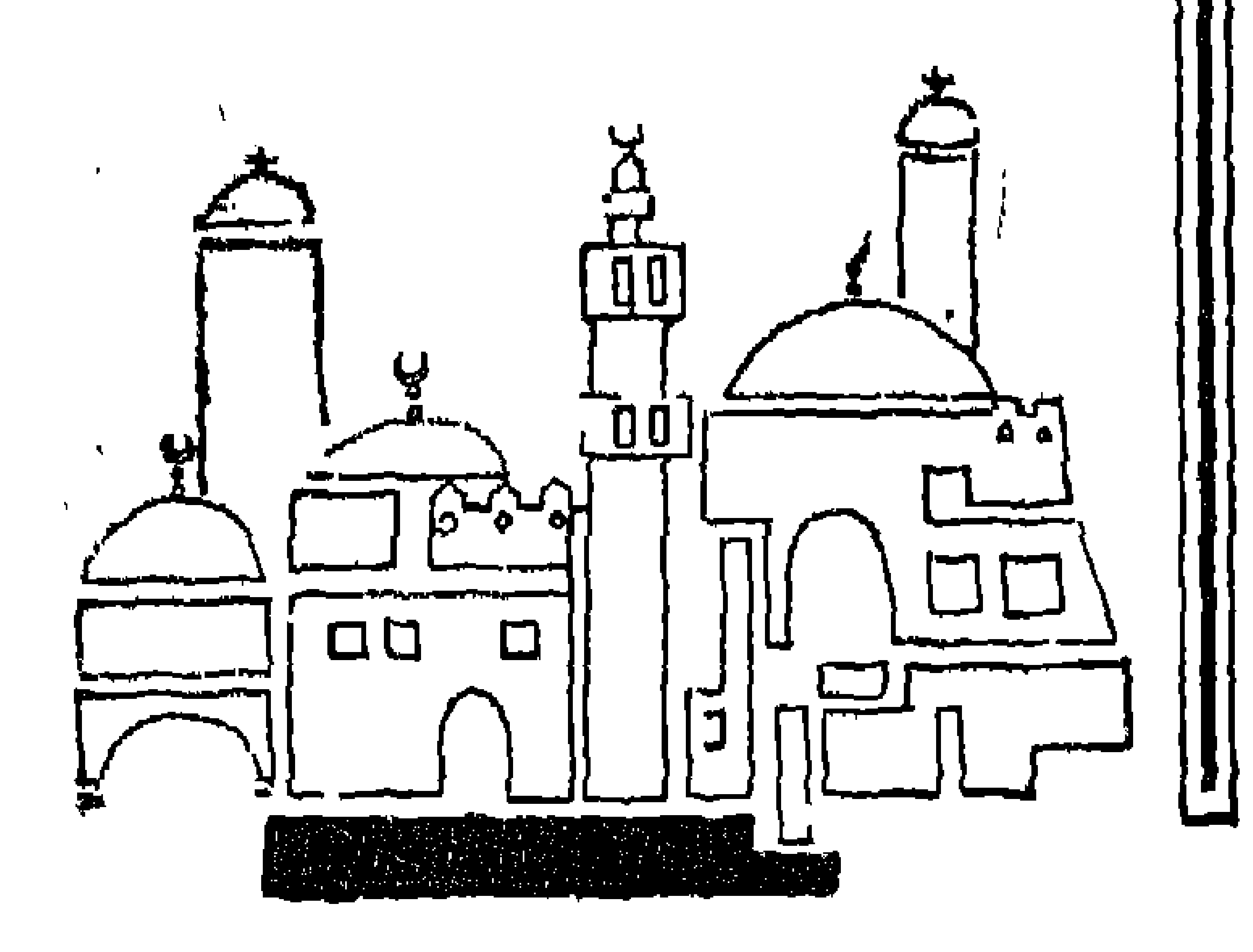
أقدار متصادمة

لقد دق القدر أبواب هذا الشرق العربي مرتين يفصل بينهما أكثر من مائة وخمسين سنة:

المرة الأولى: حين جاء نابليون على رأس الجيش الفرنسي ليحتل مصر، وليغزو هذا الشرق كله!

والمرة الثانية: حين جاءت إسرائيل منبثقة من قلب أوروبا..

فماذا عن المستقبل؟



عنوان هذا الفصل « اقدار متصادمة » استعيره من كتاب بهذا العنوان للمؤلفين الصهيونيين جون ودافيد كيشى ..

ويقصد المؤلفان بالأقدار المتصادمة ، أقدار العرب .. واقدار اسرايل : فكأن الاماني القومية العربية والامانى القومية الاسرائيلية قد بعثت فى وقت واحد تقريبا ... لكى يقع بينهما هذا الصدام الذى ما زال قائما ، كل من الطرفين كامن متحفز للآخر على أحد جانبي الجبل ...

واذا كنت اريد من وراء هذا الكلام شيئا ، فهو : ان ينظر قومى الى المسألة بأعمق مما ينظرون ، وأن يستخلصوا من البحث نتائجه العميقة بأشجع مما يفعلون الآن . .

واذا كان عجزنا ازاء اسرائيل فى الماضى سببه هو اننا كنا « متخلفين » فلا بأس من ان نعترف بهذه الحقيقة . لاننا بهذا الاعتراف وحده ، يمكن ان نصل حقا الى علاج صحيح . . .

انها اقدار متصادمة بالفعل ..

ونتيجة هذا الصدام ستؤثر فى حياتنا الى مدى اطول وعلى نحو اعرض وأعمق مما يتصور المتصورون ...

ولقد دق القدر ابواب هذا الشرق العربى مرتين اساسيتين يفصل بينهما اكثر من مائة وخمسين سنة :

المرة الاولى ، حين جاء نابليـــون على رأس الجيش الفرنسي ليحتل مصر ، وليغزو هذا الشرق كله .. فكانت أول مرة منذ اجيال سحيقة من الظلام ، يكتشف فيهـا أهل هذا الشرق وجودالحضارة الغربية الحديثة الطاغية، ويعرفون ان ظلام الامبراطورية العثمانية ليس كل شيء..

والمرة الثانية ، حين جاءت اسرائيل ، منبثقة ومندفعة من أوربا نفسها ، على النحو الذى سوف نتأمله بعد قليل

ونحن الان نضـــحك ونتعجب ، حين نقـــرأ فى تاريخ « الجبرتى » وصفه للقاء المماليك والشعب لنابليـــون والجيش الفرنسى . نضحك حين نقرا ان المماليك خرجوا بالجياد المطهمة والسيوف المذهبة ليقاتلوا مدفعية نابليون الثقيلة . وحين نقرأ ان الدراويش خرجوا بالرايات يرددون الاذكار ليقهر الله جند نابليون ، الزاحفين فى مربعات مـن النار . وربما يغلبنا الاسى ونحن نقرا الجبرتى وهو يصـف الواقعة فيقول « فلما سقط عليهم القنبر (أى القنابل) وعاينوه ، ولم يكونوا قد رأوه أو شاهدوه ، صـــاحوا : ياسلام ياسلام من هذه الآلام ، ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف !! »

ما معنى هذا ؟ . . .

معناه ان دورة الحضارة التى ماتت فى بلادنا قرونا طويلة، بينما انطلقت تدور وتهدر فى اوربا ، كانت قد خلقت هـــذا الفارق السحيق المخيف.

شعبنا لم تكن تنقصه البسالة ، فقد هرب المماليـك بذهبهم وحريمهم وبقى الشعب يثور مرة بعد اخرى . انما كانت تنقصه الحضارة . الحضارة التى هى العلم ، والخبرة ، والثقافة ، والبـــارود ، وادراك روح العصر بسياساته وافكاره وعناصر الصراع فيه . وليس ادل علي

ذلك من ان نابليون ، مبعوث اوربا وممثلها القوى ، جاء باول مطبعة وجاء بعلماء وخبراء يكتشفون بلادنا ، ويرسمون خرائطها ويدرسون مواردها ، ويستكشفون حتى آثارها وتاريخها . ذلك ان المجتمع الراكد المظلم المتخلف كان يعيش فوق هذا كله دون أن يعرفه او يهتم به . كان مجتمعا جف ماء الحياة فيه ، وماتت خلاياه ، وضمرت اطرافه ، وانطفأ سراج عقله .. وان ظل يقاوم ويقدم الضحايا سنة بعد اخرى .. دون ان يصل الى شيء ..

كانت الحملة الفرنسية هى التحدى الخطر والصدمة الكبرى . بعدها لم تعد الامبراطورية التركية أبدا كما كانت . ولم يعد الشرق العربى ابدا كما كان . بدأت الخلايا تتنبه ، والعقل يتحسس ، والقلب ينتفض . بدأت المقاومة هنا وهناك ، تضيء وتخبو ، تحبو وتتعثر ، ولكن فى الطريق الصاعد دائما ، حتى الفصل الاخر ، الفصل الطويل الذى بدأ بالحرب العالمية الاولى والثورة العربية وثورة ١٩١٩ ، وانتهى بالحرب العالمية الثانية ..

***

وقد بدا ، فى غمرة الآمال التى شملت العالم كله بعد الحرب الثانية ، وفى موجة ثقة الشعب العربى بما حققه وتفاؤله بمستقبله ، ان نهاية هذه الحرب ستغسل معها آخر آثار الاستعمار فى الشرق العربى وستزيل آخر العوائق التى تمنع العرب من الانطلاق . ولكن اوربا كانت تعد للعرب الصدمة الثانية الهائلة : صدمة اسرائيل ! صدمة طرد الشعب العربى طردا ، من جزء هام عزيز من بلاده ، واقامة دولة وشعب غريب دخيل مكانه . والاحتلال العسكرى اهانة . والاستعمار الاقتصادي اهانة . والتفرقة

العنصرية اهانة . ولكن لا أظن ان هناك اهانة تعادل طرد الشعب طردا من بلاده وتحويلها الى دولة اخرى

ولكن ما هي اسرائيل ؟ . .

من الزاوية التى تحدثت عنها فى هذا الكتاب ، يهمنى اسجل من ملامح اسرائيل ما يلى :

* ان الصهيونية ، فى اساسها ، حركة سياسية « دنيوية » وليست حركة دينية . هكذا كانت منذ اوجدها واسسها « هرتزل » الى ان توارثها « وايزمان » ثم « بن جوريون »

وقد سبق سرد الادلة على هذه الحقيقة . فالصهيونية ولدت كحركة سياسية للرد على اضطهاد اليهود فى شرق اوربا . كانت الفكرة من البداية ان احسن حل لهذا الاضطهاد والاحتقار أن يتجمع اليهود — او بعضهم — فى دولة وجنسية فيكسبون الاحترام والمساواة مع الآخرين . اما الدين فكان لابد ان يمتزج بالدعوة لسببين ، الاول : هو ان الاضطهاد المنصب عليهم كان له طابع دينى ، والثانى : هو ان الدين يصلح شعارا عاطفيا لاقناع اليهود بتأييد الحركةالصهيونية السياسية . واما فكرة العودة الى فلسطين بالذات ، فقد اتخذت شعارا لاثارة الحماسة العاطفية والدينية . بدليل ان بعض القائمين بالحركة ناقشوا مرة فكرة اقامة دولتهم فى تنجانيقا ، كمستعمرة بعيدة خالية

والدليل الاهم على ذلك هوانه حتى بعد ان أقيمت دولة اسرائيل فعلا ، لم يهرع اليهود اليها كما كان الناس يظنون انما ذهب اليها فقط الذين يعيشون فى بلاد اضطهدوا فيها او فى بلاد ذات مستوى منخفض من المعيشة . . اما يهود غرب اوربا مثلا ويهود امريكا ، فلم يذهب منهم احد الي

ارض الميعاد رغم صيحات بن جوريون التى وصلت به ـ من شهور ـ الى حد اتهام كل يهودى يرفض الحياة فى اسرائيل بانه خارج على الديانة اليهودية . وهى التصريحات التى اثارت ضجة مازال الجميع يذكرونها . .

* ان اسرائيل هى بنت اوربا ، وان كانت بنتها غير الشرعية . فاضطهاد اليهود فى اوربا امر صحيح تاريخيا . وكونهم ذبحوا بالآلاف ـ وبمئات الآلاف ـ حقيقة واحدة . والذى ارتكب هذا الجرم هو حضارة اوربا . الامر الذى دفع مئات الآلاف منهم الى الفرار ، فى اعداد قليلة قبل النازية وفى اعداد كبيرة بعدها . ولكن هؤلاء المهاجرين كلهم اوربيون بغير شك . ومن هنا تنشأ علاقتهم المعقدة باوربا ، علاقة ابن السفاح بأبيه . ان الاب فى هذه الحالة يخجل من ابنه الذى انجبه سفاحا ، انه لايحب ان يراه الناس أو ينسبونه اليه . انه لا يستطيع ان يجعله يعيش معه فى بيته تحت سقف واحد ومع اولاده الشرعيين . ولكنه مع ذلك لا ينسى انه ابنه وانه ينتمى اليه ، فهو يحرص على مساعدته ، والاهتمام بأمره ، عن بعد !

اوربا خجلى من حضارتها التى اثمرت ـ فيما اثمرت من خير وشر ـ مذابح اليهود . ولكنها ليست مستعدة ان تجعلهم يعيشون تحت سقفها . والا لتدفق اليهود الى غرب اوربا ولم يبرحوها . فلا بأس بأن يذهبوا الى مكان آخر ، على ان تعولهم اوربا وترعاهم

والغريب ان الصهيونيين المتعصبين يساورهم نفس الشعور . فاذا كان كثير من اليهود يفضلون لو بقوا فى اوربا ، فلا شك ان فيهم الذين يؤمنون بأن اوربا يمكن ان تضطهدهم فى اى وقت وانهم لذلك يجب ان تكون لهم دولة مستقلة فى مكان ما . ولكن حتى هؤلاء لم يتحولوا

مثلا الى اقامة مجتمع معاد لاوربا ناقم على اضطهادها له .
انهم حريصون ــ بعد ان اقاموا دولتهم ــ على ان ينتموا لاوربا ويظلوا جزاء لاصــقا بها .. ابن السـفاح يبعد عن ابيه واخوته الذين لم يولدوا سفاحا ، ولكن يحاول ان يكون نفسه وينجح ، ثم يعود للانتساب لهم كما يعــود الند للند ..

اسرائيل اذن تكونت بفعل الحركة الصهيونية لاقامة دولة يهودية من جهة ، وبفعل اوربا من جهة اخــرى .
وهى تعيش بالدافعين معا . ولكن الخلاصة ان اسرائيل هى نطفة من اوربا تنمو حيث تلامس جلدنا

وما هو وضع امريكا ، وهى صـــاحبة الدور الاول فى اقامة دولة اسرائيل ؟ ..

دورها يمكن شرحه فى كلمــة واحدة : ان كل الاسباب التى تجعل امريكا مرتبطة بأوربا ، تجعلها بالتالى مرتبطة باسرائيل !

وقد سمعت من يهودى غير صهيونى فى امريكا منــذ سنة ، ان من أسباب حماسة امريكا بعد الحرب لاقامة اسرائيل ، الا تتجه هجرة اليهود الهاربين من النازى .. الى امريكا نفسها !

اوربا اذن .. او الغرب .. او الحضارة الغربية .. هى التى ارسلت اسرائيل فى النصف الاول من القــرن العشرين الى الوطن العربى ، كما ارسلت نابليون فى النصف الاخير من القرن الثــامن عشر .. لنفس الاهــداف الاستعمارية مع الفوارق المعروفة طبعا فى سائر الظروف

***

فكيف لقينا هذا الزحف الجديد ؟ ..

اننا الآن ــ لأننا قريبون من المأســـاة ــ لا نسترجع القصة الا بالحزن والاسى . ولكن الناس بعد مائة سنة لن يجدوا هذا الذى حدث اقل غرابة مما حدث حين التقى المماليك بالحملة الفرنسية منذ اكثر من مائة وخمسين سنة !! . .

فالصدام الذى وقع على ارض فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وما قبلها وما بعدها ، لم يقع بين كذا الف جندى عربى وبين كذا الف جندى اسرائيلى . كلا . انما كان الصدام بين : اوربا بقوتها الحضـــارية والمادية .. بســـلطتها السياسية وخبثها الدولى من جهة ، وبين العرب بنظمهم المفككه ، ونظمهم الاقطاعية ، وفقرهم المادى من جهـــة اخرى . .

كان المماليك فى اواخر القرن السابع عشر احسن مـن حكام العرب وملوكهم سنة ١٩٤٨ . فالمماليك على الاقل قاتلوا قبل ان يهربوا بحريمهم ومجوهراتهم تاركين الشعب الذى سرقوه واجاعوه بمفرده . اما فى سنة ١٩٤٨ فقـد كان بعض الساسة العرب يلتقون بجـولد ماير وموشى ديان فى السر لكى يخطط معهما المعـــركة التمثيلية التى ســيموت فيهـا آلاف الجند . وكان فاروق يتـــاجر فى الاسلحة . وكان نورى الســعيد وعبد الاله يأمران الجيش العراقى بالا يتحرك على الاطلاق .. الى آخـر القصص التى اصبحت حقائق معروفة ذائعة !

فهنـــا ايضـا وجد الشـــعب نفســه متروكا امام اداة ضخمة حديثة هائلة .. وكان الشعب ايضا لا تنقصــه الشجاعة ولا البسالة .. ولكن تنقصه الاداة !

كانت الصهيونية ــ باختصار شديد ــ تمثل الغرب بكل قوته ، ومعرفته بأدوات العصر الحديث السياسية

والعلمية والحضارية . . بينما كان الشعب العربى مختنقا من الاستعمار الغربى ، ومن الاذناب المحليين ، ومن مماليك القرن العشرين فى صور جديدة . .

ثم ماذا ؟ . . .

الذين يحبون جمال عبد الناصر فى هذا العالم والذين يكرهونه على السواء ، لن يجدوا مفرا ، وهم يؤرخون ويحللون الصدام بين أقدار العرب واسرائيل ، من أن يقسموا قصة هذا الصدام قسمة حاسمة الى مرحلتين :

قبل عبد الناصر ، وبعد عبد الناصر . .

لقد نبت من هذا كله جيل جديد كافح على مستويات مختلفة وبامكانيات متباينة فى شتى الاقطار العربية من أجل نقلة جديدة فى حياة العرب ، جيل لا شك ان عبد الناصر هو اكبر رموزه ، واكبر من وضع هذه الامال موضع التنفيذ

قبل عبد الناصر ، فى حدود الزاوية التى أعالجها فى هذا المقال ، ماذا كان هناك ؟ . . .

من ناحية الصهيونية ، نجد أنه من أهم الدراسات التى يجب ان نعرفها حقا تاريخ تلك الحركة وعملها الدائب فى قلب أوربا وامريكا منذ ولدت . كيف كانت تستخدم الضغط والمساومة ، والرجاء والاملاء . كيف كانت تضع فى قلب الشرق الاقطاعى مزارع صهيونية تعاونية مؤسسة على أن تكون كل منها وحدة انتاجية واستهلاكية وعسكرية محاربة معا ، تكون نقطة للهجوم كما تكون قلعة تصمد للحصار فى نفس الوقت . وكيف كانت تؤسس نقابات عمالية قوية تمسك بأعصاب المرافق وتتغلغل وتقيم الصلات فى شرايين الحركات العمالية العالمية من جهة

اخرى .. وكيف انها تدرك فى خلال الحرب ان بريطانيا التى منحتها وعد بلفور لن تصبح القوة البازغة فى نهاية الحرب ، فتنقل ـ الصهيونية ـ نشاطها الى نيويورك ، ويكمن وايزمان هناك ليمارس كل أنواع الضغط والاقناع والمساومة مع روزفلت ثم ترومان ، ليجد ترومان فى نهاية الحرب فى مركز من يصدر الاوامر الى آتلى فى لندن .

وكيف انها حتى فى هذا كله لم تغفل عن أن روسيا هى القوة الاخرى البازغة ، فهى تحوم حولها ، وتقنعها بأن العرب هم برادع الانجليز وانهم غير موجودين كقوة فعالة، فتحقق مالم يحققه احد ، وهو اجتماع أصوات امريكا وروسيا على انشاء دولة اسرائيل .وكيف كانتالصهيونية تقيم مصانع السلاح والذخيرة فى قلب فلسطين .. مصانع كاملة نقلتها سرا قبل المعركة التى كانت تعرف انها آتية .. الى اخره .. الى آخره . كانت « أوربا تمارس كل خبرتها وقوتها وسلطتها ودهائها معا

وفى مقابل ذلك ، من ناحية العرب .. ماذا كان هناك ؟

يلخص الامر كله ان نقول ان كل الطبقات الحاكمة فى البلاد العربية كانت لا تخرج عن دائرة بريطانيا ولا ترى سوى شمسها ، منذ اعاد الانجليز خديو مصر الى العرش بقوة السلاح بعد ان اخمدوا الثورة العرابية .. ومنذ لبس لورانس العقال فى قيادة الثورة العرابية خلال الحرب العالمية الاولى .. منذ ذلك الوقت لم تر الفئات الحاكمة فى كل البلاد العربية شيئا الا انجلترا . ولم تعترف بشىء الا بسلطة الانجليز وسطوتهم وقدرتهم . وهكذا فبالنسبة لفلسطين كان كل الجهد هو رجاء الانجليز ، ومفاوضتهم والغضب منهم يوما ، لمهادنتهم يوما اخر .. وانجلترا

واوربا كلها تبيعهم يوما بعد يوم .. وهم يقبلون منهـــا
هذه يوما بعد يوم ! ..

***

ولقد كانت الشعوب تقاوم هذا كله . وتحاول أن تتغلب على تخلفها الرهيب : تارة بانتفاضات شعبية باسلة تسفح الدم ، وتارة بمحاولات فردية باسلة لنشر نور الوعى أو لاقامة منشآت اقتصادية وانتاجية وعلمية حديثة . ولكن هذا الانطلاق الى العصر الحديث والى الحضارة لم يكن أبدا جهدا قوميا شاملا تشترك فيه الحكومة مع الشعب والمال مع العمل والعلماء مع البسطاء فى حركة عضوية واحدة ...

.. الا حين بدأت المرحـــــلة التى يرمز لها ويمثلهـا عبد الناصر

والاحداث القريبة معروفة ومذكورة يكفى هنا ذكر بعضها

* فصفقة الاسلحة ، وتحطيم الاحلاف العســكرية ، وتمصير المؤسسات القومية والمالية والانتاجية ، وتكتيل الراى العام العربى الشعبى فى لحظات خارقة يضغط فيها الشعب العربى بأكمله على العدو ضغطة واحدة رغم أنف حكوماتها ، والانطلاق فى رحلة الحياد الجســور حين كان طريقها مايزال شـــائكا وعرا مهلكا .. كل هذا أدى الى وضـــع جديد تمــاما ، هو : ان قوتنـــا الذاتيــــة وارادتنا الذاتية فى مقاومة اسرائيل لم تعد متوقفة على رغبة أوربا أو الغرب كله ، أى على آباء اسرائيل الطبيعيين ، كما كان الحال من قبل

ويكفى للدلالة على عمق التحول ، اننا بعـــد أن كنا

معزولين تائهين ، وبعد أن كان ساستنا يذهبون الى الامم المتحدة مثلا اشبه بالقرويين الضائعين فى مدينة صاخبة ، بينما الشرق والغرب معا يؤيدان اسرائيل .. أصبح الان نصف العالم ــ المعسكر الشرقى ــ يعادى اسرائيل ويساندنا تماما ، وأصبحت كتلة كبرى من دول آسيا وأفريقيا تدير ظهرها لاسرائيل ، بينما المعسكر الغربى نفسه يتردد طويلا قبل أن يجاهر بمساندتها على حسابنا كما كان يفعل من قبل ..

***

ولم يتم هذا التحول بخطب منبرية فى الامم المتحدة . أو بمذكرات قانونية ترسل الى وزارات الخارجية فى لندن أو موسكو أو واشنطون . انما تم ببناء قوة ذاتية مرهوبة الجانب ، وبوجود من يدرك أدوات السياسة الدولية الحديثة ودقائقها ، وبخلق مفاهيم عربية جديدة وحمايتها وسحق أعدائها

ثم هناك رفع شعار الثورة الاجتماعية ، وهى فى الواقع حجر الاساس لبناء اى مستقبل ناجح لنا فى هذا الصدام الطويل ..

انها ثورة لتحقيق العدل من جهة ، وللحاق بالعصر الحديث وامتلاك أدواته من جهة أخرى ..

والثورة الاجتماعية تبدو الان وكأنها محور الجدل والصراع فى العالم العربى . والهياكل الرجعية التى اندحرت واثبتت افلاسها أمام اسرائيل سنة ١٩٤٨ وما بعدها تشن اليوم حملات ضاربة على الثورة الاجتماعية وحين تعجز هذه الهياكل الرجعية عن مهاجمة الثورة الاجتماعية مواجهة ، ومن الامام ، تعمد الى محاولة ايهام

الشعب العربى بأن انجاز هذه الثورة الاجتماعية يبعدنا من ساحة الصراع ضد اسرائيل ..

وهذا هو التضليل بعينه .. وهو اخطر تضـليل يجب علينا أن نكشفه فى هذه الفترة ونفضحه بشجاعة ..

لقد قادتنا هذه الهياكل الرجعية مرة ضد اسرائيل .. ونحن نعرف ماذا كانت النتيجة ..

هذه الهياكل الرجعية التى هى رمز تخلفنا القديم ، تكتشف اليوم أن استمرار تخلفنا ضرورى لبقائها . ولكن استمرار تخلفنا ضرورى لبقاء اسرائيل أيضا ! . « ان التخلف هو الشيء الوحيد الذى يضمن لاسرائيل أن تبقى فى أرضنا الى الابد »

وليس أمرا خاليا من الدلالة أن متوسط دخل اليهودى فى فلسطين قبل حرب فلسطين كان ١٤١ جنيها فى السنة بينما متوسط دخل العربى كان ٥٠ جنيها .. وان مجموع انتاج اليهود فى فلسطين ــ الاقلية ــ كان ٨١ مليونا بينما كان مجموع انتاج العرب ــ الاغلبية ــ فيها ٦٢ مليونا

المعركة لا يحسمها كذا ألف جندى وكذا وكيت من السلاح . ان هذا هام وحيوى الى أقصى الحدود ، ولكن أى جيش لا يؤدى مهمته الا اذا كان مستندا الى مجتمع قوى متقدم سليم . قدرة أى جيش مرتبطـــة ارتباطا عضويا بقدرة المجتمع نفسه وفعاليته ..

الثورة الاجتماعية اذن .. والثورة الصناعية .. والثورة الثقافية واقامة مجتمع سليم عصرى متحضر ، هى المعركة الجدية التى تحسم معركة هذه الاقدار المتصادمة فى مداها الطويل ..

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

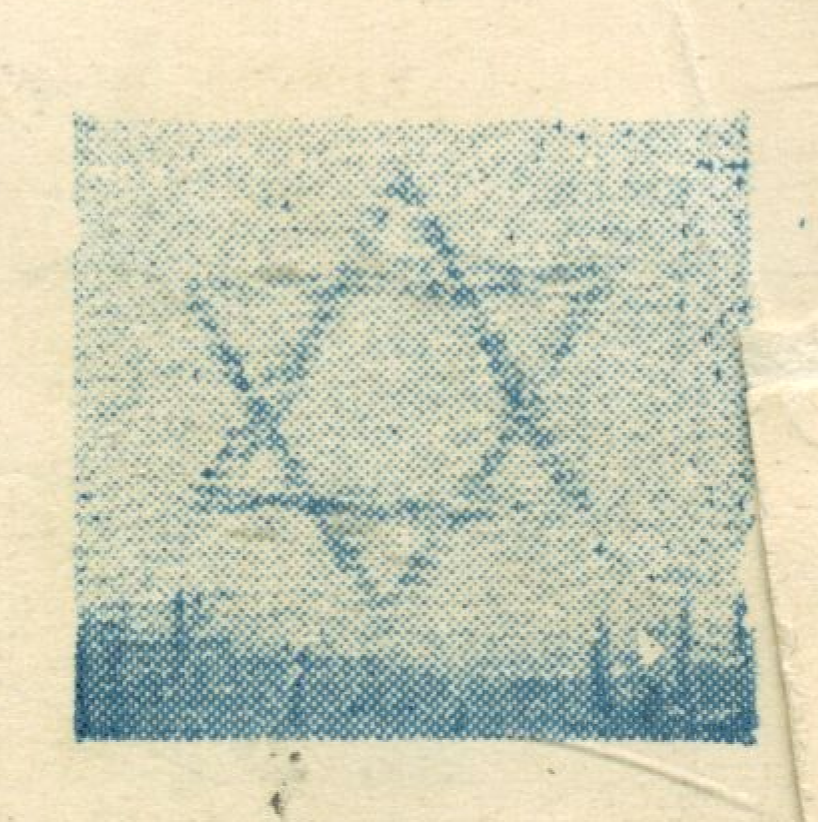
جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هذا الكتاب

منذ ما يقرب من نصف قرن ، وقضية اسرائيل ، والصهيونية ، هى القضية الاولى المؤثرة فى حياة العرب . وقد صدرت كتب كثيرة عن اسرائيل وعدوانها . ولكن حتى الآن لم يكتب العرب كثيرا عن اسرائيل او الصهيونية بابعادها واعماقها الشاملة ..

ان التحدى الذى تفرضه علينا اسرائيل ليس
عسكريا أوسياسيا فقط ، ولكنه تحد « حضارى »
معانيه .. فى السياسة والاقتصاد والفن والفلسفة وا
الانسانية وفهم حركة التاريخ

وهذا الكتاب الصغير الحجم يفتح آفاقا شاسع
والتأمل فى هذه المجالات ..

